تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

من كنوز القرآن ٥

مع قصص السابقين في القرآن

(١)

دروس في الإيمان، والدعوة، والجهاد

الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم

دمشق

مع قصص السّابقين في القرآن

(١)

دُرُوسٌ في الإيمَانِ ، وَالدّعوَةِ ، وَالجِهَادِ

بسم الله الرحمن الرحيم

من كنوز القرآن
٥

مع قصص السّابقين في القرآن

(١)

دُرُوسٌ في الإيمانِ ، وَالدّعوةِ ، وَالجهادِ

الدّكتور
صلاح عبد الفتّاح الخالدي

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١

القسم الأول

من قصص بني إسرائيل في القرآن

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

[سورة النمل: آية ٧٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

إن الحمد للَّه. نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد اللَّه فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات اللَّه وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فقد قصَّ اللَّه علينا في القرآن قصصاً للسابقين، ووصف هذا القصص بأنه الحق الذي لا يتطرق إليه شك، كما وصف هذا القصص بأنه «أحسن القصص».

وأخبرنا اللَّه بأنه يقص علينا ذلك القصص لعلنا نتفكر، وأمرنا أن نقص هذا القصص على الناس لعلهم يتفكرون.

كما أخبرنا اللَّه بأنه يقص علينا ذلك القصص للمواساة، والتثبيت، والصبر على المجاهدة والمواجهة.

وقرر اللَّه سبحانه أن في قصص السابقين عبرة لأولي الألباب، الذين يقفون على تلك القصص، ويدركون ما فيها من عبر وعظات، ويستخرجون ما فيها من دروس ودلالات.

وقد أمرنا اللَّه بأن نقتدي بالصالحين والمصلحين من السابقين، الذين عرض علينا قَصصهم، وأطلعَنا على طريقتهم في الدعوة والإصلاح والمواجهة والجهاد، والصبر والثبات.

وأوجب اللَّه علينا أن نتدبر القرآن، وأن نفهم ما يريد أن يقرره من عبر ودروس، وإيحاءات ودلالات، من خلال عرضه لقصص السابقين.

وإدراكاً منا لأهداف القرآن من قصصه، والتفاتاً منا لما في هذا القصص من حقائق ومبادىء وتوجيهات، وتنفيذاً منا لأمر اللَّه بالتدبر والتفكر والاعتبار، ورغبة منا في خدمة كتاب اللَّه، وبيان ما نقدر عليه من علومه ودروسه وتفسيره، قمنا بإعداد هذه الدراسة عن قصص السابقين في القرآن.

• • •

إن المسلمين يعيشون في هذا العصر تحدياً عالمياً كبيراً، وإن هجمة أعدائهم عليهم تزداد كل يوم قوةً وعنفاً وشراسة، وتنوعاً وشمولاً، وقد وصلوا إلى مواقع متقدمة في الواقع الإسلامي المعاصر، ولكنهم لم يصلوا ـ ولن يصلوا إن شاء اللَّه ـ إلى مركز القيادة!

ولقد قام دعاة ومصلحون ومربون بواجبهم تجاه هذه الأمة، فنصحوها ووجَّهوها وأرشدوها، وبصَّروها بالطريق، وعرَّفوها على معالمه وسماته، وقادوها في المواجهة والجهاد.

واستجاب صالحون وصالحات من جنود اللَّه للنصح والبيان، والتزموا طريق الحق والهدى، وواجهوا قوى الباطل والشر والفساد، ودخلوا ميدان الجهاد والمواجهة والتحدي بإيمان واستعلاء، وصبر وثبات، وهمة وعزيمة، وصدق وإخلاص، وثقة ويقين، وإيثارٍ لما عند اللَّه، ورغبةٍ في رضوانه.

وتزداد طريق الحق في كل فترة وضوحاً، ويزداد الصالحون والصالحات في الإقبال عليها والسير فيها والالتزام بها.

وسوف يصلون بإذن اللّه إلى نهاية الطريق المستقيم القاصد الراشد، ويحققون بإذن اللّه ما يريده اللّه لهم، وما يطلبه منهم.

وسوف يُغيِّرون بإذن اللّه واقع الأمة السيء، وحياتها الشائهة، ويعالجون أمراضها الخطيرة، وسوف ينجحون بإذن اللّه في مقاومة قوى الباطل والشر والفساد، وإِبطال كيدها ومكرها، ودحرها وهزيمتها، لأن هذه سنة اللّه، وهذا قدَره سبحانه، وهذا وعد اللّه لهذه الأمة، أمة الخلافة والشهادة والقيادة والريادة.

إننا على يقين تام بأن الغاشية التي غشيت سماء الأمة المسلمة ستزول بإذن اللّه، وأن أعداءها سيُهزمون ويندحرون ويفشلون بإذن اللّه، وأنها سوف تسترد عافيتها، وتتجدد فيها دماؤها، وتعود إلى موقعها الرائد، ورسالتها الهادية، وخلافتها الراشدة.

لكن هذه الآمال والأماني والرؤى الحقيقية العملية الواقعية الواعية تحتاج إلى مضاعفة الجهود، وتحقيق المطلوب، والتحقق بالشروط والمواصفات التي قررها اللّه للأمم الغالبة المنتصرة وفق سننه التي لا تتخلف.

ونعتقد أن القرآن الكريم هو الأساس والمنطلق لما نرجوه لهذه الأمة من مستقبل واعد، ومكانة عالية سامية.

فهو الذي أخرجها أول مرة من العدم، وجعلها خير أمة أُخرجت للناس، وسلمها قيادة البشرية، وهو وحده الكفيل بإعادة إخراج الأمة وقيادتها في حياتها، وتوصيلها إلى مركز القيادة والريادة مرة أخرى، ولن يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها!

إنني أرى من الواجب علّي أن أساهم في الجهود المبذولة لبعث الأمة الإِسلامية من جديد، بما أقدر عليه من وقت وجهد، وعمل وقول، وفكر وبيان. وأرى أن ما عندي من ذلك قليل لا يكاد يُذكر، ولكنّه جهدُ المُقِلّ.

وإنني أرى وجوب الانطلاق للبعث الإسلامي من القرآن، باعتباره المنطلق لذلك، ولذلك كانت هذه المكتبة القرآنية التي نويت تقديمها للأحباب الكرام «من كنوز القرآن». وقد صدر منها أربعة كتب، وهذا هو خامسها ـ ولله الحمد ـ وإنني أنوي استمرار العمل في هذا المشروع القرآني، وتقديمَ ما أراه مناسباً في حلقات ودراسات قرآنية قادمة، وأستمد من الله سبحانه التوفيق والعون، وأرجو منه السداد والقبول.

إن القرآن الكريم هو أوْلى ما تتوجه إليه النظرات، وتُنفَق فيه الجهود والأوقات والأعمار، وتُعد حوله البحوث والدراسات، وتُستخرج منه القواعد والمناهج والأسس والنظريات.

وإن هذا القرآن يَكفي ويُغني، ويُسعف كل من يقبل عليه، ويلبي له حاجته، ويقدم له بغيته. إنه منهل عذب يروي الظامئين، ومعين ثرّ غزير يكفي جميع الواردين، وكنوزٌ وافرة مذخورة تغني كل الراغبين فيها والقاصدين إليها.

ولو أن جميع الجهود توجهت لهذه الكنوز القرآنية فلن تأتي عليها ولن تستنفدها، ولو أن الباحثين كلهم على اختلاف تخصصاتهم وميولهم ونظراتهم ودراساتهم توجهوا إلى القرآن، فلن يقدِّموا كل ما في القرآن من علوم ومعارف، وأحكام ومبادىء، ودروس ودلالات، ولطائف وتوجيهات. وكم ترك الأول للآخر!!

وصدق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عندما وصف هذا القرآن قائلاً:

«ستكون فتن، والمخرج منها كتاب الله، فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ بعدَكم، وحكمُ ما بينكم. هو الفصْل ليس بالهزْل. من تركه من جبار قصمهُ الله، ومن ابتغىَ الهُدى في غيره أضلّه الله، وهو حبلُ الله المتين. وهو الذكرُ

الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، وهو الذي لا تَزيغُ به الأهواء، ولا تَلْتبسُ به الألسنة، ولا يَشْبع منه العلماء، ولا تَنْقضي عجائبه، ولا يَخْلِق عن كثرةَ الرد. من قال به صَدَق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم».

• • •

قصص القرآن كثيرة منوعة، شملت مختلف سوره وآياته، منها القصير ومنها المطوَّل، منها القصة القصيرة ذات اللقطة السريعة أو اللقطات القصيرة، ومنها القصة متوسطة الطول ذات المشهد الواحد أو المشاهد القصيرة، ومنها القصة المطوَّلة ذات المشاهد الكثيرة، والعرض المنوَّع المكرَّر.

قصة إلياس مع قومه في سورة الصافات مثال للقصة القصيرة، وقصة سليمان مع النملة والهدهد وملكة سبأ وعرشها في سورة النمل مثال للقصة متوسط العرض، وقصة يوسف في سورة يوسف مثال للقصة المطولة المعروضة كلها في موضع واحد، بينما قصة موسى مع فرعون، ثم مع بني إسرائيل، التي عرضت في كثير من سور القرآن مثال للقصة المطولة المكررة المنوعة.

وهناك تقسيم آخر لقصص القرآن، من حيث موضوعُه وأشخاصه وأحداثه، وهو التقسيم الذي يرتبط بكتابنا هذا أكثر من غيره.

قصص القرآن قسمان:

- □ **القسم الأول: قصص الأنبياء والمرسلين.**
- □ **القسم الثاني: قصص غير الأنبياء والمرسلين.**

ولكنه يوجد تداخل بين القسمين، لذلك يستحيل فرزهما عن بعضهما، إذ يدخل بعض القسم الثاني ضمن القسم الأول، ويجد الباحث نفسه يخوض فيه، وينظر في أحداثه، أثناء نظره في القسم الأول!

ولي على القسم الثاني، وهو قصص غير الأنبياء تقسيمان آخران:

* **الأول: قصص بني إسرائيل.**
* **الثاني: قصص السابقين من غير بني إسرائيل.**

ومثال النوع الأول، قصص: قَارون، وطالوت، وأصحاب السبت، والبقرة، والتيه.

ومثال النوع الثاني، قصص: أصحاب الكهف، وذو القرنين، ولقمان، وابنيْ آدم.

• • •

قصص الأنبياء في القرآن، صدرت عنها كتب ودراسات كثيرة، من أجودها ــ فيما أرى ــ كتاب «مع الأنبياء في القرآن» لعفيف عبدالفتاح طبّارة.

وقد عرضتْ هذه الكتب والدراسات كثيراً من المعاني والعبر والعظات، وجزى اللّٰه أصحابها خير الجزاء.

ولذلك لا نية لي ــ حتى الآن ــ في الكتابة عن قصص الأنبياء في القرآن، مع يقيني بأنه يمكن إضافة جديد ومفيد من النظرات والدروس والدلالات، وبخاصة في الإيمان والدعوة والجهاد والثبات والنصر والتمكين. وأشعر أنه قد تكونت لديَّ ــ بفضل اللّٰه ــ بعض الإضافات في هذا المجال، لكنني لم أنو ــ حتى الآن ــ إفراد الحديث عنها بدراسة، ولا أدري ما سيكون في قادم الأيام، والخيرة فيما يختاره اللّٰه، ونسأل اللّٰه أن يختار لنا الخير، وأن يقْدُره لنا، وأن يرضينا به، وأن يعيننا على أدائه.

• • •

كانت وقفتي أمام قصص السابقين من غير الأنبياء، لقلة الدراسات التحليلية المنهجية العلمية حولها، ولحاجتنا الماسة للوقوف أمامها، واستخراج ما يقدِّرنا اللّٰه عليه من دروسها وعبرها ودلالاتها.

وقد رأيت أن أجعل هذه الدراسة في قسمين، لتصدر في كتابين، تسهيلاً على القراء الكرام.

- ☐ **القسم الأول: لقصص بني إسرائيل في القرآن، وهو هذا الكتاب.**
- ☐ **القسم الثاني: لقصص السابقين الآخرين من غير بني إسرائيل.**

وقد جاء هذا الكتاب في تسعة فصول:

* **الفصل الأول**: حديث القرآن عن قصصه سجلتُ فيه أهم سمات قصص القرآن كما عرضها القرآن نفسه، وبينت هدفه من عرضها، ومدى الفائدة منها، وما يمكن أن يُستخرج منها من دروس ودلالات. وأخذت كل هذا من آيات القرآن.

* **الفصل الثاني**: منهج النظر في قصص السابقين، حيث استخلصتُ هذا المنهج من القرآن، ومن أحاديث رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، ومن نظرات العلماء المنصفين المحققين الموضوعيين. وحرصت على الالتزام بذلك المنهج، ودعوت كل باحث وناظر وكاتب وواعظ ومحاضر أن يلتزم بذلك المنهج، ليتصف جهده بالحق، ويعرض على الناس الحق، ولا يخرج من الحق إلى الباطل. ومن العلم إلى الادعاء والإفتراض.

* **الفصل الثالث**: قصة أم موسى عليه السلام، كما عُرضت في سورتي طه والقصص.

* **الفصل الرابع**: قصة مؤمن آل فرعون رضي اللّٰه عنه،كما عُرضت في سورة غافر، أو المؤمن.

* **الفصل الخامس**: قصة قارون في سورة القصص.
* **الفصل السادس**: قصة تيه بني إسرائيل في سورة المائدة.
* **الفصل السابع**: قصة بقرة بني إسرائيل في سورة البقرة.

* **الفصل الثامن**: قصة أصحاب السبت في سورة الأعراف.
* **الفصل التاسع**: قصة طالوت في سورة البقرة.

وأنوي ــ إن شاء الله ــ إصدار قسم ثانٍ أخصصه لقصص سورة الكهف الأربعة، وهي قصة أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وموسى مع الخضر ــ عليهما السلام ــ وذو القرنين.

وأسأل الله أن يعينني بعون من عنده، فهو وحده المستعان.

• • •

لقد كانت النظرات في قصص هذا الكتاب شاملة، والدروس والدلالات المستخرجة منها منوعة.

لكن حرصتُ في دراستي لتلك القصص على الأمور التالية:

١ ــ البقاء في جو النص القرآني في عرضه لتلك القصص، وعدمُ الخروج عنه إلا إلى الأحاديث الصحيحة التي بينَتْ ما فيه من إبهام، ووضحتْ ما فيه من غموض أو إشكال، والاكتفاء بما ورد في هذين المصدرين اليقينييْن: القرآن والحديث الصحيح.

٢ ــ الحرص على عدم قبول أي خبر أو تفصيل أو بيان من الإسرائيليات، وغيرها من الأخبار والروايات الخرافية والأسطورية، ورفض أي قول أو بيان لأي إنسان مهما كان، ما لم يعتمد في قوله وبيانه على القرآن الصريح أو الحديث الصحيح. لاعتقادي بوجوب الاكتفاء بالبيان القرآني والنبوي، ووجوب السكوت على ما سكتا عنه من الأحداث والتفصيلات، وحرمةِ تفسير كلام اللّٰه الصادق بما لم يثبت صدقه ولا صحته من الروايات والأخبار، وحرمة الكلام في غيب السابقين بما قاله اليهود المحرِّفون، المزوِّرون للتاريخ، الكاذبون في الأخبار والأقوال.

٣ ـ الالتفات إلى الأبعاد الواقعية لتلك القصص، والإشارة إلى انطباق بعض لقطاتها ومشاهدها ونماذجها على الواقع المعاصر، وانطباق هذا البعد الواقعي العملي الحي على ما يؤخذ من تلك القصص من دروس ودلالات.

٤ ـ الاعتقاد بأن تلك القصص تعتبر كنوزاً مذخورة، تحوي الكثير من الدروس والعبر، والحقائق والمبادىء، والنظرات واللفتات، وأن ما تحويه هذه الكنوز من ذلك منوَّع وشامل، منه الإيماني والدَّعَوي، والأخلاقي والتعليمي، والسياسي والاقتصادي، والعسكري والجهادي، والحضاري والإنساني. وقد حاولتُ الإشارة إلى بعض تلك الأبعاد والجوانب والمعاني، وسجلتُ ما وفقني اللّه إلى إدراكه والالتفات إليه منها.

٥ ـ التركيز على الدروس الإيمانية والدعوية والجهادية والسُّنَنِيَّة المستخرَجة من تلك القصص، باعتبارها أهم ما يحتاجه الدعاة والمصلحون في هذا الزمان.

٦ ـ يقيني الجازم بأن ما عرضْتُه من هذه الدروس والعبر والدلالات يسيرٌ قليل لا يكاد يذكر، ولا يمثل بالقياس إلى الكنوز المذخورة منها إلا أقلَّ مما تمثله قطرة ماء بالقياس إلى المحيط، أو حبة رمل بالقياس إلى كثبان رمال الصحراء!

فلا أزعم أنني حصرت تلك الدروس والدلالات أو استقصيتها، بل أجزم أنني تركت منها الكثير ـ لا عن قصد، بل عن عجز وتقصير ـ للناظرين في آيات القرآن، والمتدبرين لقصصه، فكم تركتُ لهم منها! وكم سيتركون هم بدورهم لمن جاء بعدهم!

ويطيب لي أن أردد مع سيد قطب قولَه في استخراجه دروس وإيحاءات قصة طالوت: «ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة. فالنصوص القرآنية ـ كما علمتْنا التجربة ـ تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه. ويبقى لها رصيدها المذخور، تتفتح به على القلوب في شتى المواقف، على قدر مقسوم».

• • •

وأتوجه بهذا العمل ـ وبغيره من الأعمال ـ إلى اللَّه وحده، وأسأله أن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعله لي ذخراً ورصيداً في الميزان، وأن يكتب لي النجاة والفوز يوم القيامة.

وأقر أن ما كان في هذا العمل من حق وخير وصواب فهو من اللَّه وحده، وأحمده أن وفقني إليه، وأسأله من ذلك المزيد.

كما أقر أن ما فيه من خطأ ونقص وقصور ـ وهو موجود لا محالة ـ فمن نفسي ومن الشيطان، وأتوب إلى اللَّه وأستغفره من ذلك، وأرجو من القارىء الكريم الذي يقف على شيء منه أن يدعو لي بالمغفرة، وأن يُسامحني تجاهه، وأن يرشدني إليه.

والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى اللَّه على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

صويلح: في ١٤٠٧/١٢/١هـ
٢٦/٧/١٩٨٧م.

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

حديث القرآن عن قصصه

قص القرآن علينا كثيراً من قصص السابقين، من الأنبياء ومن غير الأنبياء، منه ما كان من قصص المؤمنين، ومنه ما كان من قصص الكافرين.

وقد تحدث القرآن عن قصصه الذي أورده، وبيّن لنا الحكمة من إيراده، وماذا يمكن أن نستفيد نحن منه، ومواطن العبرة فيه، ومنهج فهمه وتدبره والتعامل معه.

وسوف نقف وقفة سريعة مع حديث القرآن عن قصصه، لتكون هذه الوقفة تمهيداً لكلامنا عن قصص السابقين في القرآن، ومدخلاً للتعامل مع ذلك القصص.

مادة «قَصص» في القرآن:

أورد القرآن مادة «قصص» في عديد من حالاتها واستعمالاتها وتصريفاتها: في صورة الفعل الماضي، وفي صورة الفعل المضارع، وفي صورة فعل الأمر، وفي صورة المصدر.

قال الإمام الراغب الأصفهاني في مفرداته عن هذه المادة:

«القَصُّ: تتبُّع الأثر. يقال: قَصصتُ أثره.

والقَصص: الأَثَر. قال تعالى: ﴿فَارْتَدّا عَلىٰ آثارِهِما قَصَصاً﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾(٢).

والقَصص: هو الأخبار المتتبَّعة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هـٰذا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿فَلَمّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ، قالَ لا تَخَفْ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ﴾(٥).

والقِصاص: تتبع الدم بالقَوَد»(٦).

هو القَصص الحق:

قصص القرآن عن السابقين هو القصص الحق، وروايته لبعض تلك الأحداث هي الصدق والصواب. لأن اللّٰه هو الذي يقص علينا في القرآن ذلك القصص، ولقد كان اللّٰه مطَّلعاً على تلك الأحداث، مقدِّراً لها، حيث وقعت بعلمه وإرادته وقدره ـ سبحانه ـ فكلام اللّٰه عنها لا يأتيه الباطل، ولا يتطرق إليه الشك، ومَن أصدق من اللّٰه حديثاً؟ ومن أصدق من اللّٰه قيلاً؟ لا أحد.

وقد وُصِف قصص القرآن بأنه القصص الحق:

ففي سورة آل عمران، وبعد أن وردت عدة آيات تجادل النصارى بشأن بشرية عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وتُبطل مزاعمهم حول نسبته إلى اللّٰه

---

(١) سورة الكهف: آية ٦٤.
(٢) سورة القصص: آية ١١.
(٣) سورة آل عمران: آية ٦٢.
(٤) سورة القصص: آية ٢٥.
(٥) سورة يوسف: آية ٣.
(٦) المفردات في غريب القرآن: ٤٠٤.

ـ سبحانه ـ وتقص عليهم أحداث حمل أمه مريم ـ رضي اللّه عنها ـ به، ثم ولادتها له؛ وردت آية وصفت هذا القصص بأنه هو القصص الحق، الذي لا خطأ فيه ولا كذب ولا باطل. فقال تعالى: ﴿إِنَّ هٰذا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ، وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلّا اللّه»(١).

وفي سورة النمل، قص القرآن علينا، طرفاً من قصة موسى عليه السلام مع فرعون، ثم طرفاً من قصة داود عليه السلام. وأطال الوقفة ـ قليلاً ـ أمام قصة سليمان ـ عليه السلام ـ مع النملة، ومع الجيش، ومع الهدهد، ومع ملكة سبأ، ومع متابعتها لسليمان ـ عليه السلام ـ ودخولها في دينه.

ثم عقَّب القرآن على ذلك القصص بقوله: ﴿إِنَّ هٰذا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلىٰ بَني إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فيهِ يَخْتَلِفون﴾(٢).

وفي سورة الكهف، وفي بداية ذكر القرآن لقصة أصحاب الكهف، مهَّد لذلك بوصف ما سيقصه عنهم بأنه قصص حق، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدى﴾(٣).

فوصْفُ القرآن لقصصه بأنه قصص حق، وإخباره بأنه سوف يقص قصص السابقين بالحق، يوحي لنا بالمنهج العلمي الرصين، في فهم قصص القرآن، وبحثه وتدبره.

هو أحسن القصص:

في سورة يوسف، وَصَفَ اللّه قصص القرآن بأنه أحسن القصص. فقال تعالى: ﴿إِنّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلون. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ

(١) سورة آل عمران: آية ٦٢.
(٢) سورة النمل: آية ٧٦.
(٣) سورة الكهف: آية ١٣.

القَصَصِ، بِما أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذا القُرْآن، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغافِلين. إذ قالَ يوسُفُ لِأَبِيهِ. . .﴾[1].

لماذا قصص القرآن هو أحسن القصص؟ ولماذا ورد هذا الوصف في سورة يوسف بالذات؟.

إن سورة يوسف تخصصتْ بقص قصة يوسف عليه السلام، حيث أفردت لها مائةَ آية، من آياتها التي بلغت مائة وإحدى عشرة آية، والآيات الأخيرة منها كانت في التعقيب على قصة يوسف. عرضتْ قصة يوسف عليه السلام، منذ أن رأى رؤياه وهو غلام صغير إلى أن تحققت رؤياه عملياً، وتم تأويلها في عالم الواقع.

وقصة يوسف من أحسن القصص ــ وكل قصص القرآن حسن ــ لأنها تقدِّم البشرى والأمل للمكروبين وأصحاب الابتلاءات والمحن، والذين يعانون آلام الاضطهاد والفتنة، بأن الفرج آت، والأمل قادم، والمحنة ستزول، المهم هو أن يُحسنوا الإِيمان باللَّه والتوكل عليه، والثبات على صراطه. كما حصل مع يوسف عليه السلام.

وإنَّ قصص القرآن لهو أحسن القصص، وكأن القرآن يدعونا ــ من خلال هذا الوصف ــ إلى أن نكتفي بما قصه علينا القرآن من أحداث قصص السابقين، وأن لا نتجاوز القرآن إلى مصادر بشرية ــ مثل الإِسرائيليات والأساطير ــ نطلب فيها تفصيلاتٍ لما سكت عنه القرآن.

هناك من يفعلون هذا، ويأخذون من تلك المصادر، رغبة منهم في إشباع الحاجة القصصية لدى السامعين، وتقديم متعة فنية قصصية لهم، بزعْم

(١) سورة يوسف: آيات ٢ ــ ٤.

أن ما يقدمونه لهم هو حسن لأنه يلبي فيهم تلك الحاجة، ويحقق لهم تلك المتعة!!.

إن وصف القصص بالحُسْن، ليس لأنها تتوسع في التفصيلات، وتُكثر من سرد الأحداث، وتحدد الأسماء والأماكن. فقد لا يكون الحديث عن هذه الجوانب حسناً، وذلك إذا استند على المصادر غير الصحيحة.

إن وصْف القصص بالحُسن، يتحقق لها إذا اتصفت قبله بصفة الحق والصدق والصواب. فالحَسَن مبني على الحق. فإذا فقدت القصص صفة الحق، فقدت تلقائياً صفة الحسْن.

الإسرائيليات والأساطير لا حُسْن فيها، لأنها فقدت صفة الحق والصدق والصواب. وقصص القرآن هي القصص الحق، لذلك فهي أحسن القصص.

ولعله لأجل هذا المعنى، وصف القرآن قصصه بأنه أحسن القصص ـ والله أعلم ـ.

الله يقص قصص السابقين:

قص الله ـ سبحانه ـ على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصص السابقين في القرآن، فقال تعالى: ﴿كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَق، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنّا ذِكْراً﴾(١).

وعقّب على قصص الأقوام السابقين، وما جرى لهم، في سورة الأعراف بقوله: ﴿تِلْكَ القُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها. وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنات﴾(٢).

---

(١) سورة طه: آية ٩٩.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٠١.

كما عقَّب على نفس القصص الوارد في سورة هود، بقوله: ﴿ذٰلِكَ مِنْ أَنْباءِ القُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ. مِنْها قائِمٌ وَحَصيد. وَما ظَلَمْناهُمْ وَلٰكِنْ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ، فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ التي يَدْعونَ مِنْ دونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، لَمّاجاءَ أَمْرُ رَبِّك، وَما زادوهُمْ غَيْرَ تَتْبيب. وَكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ القُرى وَهِيَ ظالِمَة. إِنَّ أَخْذَهُ أَليمٌ شَديد﴾(١).

وأَنْ يقص اللَّه علينا في القرآن قصص السابقين، فهذا تكـرُّمٌ منه سبحانه، وهومظهر من مظاهـر رحمة اللَّه بنـا، وفضله علينا، إذ بصَّـرنا بما يصلحنا، وأرشدَنا إلى طريق محبته ورضاه، وحذرنا من طريق غضبه وسخطه وعذابه. وذلك من خلال ما قصه علينا من قصص السابقين.

فعلينا أن نَقْبل نعمة اللَّه فيما قصه علينا، وأن نكتفي بما بينه اللَّه لنا، وأن لا نترك ذلك البيان الرباني الصادق الصحيح، إلى افتراضات وادعاءات وروايات، مأخوذة من الأساطير والإسرائيليات.

بماذا نصف الذين يتركون ما قصه اللَّه علينا إلى تلك المصادر البشرية التي نالها من التحريف والتزوير ما نالها؟.

فاقصص القصص:

أمر اللَّه رسوله صلى اللَّه عليه وسلم بأن يقص القصص على الناس، وبيّن أن هذا قد يدفع السامعين إلى التفكر والاعتبار.

وجاء هذا الأمر صريحاً في آية من سورة الأعراف، وبعدما ذكر القرآن قصة رجل آتاه اللَّه علماً، فتخلى عن ذلك العلم. واستخدمه في الباطل، وأتْبعه الشيطان، وصار يعيش حالة «لُهاثٍ» دائم، كَمَثَل الكلب في لهاثه.

(١) سورة هود: آيات ١٠٠ ـ ١٠٢.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ الّذي آتَيْناهُ آياتِنا، فَانْسَلَخَ مِنْها، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ، فَكَانَ مِنَ الغاوين. وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلى الْأَرْضِ، وَاتَّبَعَ هَواه، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْب، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث.

ذٰلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الّذِينَ كَذَّبوا بِآياتِنا، فَاقْصُصِ القَصَصَ، لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرون. ساءَ مَثَلاً القَوْمُ الذينَ كَذَّبوا بِآياتِنا، وَأَنْفُسَهُمْ كانوا يَظْلِمون﴾[1].

وتعقيب القرآن على قصة هذا الرجل الذي انسلخ عن علم اللّٰه، بالأمر للرسول صلى اللّٰه عليه وسلم بقص القصص، يدل على أهمية القصص عند الناس، وضرورتها لنشر الدعوة، وترسيخ معاني العقيدة، وضرْب النماذج الإنسانية للمعاني التي يدعو إليها الدعاة.

يجب أن يتحول ذكر القصص للمسلمين، من قِبَل الكاتبين والمتحدثين والواعظين، من كونه هدفاً أساسياً، إلى جعله وسيلة ضرورية، لتحقيق هدف إسلامي أصيل. ويجب أن يتحول هدفنا من الحديث عن قصص السابقين، فلا نهدف إلى مجرد «إمتاع أسماع» السامعين، وتقديم روايات وأقاصيص، يطربون منها ويتلذذون بها، ويُشبِعون بها حاستهم الفنية، بل نهدف إلى أن نجعلهم يتفكرون فيما يسمعون، فيستخرجون منه دروساً في الإيمان والدعوة والجهاد والثبات.

إن ذكر القصص وسيلة لا بد منها من وسائل الدعوة، وأسلوب ضروري لإحقاق الحق، ومحاربة الباطل.

إن السامعين يفرقون بين رجلين من المتحدثين: بين رجل يعرض أفكاره ودعوته عليهم من خلال القصص، وبين رجل آخر يعرض الأفكار نظرية مجردة مثالية جافة.

---

(١) سورة الأعراف: آيات ١٧٥ ــ ١٧٧.

إنهم يتفاعلون مع الأول منهما، ويتأثرون به، ويؤيدونه وينقادون إليه.

علينا نحن الدعاة أن ننفذ أمر اللّه بقوله: ﴿فاقصص القصص﴾ وأن نستخدم هذا الأسلوب الرباني الحكيم.

لكننا علينا أن نَحْذَر من الخروج على القرآن الكريم ـ والحديث الصحيح ـ في مادة قصصنا وتفصيلاتها، وأن لا نأخذ في شيء منها عن غير هذين المصدرين اليقينيْن الموثوقَيْن.

لعلهم يتفكرون:

أشار القرآن ـ أثناء حديثه عن القصص ـ إلى ثلاثة أهداف من ذكره لتلك القصص، ودعانا إلى أن نلتفت إليها، وأن نحققها ونحن نقرأ تلك القصص، ونتدبرها ونتعامل معها.

أما الهدف الأول: فهو قوله: ﴿لعلهم يتفكرون﴾.

إن سماع قصص القرآن والوقوف أمامه وتدبره، يقود إلى التفكر. والتفكر عملية عقلية، يُعْمِل بها الإنسان فكره، ويُشغل عقله. فيقف على مواطن العظة والعبرة.

إن القرآن يريد منا أن نتفكر ونتعظ، وإنه يدعونا في آيات كثيرة إلى التفكر والاتعاظ. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَة: أَنْ تَقوموا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى، ثُمَّ تَتَفَكَّروا﴾[1].

إن التفكير واجب قرآني، وفريضة إسلامية، وضرورة حياتية.

---

(١) سورة سبأ: آية ٤٦.

وإن الذين لا يقومون بهذا الواجب، ويعطلون هذه الفريضة، يهدرون هذه النعمة الربانية التي منحها لهم ربهم سبحانه، ويضيعون هذه الطاقة الهائلة التي وهبها لهم.

التفكير والتعقل والاتعاظ ثمرةٌ من ثمار قراءة قصص السابقين في القرآن، ونتيجةٌ من نتائج سماع قصص القرآن، وهدفٌ رفيع يجب أن يهدف إليه كل من قرأ قصص القرآن، أو سمعه، أو قصه على السامعين.

قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَة، فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عرُوشِها، وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشيد. أَفَلَمْ يَسيروا في الْأَرْض، فَتَكونَ لَهُمْ قُلوبٌ يَعْقِلونَ بِهَا، أَوْ آذانٌ يَسْمَعون بِها، فَإِنَّها لا تَعْمى الْأَبْصار، وَلٰكِنْ تَعْمى القُلوبُ الّتي في الصُّدور﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتُمُرّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحينَ. وَبِاللَّيْل، أَفَلا تَعْقِلون﴾[2].

ويلاحظ أن الآيتين الأخيرتين، أوردهما القرآن، في التعقيب على قصة قوم لوط في سورة الصافات. وهو فيهما يخاطب قريشاً، ويذكِّرهم بأنهم يمرون على قرى قوم لوط أثناء تجارتهم إلى الشام، يمرون عليهم في الصباح وفي المساء. ويذمهم لأنهم لم يُعْملوا عقولهم، ويُديروا أفكارهم، ويُجيلوا نظراتهم، فيما جرى لقوم لوط، فيقودهم هذا إلى الإيمان بالله، وترك كل ما يغضبه، ويكون سبباً في عذابه.

---

(١) سورة الحج: آيتي ٤٥ ــ ٤٦.
(٢) سورة الصافات: آيتي ١٣٧ ــ ١٣٨.

ما نثبت به فؤادك:

الهدف الثاني الذي ذكره القرآن هو تثبيت الفؤاد.

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ، وَجاءَكَ في هٰذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرىٰ لِلْمُـؤْمِنين﴾(١).

تثبيت الفؤاد على الحق، واستعلاؤه بالحق على كل قوى الباطل، وإيثاره لما عند اللَّه، ويقينه بوعد اللَّه، وبقاؤه مع جنود اللَّه، ومواجهته لأعداء اللَّه، واستمراره على هذا النهج حتى يلقى اللَّه.

كل هذه المعاني يأخذها المؤمن من قصص السابقين وأنباء الرسل.

الآية خطاب لرسول اللَّه ـ صلى اللَّه عليه وسلم ـ وردتْ بعد عرض قصص الأنبياء: نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى ـ عليهم السلام ـ في سورة هود.

وقد نزلت سورة هود على رسول اللَّه ـ صلى اللَّه عليه وسلم ـ في فترة حرجة قاسية، من أحرج الفترات التي مرت بها الدعوة في مكة. فاحتاج الرسول صلى اللَّه عليه وسلم ـ والمسلمون معه ـ إلى مواساة وأُنس وتثبيت. فجاء قصص الأنبياء يحقق هذا الهدف القرآني العظيم.

إن الخطاب في الآية شامل للمسلمين أينما كانوا، وموجَّه لكل مسلم في كل زمان ومكان ـ رغم كونه موجَّهاً أساساً لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، لأن خطاب الرسول خطاب لكل فرد في أمته، ما لم يقم دليل على تخصيص الخطاب به وحده ـ

كل صحابي وجد في قصص السابقين ما ثبت به فؤاده، وكل مسلم أحسن التعامل مع قصص السابقين في القرآن، وجد عنده ما ثبت به فؤاده.

---

(١) سورة هود: آية ١٢٠.

ومسلمو هذا الزمان أحوج ما يكونون إلى تحقيق هذا الهدف القرآني من قصصه، نحن أحوج ما نكون إلى أن نثبِّت بقصص القرآن أفئدتنا، ونحقِّق الطمأنينة لقلوبنا، ونرسِّخ على طريق الحق مواقعنا، ونثبِّت عليها أقدامنا.

نحن أحوج الناس إلى هذا لكثرة المثبِّطات والمعوِّقات والمغريات التي تميز بها هذا العصر، واشتداد المعركة بين الحق والباطل، وهجمة أهل الباطل الشرسة ضد جنود الحق، وغياب الوجود الإسلامي الواقعي المتمثل في مجتمع وكيان ونظام.

وتخبرنا الآية أنه قد جاءنا في قصص القرآن: الحق، وموعظة، وذكرى للمؤمنين. والمهم هو أن نحسن ملاحظة هذه المعاني فيه.

عبرةٌ لأولي الألباب:

والهدف الثالث من قصص القرآن، هو في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولي الْأَلْباب، ما كانَ حَديثاً يُفْتَرى، وَلـكِنْ تَصْديقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصيلَ كُلِّ شَيْء، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنون﴾(١).

وهذه هي الآية الأخيرة في سورة يوسف، وكأنها تدعونا إلى ملاحظة الهدف من قصة يوسف التي ذكرتْ في السورة كاملة.

وقد مرت بنا من قبل الآية التي بينت منهج القصص القرآني في بداية سورة يوسف وهي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَص، بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هـذا القُرْآن﴾(٢).

وعندما ننظر في الآيتين، نقف على لفتة لطيفة:

---

(١) سورة يوسف: آية ١١١.
(٢) سورة يوسف: آية ٣.

آية في مطلع قصة يوسف ـ عليه السلام ـ تبين لنا مصدر قصص القرآن، وتصفه بأنه أحسن القصص، وتعرِّفُنا على المنهج القرآني البديع في تلقِّي هذا القصص وأخْذه وتدبره والتعامل معه.

وآية في آخر السورة تشير لنا إلى الهدف من إيراد هذا القصص في القرآن، وكأنها تدعونا إلى أن نوجِد فينا هذا الهدف، فلا نجعل القصص هو الهدف بحد ذاته.

آية في بداية القصة تعرِّف على النهج، وآية في نهاية القصة تحدِّد الهدف منها. ويا ليت قومي يعلمون!.

لماذا قصص القرآن عبرة؟

العِبرة من العُبور، وكأنّ الواحد منا عندما يقف أمام قصصِ السابقين في القرآن، يعْبُر إلى الماضين، كأنه يتخلص من قيد الزمان والمكان، ويتحرر من أسْر الواقع، ويستعلي على النظر القاصر القصير، وينطلق إلى عوالمَ فسيحةٍ من تاريخ الأقدمين، وقصص السابقين. فيعايشهم ويراقبهم ويتعظ بهم.

إنها نماذج بشرية مكرورة، تقدمها لنا قصص السابقين في القرآن: نماذج المؤمنين ونماذج الكافرين، نماذج الضعفاء الأذلاء، ونماذج الرجال الصادقين الأقوياء. وإنها قيم دائمة توحي لنا بها قصص السابقين: قيم الحق وقيم الباطل، قيم الفضلية وقيم الرذيلة.

إنها المعركة مستمرة بين الحق والباطل، وإن التاريخ يعيد الكثير من ميادين هذه المعركة وأساليبها وصورها ومجالاتها. ولا يختلف فيها إلا الأشخاص فقط.

كم يقدمُ لنا قصص القرآن من دروس ودلالات وعبر، ومن قيم وحقائق وسنن، ومن زاد وعدة وسلاح، ومن طمأنينة وثقة وسعادة وثبات.

إن قصص القرآن كنزٌ لا ينفد، ومَعين لا ينضب، في دروسه ودلالاته وعِبَره، في الإيمان والعقيدة، وفي العمل والدعوة، وفي الجهاد والمواجهة، وفي المنطق والأسلوب، وفي الصبر والثبات، وفي الموازين والحقائق...

وصدق اللّه ﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب﴾.

إنه لا يستفيد الجميع من قصص السابقين في القرآن، وإن الجميع لا يقدرون على الالتفات إلى دلالات ودروس وعبر تلك القصص.

إن العِبَر فيه خاصة لأولي الألباب، وأصحابِ العقول الواعية، والنظراتِ النافذة، والاهتمامات العملية، والخبرات الدعوية، والجهود الجهادية.

هناك من ينشغل عن هذه الدلالات والعبر والدروس، بمجرد القراءة والتلاوة والاستمتاع.

وهناك من ينشغل عن هذه الدلالات والدروس والعبر، بنظرات لغوية بلاغية فنية بيانية.

وهناك من ينشغل عن هذه الدلالات والدروس والعبر، بالروايات والأساطير والخرافات التي يأخذها من الإسرائيليات والأقاويل غير الثابتة.

لكنْ لأولي الألباب منهجاً آخر في فهم قصص القرآن، يحققون به هذا الهدف القرآني العظيم، ويستخرجون به ما يجدونه من دلالات ودروس وعبر، ولا يَقْبلون أن ينشغلوا هم ــ ولا أن يُشْغلوا الآخرين ــ بأي شيء يحجبهم عن هذه الدلالات والدروس والعبر.

فما هو هذا المنهج الذي يلتزمه أولو الألباب في استخراج الدلالات والدروس والعبر من قصص القرآن؟ تعالوا معنا إلى الفصل التالي، لنتعرف عليه!.

* * *

منهج النظر في قصص السابقين

أخطأ بعض الدارسين والكاتبين والمتحدثين من المسلمين في نظرهم في قصص السابقين في القرآن، وخالفوا ـ بحسن نية ـ المنهجَ الصائب الرصين في دراسة تلك القصص، وقدموا للقارئين والمستمعين «رُكاماً» من الأقوال والأخبار والروايات والتفصيلات، لا تعدو أن تكون من الأساطير والأباطيل والموضوعات. أخذوها من مصادر تحريفية باطلة، وهي «الإسرائيليات» وأخبار أهل الكتاب!.

لا بد للناظر البصير من أن يكون له منهج سليم صائب. حتى يقف على مواطن العبرة في قصص السابقين، وحتى لا يَخرج إلى «تيه» الخرافات والأساطير والأباطيل، وحتى لا «يُشغل» نفسه، أو يُشغل القارىء أو السامع بما يحجبه عن الالتفات إلى تلك الدروس والدلالات والعبر.

وهذا المنهج يؤخذ من الكتاب والسنة.

في القرآن الكريم إشارات حول النظر في قصص السابقين، وحول منهج البحث العلمي الموضوعي السليم.

وفيما يلي بعض تلك الإشارات والتوجيهات القرآنية:

١ ــ هي من غيب الماضي:

قصص السابقين في القرآن تدخل ضمن «أنباء الغيب». لأن الغيوب في الإسلام ثلاثة أقسام:

١ ــ غيب الماضي: وذلك مثل قصص السابقين، كقصة آدم عليه السلام مع إبليس، وأكْله من الشجرة، وإخراجه إلى الأرض. وكقصص قوم نوح وعاد وثمودومدين، وكقصص بني إسرائيل مع أنبيائهم.

وهي غيب الماضي لأنها أحداث حدثت في الزمان الماضي وانتهت، وأصبحت من الأخبار الماضية. وهي غيب بالنسبة لنا، لأننا لم نشهد أحداثها، ولم نسمعها، ولم نعاصرها.

٢ ــ غيب الحاضر: مثل «العوالم» الموجودة الآن، والتي لها كيانها وحياتها ووجودها، ولكننا لا نراها ولا نسمعها. مثل «عالم الملائكة الأبرار» و «عالم الجن والشياطين». بل إن وجود اللّه ــ سبحانه ــ يدخل ضمن غيب الحاضر، لأنه موجود ونحن لا نراه في هذه الدنيا.

٣ ــ غيب المستقبل: مثل الآيات والأحاديث الصحيحة، التي تحدثتْ عن أشياء وأحداث ستحدث في مستقبل تاريخ البشرية، كأشراط الساعة مثل: نزول عيسى عليه السلام، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج. كما يدخل ضمن غيب المستقبل «مشاهد القيامة» ابتداء من نفخة البعث، وانتهاء بإدخال المؤمنين الجنة، وإدخال الكافرين النار.

والناظر في أركان الإيمان الستة، يجد أنها كلها من عالم الغيب، وأن الإيمان بها هو إيمان بالغيب، وأن من أوضح وأبرز صفات المؤمنين، هي إيمانهم بالغيب، وأن العقلية الإسلامية «عقلية علمية غيبية»، والعقلية المادية المنكِرة للغيب هي «عقلية مادية جهلية»!.

والقرآن صريح في اعتبار قصص السابقين من عالم الغيب:

في سورة هود، وبعدما قص القرآن قصة نبـي اللَّه نوح عليه السلام. ابتداءً من دعوتِهِ قومَه إلى اللَّه، إلى أن أغرق اللَّه قومه بالطوفان، وأنجاه مع المؤمنين في السفينة، وأهبطه إلى الأرض بسلام. عقّب على تفصيلات تلك الأحداث بكونها من أنباء الغيب، التي أوحاها اللَّه إلى رسوله صلى اللَّه عليه وسلم. فقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباء الغَيْبِ نوحيها إِلَيْكَ، ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذا﴾[1].

وفي ختام قصة يوسف، أشار القرآن إلى كونها من أنباء الغيب، وأن الرسول عليه السلام ما كان ليعلمها، لو لم يُعْلِمْه اللَّه بها. فقال: ﴿ذٰلِكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ، نوحيهِ إِلَيْكَ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرون﴾[2].

ونفس التعقيب ورد على أحداث قصة مريم رضي اللَّه عنها، منذ أن حملت بها أمها، وكفالة زوج أختها زكريا ـ عليه السلام ـ لها فقال: ﴿ذٰلِكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ نوحِيْهِ إِلَيْكَ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقون أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَم، وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمون﴾[3].

حيث عرفنا من الآية أن العابدين المتنسكين اختصموا وتنافسوا على كفالة مريم، وأن زكريا هو الذي فاز من بينهم بكفالتها، بعدما ألقوا أقلامهم.

---

(١) سورة هود: آية ٤٩.

(٢) سورة يوسف: آية ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران: آية ٤٤.

٢ ــ وما كنتَ لديهم :

وبما أنها من غيب الماضي، فقد اختص اللّٰه وحده ــ سبحانه ــ بالعلم بها، وبأحداثها وتفصيلاتها.

إن اللّٰه وحده هو الذي يعلم الغيب ــ بأنواعه الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل ــ .

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ، لا يَعْلَمُها إلاّ هُو﴾(١).

وقال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّما الغَيْبُ لِلَّه، فَانْتَظِروا، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرين﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمواتِ وَالْأَرْض، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّه﴾(٣).

ونفى اللّٰه علم الغيب عن أحد من البشر، إلا إذا علمه اللّٰه ذلك، وأطلعه عليه.

فقال تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمواتِ ومَنْ في الْأَرْضِ الغَيْبَ، إلاّ اللّٰه، وَما يَشْعُرونَ أَيّانَ يُبْعَثون﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿عالِمُ الغَيْب، فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً. إلاّ مَن ارْتَضى مِنْ رَسول﴾(٥).

---

(١) سورة الأنعام: آية ٥٩.
(٢) سورة يونس: آية ٢٠.
(٣) سورة هود: آية ١٢٣.
(٤) سورة النمل: آية ٦٥.
(٥) سورة الجن: آيتي ٢٦ ــ ٢٧.

ولقد صرح رسـول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بـأنه لا يعلم الغيب ــ إلا من خلال ما علمه اللّٰه ــ وعلَّمه اللّٰه أن يقول للناس: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسي نَفْعاً وَلا ضَرّاً، إلا ما شاءَ اللّٰه، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْر، وَما مَسَّنِيَ السّوء﴾[١].

وبما أن اللّٰه وحده هو الذي اختص بالعلم بتفصيلات قصص السابقين، فلا يجوز لأحد الخوض فيها، وادعاء أنه يعلمها، وإذا كان الرسول الكريم ــ صلى اللّٰه عليه وسلم ــ لم يبيِّن لنا تلك التفصيلات، فمنْ هو المؤهَّل بعده عليه السلام لبيان تلك التفصيلات؟ وقد ارتفع الوحي. ولم يتصل اللّٰه بأحد من الناس بعده، ولم يخبره عن تلك الغيبيات!.

ولقـد استوقفني قـول القرآن لـرسـول اللّٰه صلى اللّٰه عليـه وسلم، وهو يعرض عليـه قصصاً للسـابقين: ﴿وما كنتَ لـديهم﴾ حيث ينفي عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم علمه بها لو لم يكن نبياًولو لم يخبره اللّٰه بها، كما ينفي عن رسول اللّٰه عليه السلام كونَه هناك مع السابقين، ووجودَه بينهم وحياته معهم.

صحيح أن الهدف من هذا النفي إثبات الوحي والرسالة، وبيان أن هذه الأخبار إنما هي من عند اللّٰه، وأن محمداً صلى اللّٰه عليه وسلم، لو لم يكن رسولاً لما علم بها.

ولكننا نأخذ من تلك العبارة ﴿وما كنتَ لديهم﴾ لفتةً من لفتات القرآن، في إرشادنا إلى منهجنا في دراسة قصص السابقين، والنظر فيها، ومصادرنا في أخذها.

إن هذا النفي نقدمه لكل من خاض في تفصيلات تلك القصص، وأورد

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٨٨.

الروايات والأقوال والأخبار في ذلك. نقول له: هل كنت لديهم وهم يقومون بما رويتَه أنت عنهم، هل رأيتهم وهم يقولون ويفعلون! هل سمعتهم؟.. إنك ما كنت لديهم هناك! إنك ما كنت معهم، فكيف تنسب لهم أشياء أنت لستَ مطلعاً عليها؟

قد يقول: إنني أروي عن الآخرين، وأنقل عن السابقين، وأرجع إلى المصادر التي نقلتْ عنهم ونسبتْ ذلك لهم!.

فنقول له: هل كان أولئك الذين نقلتَ أنتَ عنهم معهم؟ هل عاشوا بينهم؟ إن الرواة الذين أخذتَ عنهم هم من بني إسرائيل، وهم غير مُـؤْتَمَنين على أحداث السابقين، وإن مصادرك هي إسرائيليات أصابها ما أصابها من تحريف وتبديل!.

٣ ـ لا يعلمهم إلا اللّه:

أخبرَنا القرآن بأن بعض الأحداث عن قصص السابقين وأشخاصهم، لا يعلمها إلا اللّه وحده سبحانه. وهذا معناه أنه لا يعلمها أحد من البشر.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، قَوْمِ نوحٍ وَعادٍ وَثَمودَ، وَالذِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللّه﴾(١).

فقوْلُ اللّه في الآية: ﴿لا يعلمهم إلا اللّه﴾ نص صريح في نفي العلم بتلك التفصيلات عن أحد من البشر، وقَصْره على اللّه وحده سبحانه.

ونأخذ من هذه الإشارة القـرآنية بصيرةً قرآنيةً نافذة في النظر إلى التاريخ ودراسته والتعامل معه.

إن التاريخ البشري لحياة البشرية، الذي كتبه البشر وصاغوه وأوردوه،

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٩.

مولودُ حديثُ العهد، وعى قليلاً من أحداث وتفصيلات ذلك التاريخ، وفاتَه الكثير من تلك الأحداث والتفصيلات. بالإضافة إلى ما يوجَّه إلى عملية «التاريخ» البشري الصِّرْف ـ الذي لا يصدر عن المصادر الربانية الصادقة ـ من انتقادات صادقة، تشكِّك في صحة المادة التاريخية المروية.

كما نأخذ من هذه الآية، وجودَ ما يسمى باسم «الحَلقات المفقودة» في تاريخ السابقين. وهذه الحلقات التاريخية المفقودة، التي فات التاريخَ البشري تسجيلُها، ولم يتمكن أحد من البشر من العلم بها، يجب أن نَدَعَ العلم بها إلى اللَّه، ويجب أن نتوقف عن الخوض فيها، وأن نتأدب مع كلام اللَّه، وأن نلتزم بما يقدمه لنا، وأن نعترف ـ بعلمية ومنهجية وموضوعية ـ بجهلنا بتلك الحلقات، واستحالة علمنا بها ـ طالما أن اللَّه لم يخبرنا بها ـ.

لا أدري كيف أجاز بعض المتحدثين والكاتبين لأنفسهم مخالفة صريح هذه الآية؟ وظنَّ أن بعض السابقين من أهل الكتاب يمكن أن يعلموا بها.

القرآن يقول: والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا اللَّه. واليهود يقولون: نحن نعلمهم، ويوردون روايات وتفصيلات في ذلك!

فكيف نصدِّق الذين يناقضون صريح القرآن، ويزعمون أنهم يملكون ما نفاه القرآن صريحاً عن أحد من البشر؟

كان عبداللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما، إذا نُقِل له كلام السابقين من النسابين في تاريخ السابقين يقول: «كذب النسابون».

وكذلك كان عبداللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه، يحتج على تكذيب النسابين بهذه الآية، ويقول: كذب النسابون.

وجاء رجل إلى علي بن أبي طالب ـ رضي اللَّه عنه ـ فقال له: أنا أَنْسَب الناس. قال له علي رضي اللَّه عنه: أرأيتَ قول اللَّه تعالى: ﴿وَعاداً

وَثَمودَ وَأَصحابَ الرَّسِّ، وَقُروناً بَيْنَ ذٰلِكَ كثيراً﴾[1]؛ فقال الرجل: أنا أنسب ذلك الكثير.

فقال له علي: أرأيت قول اللّه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبأُ الّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: قَوْمِ نوحٍ وَعادٍ وثَمودَ، وَالّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، لاَ يُعْلَمُهُمْ إلاّ اللَّه﴾ فسكت الرجل، ولم يحُر جواباً»؟

٤ ــ ولا تستفت فيهم منهم أحداً:

نهى القرآن نهياً صريحاً عن سؤال أهل الكتاب في أخبار السابقين، وتفصيلات قصصهم، وتحديد أشخاصها وأماكنها وأحداثها.

وقد ورد هذا النهي في أثناء ذكر قصة أصحاب الكهف، والخلاف بين السابقين في عدتهم.

قال تعالى: ﴿سَيَقولونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقولون خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ، رَجْماً بِالغَيْب، وَيَقولونَ سَبْعَةٌ وثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُلْ: رَبّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ، ما يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَليل. فَلا تُمارِ فيهِمْ إِلاّ مِراءً ظاهِراً، وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحداً﴾[2].

لا تستفت فيهم، يعني لا تسأل في شأن أصحاب الكهف، وعدتهم، وأخبارهم.

لا تستفت منهم أحداً، يعني لا تسأل في ذلك أحداً من هؤلاء. فكلمة «منهم» تعود على الآخرين، الذين قد يخوضون في أخبار السابقين وقصصهم، ويوردون تفصيلات لحياتهم، بدون علم، وإنما «رجماً بالغيب».

---

(١) سورة الفرقان: آية ٣٨.

(٢) سورة الكهف: آية ٢٢.

وأبـرز الذين تنـطبق عليهم كلِمة «منهم» هم أهـل الكتاب، هم اليهـود والنصارى، لأنهم كانوا «يتعالَمون» على الآخرين، ويَظهرون بأنهم الذين انتهى إليهم العلم بأخبار السابقين.

والنهي في الآية، موجه لكل مسلم، كمـا هو مـوجه لـرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ـ لأن خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام خطاب لأمته ـ إنه موجه لكل مؤلف وكاتب، ينهاه عن الذهاب إلى الإسرائيليات، وأخْذ رواياتها وتفصيلاتها عن قصص السابقين.

كما أنه موجه لكل متحدث ومتكلم وواعظ، ينهاه عن إيراد شيء من تلك الإسرائيليات.

وقد فهم علماء السلف الصالح، من الصحابة والتابعين، من الآية هذا الفهم، فهموا منها أنها تنهاهم عن الرجوع إلى أهل الكتاب بشأن قصص السابقين، أو إيراد شيء من أقوالهم بشأنها.

قال ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ «فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً» يعني: حسبُك ما قصصتُ عليك، فلا تمار فيهم.

وقال قتادة: فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً: حسبك ما قصصنا عليك من شأنهم.

وقال ابن زيد: ولا تستفت فيهم منهم أحداً: لا تستفت في عدة الفتية من أصحاب الكهف من أهل الكتاب أحداً، لأنهم لا يعلمـون عدتهم، وإنما يقولون فيهم رجماً بالغيب، لا يقيناً من القول:

وقال ابن عباس: لا تستفت فيهم منهم أحداً: هم أهل الكتاب.

وقال مجاهد: ولا تستفت فيهم منهم أحداً: من يهود، ولا تسأل يهود عن أمر أصحاب الكهف، إلا ما قد أخبرتُك من أمرهم[1].

وقال الإمام ابن كثير في تفسير الآية: «ولا تستفت فيهم منهم أحداً: فإنهم لا علم لهم بذلك، إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم، رجماً بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك اللَّه يا محمد بالحق، الذي لا شك فيه، ولا مرية فيه»[2].

وقال سيد قطب: «يوجه القرآن الرسول صلى اللَّه عليه وسلم إلى تَرْك الجدال في هذه القضية، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم، تمشياً مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تُبدَّد في غير ما يفيد، وفي ألا يقفوَ المسلم ما ليس له به علم وثيق»[3].

٥ ـ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم:

آية من كتاب اللَّه تدلنا على المنهج القرآني في البحث والمعرفة، وفي صيانة الطاقة العقلية أن تُبدَّد في غير ما يفيد.

قال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم. إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أولـئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾[4].

قال الإمام سيد قطب في تفسير الآية: «إن هذه الآية تقيم منهجاً كاملاً للعقل والقلب، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً، ويضيف إليه استقامة القلب، ومراقبة اللَّه.

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في تفسير الطبري، وبهامشه تفسير القمي ١٥: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣: ٧٨.

(٣) في ظلال القرآن ٤: ٢٢٦٥.

(٤) سورة الإسراء: آية ٣٦.

فالتثبت من كل خبر، ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة، قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق. ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج، لـم يَبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل. ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية. في عالم البحوث والتجارب والعلوم.

ولا تقْفُ ما ليس لك به علم: ولا تتبع مـا لم تعلمه علم اليقين، وما لم تتثبت من صحته، من قول يُقال، وروايةٍ تُروى، من ظاهرة تفسَّر، أو واقعة تُقلَّل، ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية»[1].

وانطلاقاً من هذه الآية، ومن النهي الصـريح فيهـا، ومن الإشارة الواضحة إلى منهج القرآن في البحث والعلم والمعرفة، فإننا لا نأخذ في قصص السابقين شيئاً عن أهل الكتاب. مما لم يَرِد عنه كلام في الكتاب والسنة.

نأخذ من الآية دليلاً على عدم الرجوع ـ بشأن قصص السابقين ـ إلى الإسرائيليات. لأن هذه الإسرائيليات مما لا علم فيه، وهي تدخـل باب الأساطير والخرافات والافتراضات، ولا يمكن أن يتأكد الباحث من صحتها، ولا يمكن أن يتثبت من صدق رواياتها.

وطالما أنها كذلك، فلا يجوز أن نقفوَها أو نتتبعَها أو نرويَها، لأنها مما ليس لنا به علم.

---

(١) في ظلال القرآن ٤ : ٢٢٢٧.

٦ ـ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا:

قال تعالى: ﴿يا أَيُّها الذّينَ آمَنوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا، أَنْ تُصيبوا قَوْماً بِجَهالَة، فَتُصْبِحوا عَلَى ما فَعَلْتُمْ نادِمين﴾[١].

تقدم لنا هذه الآية منهجاً قرآنياً علمياً في تمحيص الأخبار والتثبت منها، إذا كان مصدرها من عند الفاسقين.

إن الفاسقين غير مُـؤْتمنين، وإن الكذب والتحريف والتزوير، يَرِد على ما ينقلونه من أخبار وأنباء. ولهذا لا بد أن يتطرق الشك وسوء الظن إلى رواياتهم وأخبارهم، ولا بد أن نضع هذه الأخبار والأنباء والروايات على ميزان النقد والتمحيص والتثبت.

كل هذا نفعله بالأخبار والروايات التي تردنا من الفاسقين من المسلمين.

فكيف بالأخبار والروايات التي تردنا من الكافرين؟.

إن اليهود في إسرائيلياتهم يتقنون الكذب والتحريف، ولا يؤتمنون على التاريخ ولا الأخبار ولا الروايات. وكثيرٌ مما يصدر عنهم يحمل طابع الاختلاق والادعاء والتزوير والخرافة، فكيف نأخذ تلك الإسرائيليات والأخبار على ما فيها؟ وكيف نقبلها على عواهنها؟ ونرويها على أنها حقائق ثابتة، ونفسر بها كلام اللّٰه الثابت، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفِه!.

يجب أن نكون أكثر تحرزاً واحتياطاً وتمحيصاً عند رواية أخبار الكافرين، ولا نأخذ منها إلا ما علمْنا صِدقَه، ولا يكون هذا إلا لما ورد في الكتاب والسنة فقط.

---

(١) سورة الحجرات: آية ٦.

هاتان الآيتان تقدمان لنا منهجاً قرآنياً فريداً في البحث والعلم والمعرفة، وإشارة هامة في تعاملنا مع قصص السابقين.

آية الإسراء ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ تمنع رواية الأخبار إلا بعد التأكد العلمي منها: تمنع إيراد أي شيء إلا بعد التوثق منه والعلم به.

وآية الحجرات: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ توجب التمحيص والتبيين في كلام الآخرين.

٧ ـ كأنهم لا يعلمون:

اليهود قوم لا علم لهم، وما علمهم إلا أمانيّ وظنون ومزاعم وادعاءات. ولقد قال القرآن عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاّ أَمانِيَّ، وَإِنْ هُمْ إلاّ يَظُنّون﴾[١].

وهم كاذبون مفترون، يكذبون على اللّه، ويفترون عليه، فهل يتورَّعون بعد ذلك عن الكذب على الناس والافتراء عليهم؟ هل يتورعون عن الكذب على السابقين؟ هل يتورعون عن الكذب على العلم والتاريخ؟

بيَّن القرآن افتِراءهم على اللّه بقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الّذِينَ قالوا إنَّ اللَّهَ فَقيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياء. سَنَكْتُبُ ما قالوا، وَقَتْلَهُمُ الأَنْبياءَ بِغَيْرِ حَق، وَنَقولُ ذوقوا عَذابَ الحَرِيق. ذٰلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبيد. الذِّينَ قالوا: إنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَن لاَ نُـؤمِنَ لِرَسولٍ حَتّى يَأْتِيَنا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النّار، قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلي بِالبَيِّناتِ وَبِالّذي قُلْتُمْ، فَلِمَ قَتَلْتُموهم، إنْ كُنْتُمْ صادِقين﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة: آية ٧٨.

(٢) سورة آل عمران: آيات ١٨١ ـ ١٨٣.

وهم مفترون على الأنبياء والصالحين والصالحات. ينشرون عنهم الأكاذيب والأباطيل، وينسبون لهم النقائص والرذائل. ماذا قالوا عن الصِّدِّيقة مريم البتول أم عيسى عليه السلام؟ قال القرآن عنهم: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظيماً، وَقَوْلِهِمْ إِنّا قَتَلْنا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ رَسولَ اللَّه﴾(١).

وهم يحسدون المؤمنين، ويريدون ـ بودّ ورغبة ولهفة وتصميم ـ أن يردوا المسلمين عن دينهم، فكيف نأخذ أقوالهم ورواياتهم الممزوجة بهذه الرغبة، والتي تحقق لهم تلك الغاية؟ قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لو يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفّاراً، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقّ﴾(٢).

وهم يكتمون الحق، وينشرون الباطل والكذب، ليُغْروا ويَخْدعوا الآخرين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الكِتاب، وَيَشْتَرونَ بِهِ ثَمَناً قَليلاً، أُولـئِكَ ما يَأْكُلون في بُطونِهِمْ إِلّا النّار، وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَليم﴾(٣).

وهم يكتمون الحق وهم يعلمون. كما قال اللَّه عنهم ﴿أَفَتَطْمَعونَ أَنْ يُؤْمِنوا لَكُمْ، وَقَدْ كانَ فَريقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعونَ كَلامَ اللَّهِ، ثُمَّ يُحَرِّفونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلوه، وَهُمْ يَعْلَمون﴾(٤).

وهم لهذه الرذائل والجرائم لا علم عندهم، لأن العلم الصحيح ينفع

(١) سورة النساء: آيتي ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٢) سورة البقرة: آية ١٠٩.
(٣) سورة البقرة: آية ١٧٤.
(٤) سورة البقرة: آية ٧٥.

صاحبه ويُسْعده ويصلحه، ويجعله مع الحق وأهله، فإذا لم يوصل العلم صاحبه إلى هذا، فكأنه غير موجود.

إن تصرفات اليهود كتصرفات الذين لا يعلمون، وإن أخلاقهم وأقوالهم مثل الذين لا يعلمون، وإن القرآن يقرر أنهم لو كانوا يعلمون لما قاموا بتلك الرذائل والانحرافات، ولذلك صاروا بتلك الأفعال والأقوال كأنهم لا يعلمون.

قال تعالى: ﴿وَلَمّا جاءَهُمْ رَسولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ، نَبَذَ فَريقٌ مِنَ الّذِينَ أُوتوا الكِتابَ كِتابَ اللَّه وَراءَ ظُهورِهِمْ، كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمون. وَاتَّبَعوا ما تَتْلو الشّياطينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمان، وَما كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلٰكِنَّ الشَّياطينَ كَفَروا، يُعَلِّمونَ النّاسَ السِّحْرَ، وَما أُنْزِلَ عَلى المَلَكَيْنِ ببابِلَ هاروتَ ومَاروت، وَمَا يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّى يَقولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُر، فَيَتَعَلَّمونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّه، وَيَتَعَلَّمونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُم، وَلَقَدْ عَلِموا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاق، وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ، لَوْ كانوا يَعْلَمون، وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنوا وَاتَّقَوْا لَمثوبَةٌ مِنْ عِنْدِاللَّهِ خَيْر، لَوْ كانُوا يَعْلَمون﴾[1].

وهذه نظرة على الجُمل التي تحدثت عن علم اليهود في هذه الطائفة من الآيات:

١ ــ علمهم قادهم إلى أن ينبذوا ﴿كتاب اللَّه وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون﴾.

٢ ــ علمهم جعلهم مع الشياطين الذين ﴿يُعلِّمون الناس السحر﴾.

٣ ــ علمهم جعلهم ﴿يتعلَّمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾.

٤ ــ هم فعلوا كل ذلك مع أنهم قد ﴿علموا لَمَن اشتراه مالَه في الآخرة من خلاق﴾.

---

(١) سورة البقرة: آيات ١٠١ ــ ١٠٣.

ونتيجة لهذه الجرائم يقرر القرآن أنهم لو كانوا يعلمون لما قاموا بها، إذن هم لا يعلمون:

﴿ولبئس ما شَروْا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾.

﴿ولو أنهم آمنوا واتَّقَوْا لمثوبة من عند اللّه خير، لو كانوا يعلمون﴾.

العلم الصحيح النافع هو ذلك الذي يقود للإيمان ويحقق التقوى، فإذا لم يثمر العلم هذه الثمرة فكأنه غير موجود.

وبما أن علم اليهود لم يوصلهم إلى هذه النتيجة الصالحة النافعة، فكأنه غير موجود، بل إن علم اليهود قادهم إلى نتيجة عكسية، قادهم إلى رذائل ومفاسد وانحرافات وأباطيل وأكاذيب.

اليهود قوم لا يعلمون إلّا أمانيّ وظنوناً وأوهاماً، وهم يكونون مع الذين لا يعلمون، ويتصرفون كأنهم لا يعلمون، وما كانوا ليفعلوا ذلك لو كانوا يعلمون!.

هذا ما يقرره القرآن عن علمهم. فكيف نثق بما عندهم؟ وكيف نزعم أنهم يعلمون؟ وكيف نفسر بتلك الأباطيل والأكاذيب كلامَ اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟.

حكم رواية الإسرائيليات:

اختلف المسلمون في حكم رواية الإسرائيليات:

فمنهم من منع روايتها مطلقاً، واستند في هذا على آيات صريحة وأحاديث صحيحة، ولاحظَ منهج الإسلام في البحث والعلم والمعرفة، ووجَّه ما واجهه من أحاديث وأقوال قد تدل على جواز الرواية.

ومنهم من أجاز روايتها مطلقاً، وفتح الباب على مصراعيه، وسوَّد بها صفحات من كتب التفسير والتاريخ والقصص، وفسر بها كلام اللّه الحكيم.

ومنهم من وضع شروطاً لروايتها، ولم يأخذ إلا أنواعاً معينة منها، وفي مجالات محدودة.

وليس هذا مجال التوسع في عرض أدلة هذه الآراء ومناقشتها. فلعلنا نعود إليها في رسالة قادمة، عند حديثنا عن «مبهمات القرآن بين التبيين والإبهام» بعون اللّه.

إننا نتابع المحققين من العلماء في موقفهم من الإسرائيليات، ونظرتهم إليها، ونرجِّح أنه لا يجوز إيراد شيء من هذه الإسرائيليات وروايته على سبيل القول والاحتجاج، أو على سبيل الاستشهاد والاستئناس. فإذا أردنا أن نروي منها شيئاً، فمن أجل التنبيه والتحذير والتعليم والإرشاد.

وسوف نورد الأدلة لهذا الرأي بعد حديثنا عن تقسيم العلماء للإسرائيليات.

أقسام الإسرائيليات:

أمامي رسالة قيمة لطيفة بعنوان: «الإسرائيليات في التفسير والحديث» للمرحوم الشهيد الدكتور محمد حسين الذهبي. يتحدث فيها عن أقسام الإسرائيليات وحكم روايتها، وأدلة المانعين وأدلة المجيزين.

وسوف أنقل من تلك الرسالة خلاصة أقسام الإسرائيليات:

«للإسرائيليات تقسيمات ثلاثة باعتبارات ثلاثة:

١ ــ أقسامها باعتبار الصحة وعدمها.

٢ ــ أقسامها باعتبار موافقة ديننا أو مخالفته.

٣ ــ أقسامها باعتبار موضوعها.

١ ــ فهي من حيث الصحة وعدمها تنقسم إلى قسمين:

(أ) **صحيح**، مثل ما جاء مصدِّقاً لما في القرآن من كلام عن صفات النبي صلى اللّه عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿يا أَيُّها النَّبِـيُّ إِنّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذيراً، ودَاعِياً إِلى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِراجاً مُنيراً﴾[١].

وقد وردت هذه الصفات في التوراة، وصرح بذلك المطَّلعون على التوراة. فقد روى البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبداللَّه بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في التوراة. قال: أجل. واللَّه إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبـي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرْزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، اسمك المتوكِّل، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولن يقبضه اللَّه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقول: لا إله إلا اللَّه. ويفتح اللَّه به قلوباً غُلْفاً، وآذاناً صُمّاً، وأعيناً عُمياً.

قال عطاء: ثم لقيتُ كعباً ـ كعب الأحبار ـ فسألتُه عن ذلك، فما اختلف حرفاً»[٢].

(ب) **موضوع**: مثل خرافة جبل «ق» المحيط بالسموات والأرض، كما زعم الكاذبون.

٢ ـ الاعتبار الثاني للإسرائيليات من حيث موافقتُها لديننا أو مخالفتها له.

حيث تنقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام:

(أ) **ما ورد منها موافقاً لما في ديننا**. ومثاله ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه قال: قال النبـي صلى اللَّه عليه وسلم: «تكون الأرض يوم القيامة خُبْزَة واحدة، يتكَفَّؤُها الجبارُ بيده، كما يَكْفَأُ أحدكم خبزته في السفر، نُزُلاً لأهل الجنة.

---

(١) سورة الأحزاب: آيتي ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، رقم ٦٥، باب «أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً» رقم ٣، حديث رقم: ٤٨٣٨.

فأتى رجلٌ من اليهود فقال: بارك اللّه عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنُزُل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى. قال: تكون الأرض خُبزةً واحدة ـ كما قال النبـي صلى اللّه عليه وسلم ـ فنظر النبـي صلى اللّه عليه وسلم إلينا، ثم ضحك حتى بدت نواجذه»(١).

(ب) **ما جاء مخالفاً لما في شريعتنا**. ومثاله: ما نسبه اليهود إلى النبـي هارون عليه السلام ـ في سَفْر الخروج ـ من أنه هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل، ودعاهم إلى عبادته. وما نَسبه سفر التكوين إلى اللّه سبحانه، من أنه لما خلق السموات والأرض في ستة أيام، تعب ـ سبحانه وتعالى ـ فاستراح في اليوم السابع، الذي هو يوم السبت.

(هـ) **القسم الثالث**: وهو ما سكت عنه شرعنا، وليس فيه ما يؤيده أو يفنده. ومثاله: ما رُوي من الإسرائيليات حول تفصيلات قصة بقرة بني إسرائيل، من قتْل الرجل لعمه، ثم مطالبته آخرين بدمه، وذبْح البقرة، وإحياء القتيل بها، وإخباره عن قاتله.

٣ ـ الاعتبار الثالث: من حيث موضوعُها. حيث تنقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام أيضاً:

(أ) **القسم الأول ما يتعلق بالعقائد**. ومثاله ما رواه البخاري عن عبداللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال: جاء حَبْر من أحبار اليهود إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فقال: يا محمد: إنا نجد أن اللّه يجعل السموات على إصبع، والأَرَضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق رقم ٨١، باب: يقبض اللّه الأرض رقم ٤٤، حديث رقم ٦٥٢٠.

فضحك رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحَبر. ثم قرأ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قوله تعالى: ﴿وَما قَدَروا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِه، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَة، وَالسَّمواتُ مَطْوِيّاتٌ بيمينه، سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمّا يُشْرِكُون﴾[1].

(ب) **القسم الثاني: ما يتعلق بالأحكام.** ومثاله: ما رواه البخاري عن عبداللّٰه بن عمرو رضي اللّٰه عنهما: أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ، برجل منهم وامرأة قد زنيا. فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنا منكم؟ قالوا: نُحَمِّمُهُما [أي نسوِّد وجهيهما] ونضربهما. فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟ قالوا: لا نجد فيها شيئاً.

فقال عبداللّٰه بن سلام: كذبتم. فأْتوا بالتوراة فاتْلوها إن كنتم صادقين.

فوضع مِدْراسها ـ الذي يدْرسها منهم ـ كفه على آية الرجم. فطفق يقرأ ما دون يده، وما وراءها، ولا يقرأ آية الرجم. فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم.

فأَمَر بهما، فرُجِما، قريباً من موضِع الجنائز عند المسجد.

قال ابن عمرو: فرأيت صاحبها يَجْنَأ عليها [أي ينحني عليها] يقيها الحجارة»[2].

---

(١) سورة الزمر: آية ٦٧. والحديث رواه البخاري في كتاب التفسير: ٦٥، باب قوله تعالى: ﴿وما قدروا اللّٰه حق قدره﴾ رقم ٢، حديث رقم: ٤٨١١.

(٢) رواه البخاري: في كتاب التفسير، رقم ٦٥. باب قوله تعالى: قل فأتوا بالتوراة فاتلوها رقم ٦، حديث رقم ٤٥٥٦.

(ج) القسم الثالث: ما يتعلق بالمواعظ والرقائق والقصص والتاريخ:
ومثاله ما روته الإسرائيليات عن تفصيلات صنع سفينة نوحٍ عليه السلام، وخشبها وطولها وعرضها، وما جرى فيها من أحداث»[1].

وعندما ننظر في أقسام الإسرائيليات باعتباراتها الثلاثة، فإننا نستخلص منها ما يلي:

١ ـ إننا لا نجزم بصحة شيء منها، إلا إذا ورد في الكتاب والسنة ما يوافقه، وإنما جزمنا بصحته لأنه ورد عندنا، وليس لأنه من قبيل «الإسرائيليات».

٢ ـ إن هذا الصحيح في مصادرنا الصحيحة، والموافقَ لشريعتنا، لا يبقى من الإسرائيليات، وإنما يأخذ طابع شرعنا وصفة أحكامنا، فيكون من إسلامنا وثقافتنا وديننا.

٣ ـ إن المُعارض لدينا المخالف لشريعتنا، لا تجوز روايته، إلا من باب التحذير منه، وبيان كذبه وزيفه، علماً بأن بعض السابقين من المسلمين كان يورده على سبيل القبول والرضى.

٤ ـ إن الموضوع والضعيف من الإسرائيليات ليس من باب العلم، لأنه لم يحْدث ولم يقع، وإيراده في قصص السابقين، وتفسيرُ آيات القرآن به، من باب تفسير القرآن بالمكذوب والموضوع! ومن قال بجواز هذا؟.

٥ ـ إن المسكوت عنه عندنا، والذي لا يتعارض معه، والذي لا يتعلق بالعقائد ولا بالأحكام عندنا ـ وهو ما أجاز المجيزون من العلماء روايته

---

(١) الإسرائيليات في التفسير والحديث، للدكتور محمد حسين الذهبي: ٤٧ ـ ٥٤ بتصرف واختصار.

على سبيل الاستشهاد والتذكير ـ لا نجيز ذكرَه وروايته إلا من قبيل التحذير منه ـ تبعاً للمحققين من العلماء ـ لكونه يتعارض مع منهج القرآن في البحث والعلم والمعرفة، الذي أشرنا إليه.

أدلة منع رواية الإسرائيليات:

١ ـ تحريف اليهود للكلم عن مواضعه، مما جعلهم غير أمناء على التاريخ.
قال تعالى: ﴿وَمِنَ الذّينَ هادُوا سَمّاعونَ لِلْكَذِب، سَمّاعونَ لِقَوْمٍ آخَرينَ لَمْ يَأْتوك، يُحَرِّفونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِه، يَقولون: إنْ أُوتيتُمْ هٰذا فَخُذوه، وَإِنْ لَمْ تُـؤْتَوْهُ فَاحْذَروا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَبِما نَقْضِهِمْ ميثاقَهُمْ لَعَنّاهُمْ، وَجَعَلْنا قُلوبَهُمْ قاسِيَة، يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِه، وَنَسُوا حَظّاً مِمّا ذُكِّرُوا بِه، وَلا تَزال تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُم﴾[٥].

٢ ـ اليهود كاذبون مفترون فيما يوردونه من أقوال وأخبار: قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ. وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظيماً﴾[٣].

٣ ـ اليهود يودون فتنة المسلمين عن دينهم، ويحققون هذا عن طريق إسرائيلياتهم. قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَوْ يَرُدّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفّاراً. حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقّ﴾[٤].

٤ ـ اليهود يكتمون الحق وهم يعلمون، ويحرفونه إلى الباطل وهم يعلمون، وما إسرائيلياتُهم إلا مظهر من مظاهر الكتمان والتحريف. قال تعالى:

(١) سورة المائدة: آية ٤١.
(٢) سورة المائدة: آية ١٣.
(٣) سورة المائدة: آية ١٥٦.
(٤) سورة البقرة: آية ١٠٩.

﴿أَفَتَطْمَعونَ أَنْ يُؤْمِنوا لَكُمْ، وَقَدْ كانَ فَريقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعونَ كَلامَ اللَّه، ثُمَّ يُحَرِّفونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلوه، وَهُمْ يَعْلَمون﴾(١).

٥ ـ علمُ اليهود مجرد أماني وظنونٍ وأوهام. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ، لا يَعْلَمونَ الكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّون﴾(٢).

٦ ـ اليهود يتركون الحق عامدين، ويتبعون الباطل قاصدين، وإسرائيلياتهم يتوفر فيها هذا المنكر. كما قال تعالى: ﴿وَلَمّا جاءَهُمْ رَسولٌ مِنْ عِنْد اللَّه مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُم، نَبَذَ فَريقٌ مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكِتَابِ، كتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهورِهِمْ، كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمون، وَاتَّبَعوا ما تَتْلو الشَّياطينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمان﴾(٣).

٧ ـ اليهود قوم لا يعلمون، ولا يفقهون، ويتصرفون كأنهم يعلمون، ولو كانوا يعلمون لما نشروا الأباطيل والأكاذيب. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ مالَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ، وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ، لَوْ كانُوا يَعْلَمون. وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْر. لَوْ كانُوا يَعْلَمون﴾(٤).

٨ ـ إن قصص السابقين هي من غيب الماضي، وعلمُ غيب الماضي اختص به اللَّه وحده، واليهود لم يكونوا مشاهدين أحداث الذين سبقوهم، حيث يقول اللَّه: ﴿وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ، إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرون﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة: آية ٧٥.
(٢) سورة البقرة: آية ٧٨.
(٣) سورة البقرة: آيتي ١٠١ ـ ١٠٢.
(٤) سورة البقرة: آيتي ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٥) سورة يوسف: آية ١٠٢.

٩ ــ إن القرآن عَلَّم المسلمين كيفية جدال اليهود، ونقْض شبهاتهم وإشاعاتهم وإسرائيلياتهم بأن يقولوا لهم: أأنتم أعلم أم اللَّه؟

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحاجُّونَنا فِي اللَّه، وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ، وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُم، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصون. أَمْ تَقولونَ إِنَّ إبْراهيمَ وَإِسْماعيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقوبَ وَالْأَسْباطَ كانوا هوداً أَمْ نَصارى؟ قُلْ: أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّه؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّه؟ وَما اللَّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلون﴾(١).

١٠ ــ وجود حلقات مفقودة في تاريخ السابقين: نفى اللَّه علم أحد بها، واختص هو وحده سبحانه بالعلم بها، فالإسرائيليات عندما تدّعي علمَها تخالف صريح القرآن مخالفة صريحة، المتمثل بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، قَوْمِ نوحٍ وَعادٍ وَثَمودَ. وَالّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، لا يَعْلَمُهُمْ إِلّا اللَّه﴾(٢).

١١ ــ نهيُ القرآن الصريح لنا عن سؤال أهل الكتاب بشأن أخبار الماضين، واستفتائهم في قصص السابقين. ذلك النهي المتمثل بقوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾(٣).

١٢ ــ نهيُ القرآن الصريح للمسلمين عن القول بدون علم، والإسرائيليات من القول بدون علم، وأصحابُها يتبعون ما ليس لهم به علم. قال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم. إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ، كُلُّ أُولـٰئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة: آيتي ١٣٩ ــ ١٤٠.
(٢) سورة إبراهيم: آية ٩.
(٣) سورة الكهف: آية ٢٢.
(٤) سورة الإسراء: آية ٣٦.

١٣ ـ إيجابُ القرآن علينا أن نتثبت عند سماع أخبار الفاسقين، وأن لا نقبل أخبار وروايات الفاسقين، والكافرين، إلا بعد عرضها على ميزان النقد الصحيح، فنأخذ ما سلم لنا منها، وما رجحْنا صحته وصوابه، ونترك ما عداه. وهكذا يجب أن نفعل بالإسرائيليات. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمَنوا إِنْ جَاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[١].

١٤ ـ نهيُ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الصريح عن أخذ شيء من اليهود. حيث روى البخاري عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانيةِ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا باللَّه وما أنزل إلينا»[٢].

١٥ ـ إنكار رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على عمر بن الخطاب عندما رأى معه صحيفة من أهل الكتاب. حيث روى أحمد عن جابر بن عبداللَّه ـ رضي اللَّه عنهما ـ أن عمرَ بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ أتى النبيَّ صلى اللَّه عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب عليه الصلاة والسلام، وقال: أمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟ [والمتهوِّك: الشاك المتحير] والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به. والذي نفسي بيده، لو أن موسى صلى اللَّه عليه وسلم كان حياً، ما وسعه إلا أن يتبعني»[٣].

---

(١) سورة الحجرات: آية ٦.
(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، رقم ٦٥، باب: قولوا آمنا باللَّه وما أنزل إلينا، رقم ١١، حديث رقم ٤٤٨٥.
(٣) فتح الباري بشرح البخاري، لابن حجر ١٣: ٣٣٤.

١٦ ـ إنكار الصحابة على من يذهب إلى بني إسرائيل، ويأخذ منهم الإسرائيليات.

ومثاله: ما رواه البخاري عن عبيداللَّه بن عبداللَّه بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: «يا معشر المسلمين: كيف تسألون أهل الكتاب؟ وكتابكم الذي أنزله اللَّه على نبيه صلى اللَّه عليه وسلم، أحدثُ الأخبار باللَّه، تقرءونه لم يُشَبْ، وقد حدثكم اللَّه أن أهل الكتاب بدَّلوا ما كتب اللَّه، وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هذا من عند اللَّه ليشتروا به ثمناً قليلاً. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا واللَّه ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذي أُنزل إليكم»[١].

١٧ ـ ومن ذلك ما قاله عبداللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه: «لا تسألوا أهل الكتاب، فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم، فتكذِّبوا بحق، أو تصدِّقوا بباطل»[٢].

معنى «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»:

واستكمالاً منا للحديث عن حكم رواية الإسرائيليات، نتحدث عن ما استند إليه الذين جوَّزوا الحديث عنهم.

إن أهمَّ أدلتهم وأشهرَها هو حديث لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم:

روى البخاري عن عبداللَّه بن عمرو بن العاص ـ رضي اللَّه عنهما ـ أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال: «بلِّغوا عني ولو آية. وحدِّثوا عن بني

(١) البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة: ٩٦، باب قول النبي عليه السلام: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء: ٢٥، حديث رقم ٧٣٦٣.
(٢) فتح الباري بشرح البخاري ١٣: ٣٣٤.

إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1].

وجه الدلالة من الحديث ـ عندهم ـ أنه أجاز للمسلمين الحديث عن بني إسرائيل، ورَفَع الحرج عمن فعل ذلك. فصاروا يملأون كتبهم بالروايات والأخبار والقصص والخرافات الإسرائيلية.

وقبل أن نقدم فهمنا لمعنى الحديث، ننظر في شرح الإمام ابن حجر له.

ما معنى «حدّثوا عن بني إسرائيل، أورد ابن حجر في هذا عدة أقوال:

١ ـ قيل المراد ببني إسرائيل في الحديث، هم أولاد إسرائيل نفسه ـ يعقوب عليه السلام ـ والمراد: حدِّثوا عنهم بقصتهم مع أخيهم يوسف عليه السلام. وهذا أبعد الأوجه!.

٢ ـ وقال مالك رحمه اللَّه: المراد جواز التحدث عنهم بما كان من أمرٍ حسن، أما ما عُلم كذبه فلا.

٣ ـ وقيل: المعنى حدثوا عنهم بمثل ما ورد في القرآن والحديث الصحيح.

٤ ـ وقيل: المعنى، جواز التحدث بأي صورة وقعت، من انقطاع أو بلاغ، لتعذر الاتصال في التحدث عنهم، بخلاف الأحكام الإسلامية، فإن الأصل في التحدث بها الاتصال.

٥ ـ قال الإمام الشافعي: من المعلوم أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لا يجيز التحدث بالكذب. فالمعنى: حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تُجوِّزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم.

(١) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: ٦٠، باب ما ذكر عن بني إسرائيل: ٥، حديث رقم ٣٤٦١.

أما معنى نفي الحرج في التحدث عنهم، فقد ذكر ابن حجر فيه عدة أقوال أيضاً:

١ ـ لا ضيق عليكم في الحديث عنهم. لأنه كان قد تقدم منه صلى اللَّه عليه وسلم الزجر عن الأخذ عنهم والنظر في كتبهم. ثم حصل التوسع في ذلك، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الشرعية والقواعد الدينية خشية الفتنة. ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك، لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار.

٢ ـ وقيل معناه: لا تضيق صدوركم، بما تسمعونه عنهم من الأعاجيب، فإن ذلك وقع لهم كثيراً.

٣ ـ وقيل: لا حرج في أن لا تحدثوا عنهم. لأن قوله أولاً «حدثوا» صيغة أمر تقتضي الوجوب، فأشار إلى عدم الوجوب، وأن الأمر فيه للإباحة بقوله «ولا حرج». أي في ترك التحديث عنهم.

٤ ـ وقيل: المراد رفع الحرج عن حاكي ذلك، لما في أخبارهم من الألفاظ الشنيعة، نحو قولهم: إذهب أنت وربك فقاتلا. وقولهم: اجعل لنا إلهاً[١].

لكن هل يفهم من «حدثوا عن بني إسرائيل» الرجوع إليهم، ونقل رواياتهم وأخبارهم، وإيرادها في كتبنا الإسلامية في التفسير والأخبار والقصص والتاريخ؟

هناك فرق بين قولك: «رويتُ عن فلان» وقولك: «حدثتُ عن فلان».

عندما تقول: «رويت عن فلان» فإن معناه أنك نقلتَ كلامه للآخرين.

---

(١) فتح الباري ٦:٤٩٨ ـ ٤٩٩ باختصار.

فأنت راويةٌ لكلامه، ولهذا كان المحدِّثون يروون عن أشياخهم بقولهم: حدثنا فلان عن فلان.

أما عندما تقول: «حدثت عن فلان»، فإنه يحتمل معنيين:

الأول: الرواية عنه، بنقل كلامه للآخرين.

الثاني: الإخبار عنه، بمعنى أنك أخبرت الآخرين بما جرى له من أمور، وتحدثتَ للآخرين عن قصته وحياته.

فقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «حدثوا عن بني إسرائيل» يحتمل المعنيين.

إنه يحتمل معنى: ارووا كلام بني إسرائيل، وانقلوه في كتبكم، وهذا ما فهمه بعض السابقين، نقلوا من الإسرائيليات في كتبهم، وعرضوها على أمتهم.

كما يحتمل المعنى الثاني: وهو أنْ تتحدثوا عن قصة بني إسرائيل، وأن تعرضوا على أمتكم ما جرى لهم في تاريخهم، ليَحذروا السير في طريقهم، مما جرى لهم!.

وأنا أميل إلى ترجيح هذا الاحتمال لورود نصوص تنهانا عن الأخذِ عنهم، وروايةِ كلامهم وأخبارهم.

حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج: معناه: أَخبِروا المسلمين بما جرى لبني إسرائيل، وأطْلِعوهم على تاريخهم، وبيِّنوا لهم انحرافاتهم، واكشِفوا لهم مخازيهم ومؤامراتهم. لأن تاريخهم حافل بالمخازي والرذائل ـ باستثناء أنبيائهم وصالحيهم ـ وإن قصصهم مليئةٌ بانحرافاتهم وضلالاتهم. ولقد تكفل القرآن بالحديث عنهم وكشْف رذائلهم ومخازيهم.

فالرسول صلى اللّه عليه وسلم يطالب المسلمين بالاطلاع على قصة اليهود، ودراسة تاريخهم، والوقوف على طبيعتهم ونفسيتهم وحقيقتهم، وتقديم هذا للآخرين بعلمية ومنهجية قرآنية، وأن لا يتحرجوا من هذا، وأن لا يظنوا أنهم بذلك يُغضبون اللّه، أو يعادون المؤمنين، بشرط أن يُنزهوا أنبياءهم وصالحيهم عن الانحرافات والمخازي.

ولو أن الذين أباحوا لأنفسهم الخوض في الإسرائيليات، وتقديمها للمسلمين، وتشويه أفكارهم بها، لو فهموا من الحديث هذا الفهم لقدموا للمسلمين النفع والفائدة، ولوظفوا الإسرائيليات توظيفاً إيجابياً في تحصين الأمة المسلمة فكرياً وثقافياً وعلمياً، وفي تميزها بإيمانها وأخلاقها وتاريخها وثقافتها.

ولو أن السادة المفسرين فهموا من الحديث هذا الفهم، لنزهوا كلام اللّه من أن يفسروه بالخرافات والأباطيل الإسرائيلية، ولما سوَّدوا صفحات كثيرة من تفاسيرهم بهذا الهراء والركام الإسرائيلي.

يا ليتنا نقدم للمسلمين التاريخ اليهودي بصدق وأمانة، ويا ليتنا نحلل نفسيتهم وندرس شخصيتهم بعلمية ومنهجية، ليحذروا السير على طريق اليهود، وليستخدموا هذا في توضيح حقيقة اليهود للأمم الأخرى، ليكون أداةً من أدوات الحرب الطويلة وسلاحاً من أسلحة المعركة العنيفة بيننا وبينهم(١).

إننا نردد مع الإمام أحمد شاكر قوله في كتابه «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير»:

---

(١) حاولت أن أقوم ببعض الواجب علي في ذلك في كتابي: «الشخصية اليهودية من خلال القرآن» و«من قصص بني إسرائيل في القرآن» ـ وهو هذا الكتاب ـ.

«إنّ إباحة التحدث عنهم، فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيء، وذِكْرَ ذلك في تفسير القرآن، وجعْلَه قولاً أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعيَّن فيها، أو في تفصيل ما أُجمل منها، شيءٌ آخر.

لأن في إثبات ذلك بجوار كلام اللّه، ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه، مبيِّن لمعنى كلام اللّه سبحانه، ومفصِّل لما أُجمل فيه. وحاشا للّه ولكتابه من ذلك.

وإن رسول اللّه ﷺ ـ إذْ أَذِن بالتحدث عنهم ـ أَمَرَنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم. فأيُّ تصديق لرواياتهم وأقاويلهم، أقوى من أن نقرنَها بكتاب اللّه ونضعَها معه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غَفراً!»[١].

ونحن مع المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي في تعليقه على ذلك الرأي: «وأنا أميل إلى هذا الرأي، حماية لكتاب اللّه عز وجل عن لغو الحديث، وصوناً عن الفضول، والتَّزيُّد بما لا طائل تحته، ولا خير فيه»[٢].

* * *

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير لشاكر ١:١٥.

(٢) الإسرائيليات في التفسير والحديث، للمرحوم الذهبي: ٢٠٣.

١

قِصَّةُ أُمِّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام

قِصَّةُ أُمِّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام

عرض القرآن لها:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾
أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن
يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ
وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن
نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ
أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ
وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ

---

(1) سورة طه: آيات ٣٧ ـ ٤٠.

فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ
قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾
وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا
لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ
يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

تلاوة القصة بالحق:

وردت قصة «أم موسى» عليه السلام، في سورتين فقط. وهما سورة طه وسورة القصص.

نستنبط من قوله تعالى: ﴿نَتْلو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ موسىَ وَفِرْعَوْنَ بِالحَقِّ﴾ منهجَ النظر في القصة، وقاعدة التعامل معها، ومصدر أخذها.

إن تلاوتها بالحق، تعني أن نورد اللقطات والمشاهد والأحداث التي نجزم بأنها وقعت في قصتها. وأن لا نورد ما لم نجزم بصحته ولا بوقوعه، لأنه يتنافى مع التلاوة بالحق الذي تشترطه الآية.

إن تلاوتها بالحق تعني أن نبقَ مع الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة ــ إن وُجِدَت ــ وأن نكتفي بما ورد فيها، لأن ما أخبرتْ به فهو الحق الذي لا شك فيه.

---

(١) سورة القصص: آيات ١ ــ ١٣.

إن تلاوتها بالحق تعني أن لا نذهب إلى الإسرائيليات والأساطير بشأنها، لأننا لا نجزم بأن ما قالته هو الحق ـ كما لا نجزم بأنه الباطل أيضاً ـ ! .

ولهذا لن نخرج ـ إن شاء اللّه ـ عن النصوص الواردة بالحق، والتي تُلِيت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالحق.

الأجواء التي ولد فيها موسى عليه السلام :

كان فرعون متكبراً ظالماً مفسداً. وكان يسوم بني إسرائيل سوء العذاب. وكان يُذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم. وكان يراقب ولادة نسائهم: فإذا ولدت المرأة غلاماً أخذه زبانيته فذبحوه. وإذا ولدت أنثى أبقوها حية. كما قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ. إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

فرعون: كانَ من المفسدين. كما قررت الآية. وتصرُّف فرعون وفعله فساد. وفرعون هو مثال الحاكم الظالم الطاغي، فبدل أن يحافظ على أرواح ودماء رعيته ـ مهما كان اتجاههم، ومهما كانت قناعتهم ـ تحول إلى معتد على أموالهم، سافك لدمائهم، مزهق لأرواحهم.

وعندما يتحول الحاكم ـ الذي بيده السلطة والقانون ـ إلى هذه الوسيلة ضد رعيته، يتخلى عن واجباته ومهمته، بل وإنسانيته.

بين إرادة اللّه وإرادة فرعون :

أراد فرعون الظالم المفسد أن يقتل موسى عليه السلام.

وأراد اللّه سبحانه أن يعيش موسى، وفي بيت فرعون، وأن يتكفل فرعون برعايته!

ولا يكون إلا ما يريده اللّه! ومَنْ هو ذلك المخلوق الذي يقدر على أن يقف أمام إرادة اللّه وأن يبطلها؟ إن اللّه غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إن أم موسى على وشك أن تضع حملها، وهي تخشى فرعون وجنودَه، فإذا وضعت غلاماً فلن يعيش، إن جنود فرعون سيأخذونه ليقتلوه! ومَنْ هو ذلك الإنسان الذي يمكن أن يحمي الغلام؟ ويقف أمام فرعون وجنوده؟

وإذا أرادت أن تخفيه في البيت فهل يمكن أن تضمن له حياته؟ إنه ليس متاعاً من متاع البيت لا يتحرك ولا يبكي، إنه غلام، ولا بد أن يبكي ويصرخ، ولعل صراخه وبكاءه يدل الجنود عليه. فإذا ما خوفْته أمُه بالخطر الفرعوني، فهل يفهم الغلام عليها ويكف عن البكاء؟ وهل يعرف معنى الخوف والحذر مولودٌ في الساعات الأولى من عمره؟

وهل؟ وهل؟ إلى غير ذلك من الأسئلة، التي تراود ذهن من يقف أمام هذه القصة!

إن موسى الوليد الضعيف في خطر داهم، وإن بيت أبيه وحضن أمه لا يوفران له الأمن، ولا يرفعان عنه الخطر ــ في هذه المرحلة ــ وأي مكان في مصر لن يزيل عنه الخطر ولن يـ ر له الأمن، إلا مكان واحد، هو قصر فرعون! ولكن مَن يوصله إليه؟

إن اللّٰه الذي أراد هذا، هو الذي سيوفر له الوسيلة المناسبة، وما على البشر إلا أن ينفذوا ما يوحيه اللّٰه لهم.

معنى وحي اللّٰه إلى أم موسى:

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلىٰ أُمِّ موسىٰ أَنْ أَرْضِعيه﴾ وأخبر اللّٰه موسى بذلك في قوله له: ﴿إِذْ أَوْحَيْنا إِلىٰ أُمِّكَ ما يُوحىٰ﴾.

أوحى اللّٰه إلى أم موسى بالطريقة الربانية المضمونة، التي يتم بها حفظ موسى عليه السلام، ويزول الخطر الفرعوني عنه.

لكن ما معنى وحي اللّٰه إلى أم موسى؟ إنه ليس وحياً رسالياً، بمعنى أنه لم يكن عن طريق جبريل الأمين عليه السلام.

إن أم موسى لم تكن رسولة ولا نبية، ولم تكن النبوة في النساء، بل هي خاصة بالرجال. وهذا هو صريح القرآن: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً نُوحي إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لا تَعْلَمون﴾[1].

جبريل عليه السلام لم ينزل بالوحي إلا على الأنبياء والمرسلين، وبما أن أم موسى ليست نبية، فلم يكن وحي اللّٰه لها عن طريق جبريل عليه السلام.

كان وحي اللّٰه إلى أم موسى عن طريق الإلهام الفطري ــ واللّٰه أعلم ــ حيث ألهمها أن تقوم بهذا التصرف.

والإلهام الفطري للإنسان، صورة من صور الوحي اللغوية، كما قال العلماء في «علوم القرآن».

ماذا أوحى اللّٰه إلى أم موسى:

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلىٰ أُمِّ موسىٰ: أَنْ أَرْضِعيه، فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقيهِ فِي اليَمِّ، ولا تخافي، وَلا تَحْزَني. إِنّا رادّوهُ إِلَيْكِ، وَجاعِلوهُ مِنَ المُرْسَلين﴾.

لقد جمعت هذه الآية بين: خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين، بتناسق وتأثير وبلاغة وإعجاز.

الخبران في الآية: أوحينا. إذا خفت عليه.

الأمران في الآية: أرضعيه. ألقيه في اليم.

النهيان في الآية: لا تخافي. لا تحزني.

البشارتان في الآية: إنا رادوه إليك. جاعلوه من المرسلين.

إن اللّٰه لم يضمن لأم موسى حياة إبنها فقط، بل ضمن لها أن يعود إليها، وأن يعيش، حتى يكبر، وأن يكون نبياً.

---

(١) سورة النحل: آية ٤٣.

طريفة رواها الأصمعي:

الأصمعي ـ عبدالملك بن قريب صاحب «الأصمعيات» ـ هو راوية العرب. وقد حفظ لنا كثيراً من الأشعار والأخبار والروايات والنوادر والطرائف. حيث تنقَّل في مختلف أحياء الجزيرة العربية وقبائلها، وسمع كلام رجالها ونسائها.

روى لنا في رواياته هذه الطريقة: بينما كان في إحدى رحلاته، وقف أمام إحدى خيام العرب، وسمع جارية صغيرة تنشد هذين البيتين:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذَنْبي كُلِّهِ   قَبَّلْتُ إِنْساناً بِغَيْرِ حِلِّهِ
مِثْلَ الغَزالِ ناعِماً فِي دَلِّهِ   فَانْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أُصَلِّهِ

فقال لَها: قاتلك اللَّه ما أفصحك؟

فقالت له: وهل يُعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيه، فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقيهِ في اليَمّ، ولاَ تخافي، ولاَ تَحْزَني، إِنّا رادّوهُ إِلَيْكِ، وَجاعِلوهُ مِنَ المُرْسَلين﴾.

حيث جمع في آية واحدة بين خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين[1].

نظرة في آية سورة طه:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنا إِلىٰ أُمِّكَ ما يوحىٰ. أَنِ اقْذِفيهِ في التّابوت، فَاقْذِفيهِ في اليَمِّ، فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بِالساحِلِ، يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وَعَدُوٌّ لَه﴾.

في هذه الآية يلهم اللَّه أم موسى التصرف في شأن وليدها، ويدلها على الطريقة التي يتم بها حفظه.

---

(١) تفسير القرطبي ١٣ ـ٢٥٢.

إنها طريقة عجيبة، فيها شدة وعنف: اقذفيه في التابوت، فاقذفيه في اليم، فليلقه اليم بالساحل.

اقذفيه. والقذف حركة شديدة عنيفة. تقذف مَن؟ تقذف ابنها الغلام العاجز الضعيف ابن الساعات الأولى. تقذفه في التابوت قذفاً.

وكأنها يقال لها: حفظ ابنك ليس عليك، بل على اللّه. ولذلك اقذفيه قذفاً في التابوت، ولا تضعيه وضعاً هيناً ليناً سهلاً.

والتابوت: اقذفيه كذلك في اليم قذفاً.

إن فِعْلَي «اقذفيه» يلقيان في الحس والخيال ظلالاً طيبة، وإيحاءات لطيفة، وإشارات خفية، يتذوقها الحس البصير ويأنس بها، وقد يعجز عن ترجمتها بلغة الكلام.

وندعو القارىء إلى أن يقف أمام هذه الآية، وأن يلحظ فيها تلك الظلال والإيحاءات والإشارات.

موسى في بيت فرعون:

قال تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بِالسّاحِلِ. يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَه﴾.

وقال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْن﴾.

وإن الإنسان ليعجب من هذا المشهد في القصة: اللّه يمكر بفرعون، ويُرينا ضعفه وعجزه.

وكأنه يقول له: أنت تبحث عن المواليد الذكور لبني إسرائيل لتقتلهم. لا تُتعب نفسك بالبحث، فنحن سنقدم لك واحداً منهم، نقدمه لك بدون بحث ولا سعي منك، ها هو قد جاءك، وهو صغير ضعيف، عاجز عن الدفاع عن نفسه، فاقتله إن استطعت. إنه في بيتك، وبين يديك، وإنك ستعجز عن مسه بسوء وأذى، بل إنك سوف تُسَخَّر لخدمته وتربيته ليقتلك عندما يكبر!

من هو الذي أخذ موسى؟ «عدو لي وعدو له» إنه فرعون. العدو اللدود لموسى، وعدو اللّه، حيث ادعى الألوهية والربوبية، ومع ذلك هو عاجز عن قتل الوليد الصغير.

قلق أم موسى ثم هدوؤها:

صحيح أن اللّه بشر أم موسى بأن ابنها سيكون في خفظ اللّه ورعايته، وأنه لن يصيبه أحد بأذى، لأن اللّه سيحميه. ولكنها لم تتوقع أن يحمل اليم موسى إلى بيت فرعون.

لقد سيطرت الأوهام والظنون والهواجس على أم موسى، وحاول الشيطان أن يلقي إليها بوساوسه ونزغاته. كما قال اللّه عنها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فارِغاً، إِنْ كادَتْ لَتُبْدي بِهِ، لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكونَ مِنَ المُؤْمِنينَ﴾.

فؤادها فارغ من كل شيء، إلا من موسى، لم يعد في قلبها إلا أمر موسى والتفكير فيه، والخوف عليه.

وفراغ قلبها إلا من موسى، ليس دقة تصويرية فقط، وليس مبالغة بيانية، وإنما هو حقيقة نفسية ملحوظة. فالإنسان عندما يسيطر عليه أمر من الأمور، يكون مفكراً فيه، وليس في قلبه سواه.

وكأن أم موسى عادت على نفسها بالاتهام، وأنْحت عليها باللائمة: ماذا فعلْتُ؟ لماذا فعلتُ بابني هذا؟ من يضمن لي أن هذا إلهام من اللّه؟ كيف سلّمت ابني بيدي إلى عدوه فرعون الذي سيقتله؟ هل أنا مجنونة حتى أفعل ذلك؟

﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي كادت أن تكشف سرها بنفسها، وأن تفضح نفسها. كادت أن تخرج إلى الناس لتقول لهم: أنا الجانية، أنا التي جنيت

على ابني، إن هذا الوليد الذي عند فرعون هو ابني، فأرجوكم أنقذوه وأعيدوه إليّ.

ولو أن أم موسى فعلتْ ذلك، ونطقت بذلك، فمن هو ذلك الإنسان الذي يقدر على أن يدافع عن موسى، وأن ينقذه من بين يدي فرعون؟

كادت أن تبدي بالخبر وتكشف السر، لولا أن اللَّه طمأنها، وأزال هواجسها ووساوسها ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾.

﴿ربطنا على قلبها﴾ بأن ملأنا قلبها إيماناً باللَّه، وثقةً بوعده، ويقيناً بتحقيقه. فأيقنتْ بأن اللَّه هو الذي أوحى لها بذلك التصرف، وأن اللَّه هو الذي قدَّر وصول ابنها إلى فرعون، وأن اللَّه هو الذي سيحفظه عند فرعون.

ربط اللَّه على قلبها، فاطمأنت، وهدأت نفسها، وسكنت خواطرها. وكانت من المؤمنين، وصارت ترقب مصير موسى بيقين وهدوء واطمئنان.

وندعو إلى ملاحظة دقة وحيوية وتأثير التصوير الفني في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ موسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدي به﴾.

صورة الفؤاد فارغاً من كل شيء، إلا من شيء واحد، فهو في الحقيقة ممتلىءٌ بذلك الشيء الذي تمكن منه. فتعبر عنه الآية بأنه فارغ، لتقرر بأنه ممتلىء!

امتلأ قلبها من الاهتمام بابنها، وامتلأ قلبها من ذلك السر الخطير، وهو أن هذا الغلام الذي عند فرعون هو ابنها، وحتى لا تُبدي بذلك السر، ربط اللَّه على قلبها والسر داخله!

دور امرأة فرعون:

أخبر اللَّه سبحانه موسى عليه السلام بما جرى له في قصر فرعون، وأعلمه بصورة من محبة اللَّه، وتقديره الأمور التي تحفظ له حياته.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنّي﴾. فالمحبة من اللّٰه تُلقى عليه إلقاءً. وهي صورة فنية رائعة، وكأن اللّٰه يريد أن يعوضه عما فقده من حنان أمه، ودفءحضنها،وحسن رعايتها، حيث فقد عنايتها، وما تقدمه له من الفراش الدافىء الذي تبسطه له، والغطاء الآمن الذي تلقيه عليه.

إنه لم يخسر شيئاً في حقيقة الأمر، فها هي محبة اللّٰه سبحانه، تُلقىٰ عليه في بيت فرعون إلقاء، تلقى عليه فتغطيه، لتكون أشبه ما تكون بغطاء يلقى عليه.

لكن شتان ما بين غطاء أمه المصنوع من متاع الدنيا، والذي لا يمنع عنه أذى فرعون، وبين هذا الغطاء الرباني المصنوع من المحبة الخالصة، والذي يدفع عنه الأذى.

لقد تكفل اللّٰه موسى عليه السلام، وتعهد أن يحميه من أذى فرعون في بيت فرعون. ولكن كيف؟

اختار اللّٰه لذلك وسيلة لم تخطر على بال بشر. إنها المحبة، وسخر لتحقيقها قلباً لم يتوقعه أحد. قلب امرأة فرعون!

قال تعالى: ﴿وَقالَت امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَك، لا تَقْتُلوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً، وَهُمْ لا يَشْعُرون﴾.

شملت امرأة فرعون موسى الصغير بمحبتها، ألقى اللّٰه محبته في قلبها، أمر قلبها أن يحبه، ووظف قلبها في الدفاع عنه. طلبت من زوجها فرعون أن لا يقتله، وأخبرته بأن هذا الوليد قرة عين لهما.

وما كان من فرعون إلا الموافقة والإستجابة، ولا يملك إلا الموافقة والإستجابة.

باللّٰه عليك: لو طُلب منك أن تحمي موسى من بطش فرعون، وهو بين

يديه، صغير عاجز عن الدفاع عن نفسه، وفرعون يشحذ سكينه لذبحه. هل تقدر على أن تدافع عنه؟ ولو قدرت على ذلك، فهل يمكن أن تخطر هذه الوسيلة لك؟ هل يمكن أن توظف قلب امرأة فرعون لذلك؟ هل يمكن أن تجعل قلبها يحبه ويتبناه؟

إن أي واحد من البشر عاجز عن ذلك. أما اللَّه سبحانه ــ الفعال لما يريد ــ فقد فعل هذا. إن قلب امرأة فرعون لا سلطان لأحد من البشر عليه، وإن فرعون لم يسيطر على قلبها، ولم يتحكم فيه، بل إن امرأة فرعون نفسها لا سلطان لها على قلبها. أما اللَّه سبحانه فهو وحده له السلطان على قلبها ﴿وَاعْلَموا أَنَّ اللَّهَ يَحولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِه﴾(١).

أخت موسى تقتفي أثره:

قال تعال: ﴿وَقالَتْ لِأُخْتِه قُصِّيه. فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُب، وَهُمْ لا يَشْعُرون﴾.

أمرت أم موسى أخته أن تقتفي أثره، وأن تراقب تابوته مراقبة دقيقة حذرة أمينة، لتعرف أين يستقر، وماذا سيكون من أمره.

قالت لها: قصيه. أي تتبعي حركته، وراقبي سيره.

ونفذت الأخت الحكيمة طلب أمها بحكمة وحذر. وراقبت خط سير التابوت، ولعلها راعتْها المحطة الأخيرة للتابوت أمام قصر فرعون، ولعلها راعها أخذُ أهل القصر للتابوت.

ويهمنا هنا الإشارة إلى حذر وذكاء أخت موسى، كما عبرت عنها الآية ﴿فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾. لقد كانت حذرة ماهرة ذكية، تتصرف بفطنة، وتتقن فَنَّ التخفي والمراقبة الأمينة.

---

(١) سورة الأنفال: آية ٢٤.

كانت تراقب التابوت من بعيد، من غير أن تلفت حولها الأنظار، إنها تُري الآخرين وكأن الأمر لا يعنيها. وكأنها إحدى المارة في الطريق. فلا يخطر على بال أحد أن هذه الفتاة قريبةٌ لذلك الغلام!

شفتا موسى ترفضان الأثداء:

وعد اللّه أم موسى أن يعيد ابنها لها، ووعْد اللّه حق نافذ. حيث أعاده إليها بطريقة فريدة معجزة لا تخطر على بال بشر!

قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنـا عَلَيْهِ المَراضع﴾. ومعنى التحريم هنا هو المنع الذي يحقق الامتناع. أي أمرناه ـ وهو الطفل الرضيع ـ أن يمتنع عن قبول ثدي أية امرأة مرضع، فنفذ أمرنا وامتنع.

وهذه الوسيلة الربانية من أعاجيب تدبير اللّه وتقديره. فموسى طفل رضيع لا يتجاوز عمره أياماً ـ ولعلها ساعات ـ والرضيع في هذه السن لا يفرق بين امرأة وامرأة، ولا بين ثدي وثدي. فما يكون له اختيار أو تمييز!

إن اللّه أوجد عند موسى الرضيع تمييزاً، بصورة معجزة ـ مثل باقي المعجزات التي أحاطت بمولده وحفظه ورعايته ـ.

لقد كان موسى الرضيع جائعاً ـ والرضيع عندما يجوع يقبل أيَّ ثدي، ويمتص أيَّ حليب ـ فقدمت له المراضع عند فرعون أنفسهن، ليرضع حليبهن، وعرضت كل واحدة ثديها عليه. ولكنه كان يرفض المراضع جميعهن، ويمتنع عن قبول الأثداء كلها. ولعله كان يمتنع بعد أن يشم الثدي وينظر في وجه صاحبته، فلا يجد فيه ثدي الأم، ولا يجد عند صاحبته رائحة الأم!

﴿وحرمنا عليه المراضع﴾ وكأن اللّه أمر الشفتين أن لا تقبلا أي ثدي، ولا أن ترضعا أي حليب. فامتثلتا أمر اللّه، ما كان لهما إلا الامتثال!

ووقع القوم في حيرة ودهشة وقلق، وتعجبوا مما يشاهدونه لأول مرة. طفل رضيع يبكي جوعاً، ومع ذلك يرفض الثدي والحليب، وكأنه يبحث عن ثدي خاص لامرأة مخصوصة ليرضع منها حليباً خاصاً.

ثم هم قلقون عليه، ويخشون عليه الهلاك إن استمر على هذا الرفض، والامتناع، إنهم يريدون له أن يعيش، وعلى أتم الاستعداد لأن يبذلوا له كل شيء للابقاء على حياته.

ومن هم الحريصون على حياته الآن، المتلهفون لإنقاذه؟ إنهم أولئك الذين كان يُخشى على حياته منهم! إنهم أولئك الذين كنا نتوقع منهم قتله، أصبحوا بتدبير اللَّه وتقديره راغبين في حياته، متلهفين على إنقاذه!.

يا لتدابير اللَّه، ويا لعظمته سبحانه، آمنا باللَّه وحده!.

الحكمة من امتناعه عن المراضع:

إذا ما وقفنا أمام هذا التدبير الإلٓهي الحكيم، وحاولْنا إدراك بعض الحكم من امتناع موسى عن المراضع، فإننا قد نخرج من ذلك بالحكم التالية:

١ ــ إن هذا الامتناع تدبير إلهي، ليُعاد موسى إلى أمه.

٢ ــ لو قبل موسى أية مرضع في قصر فرعون لحُرم من حنان الأم، ودفء حضنها، وحسن رعايتها. ومن المعلوم أن أم الطفل أكثر حرصاً عليه واهتماماً به، مهما كانت المرضع مخلصة له!.

٣ ــ لو قدمت أمه نفسها مرضعة له قبل امتناعه، لكانت متَّهمة، وقد تُثار حولها الشبهات، وقد تنكشف علاقته بها، لأن لهفة الأم على ابنها لا تخفى على مراقب بصير، إنها تبدو في شغفها به، وطريقة حضنه وحمله، وتقديم ثديها له.

٤ ــ إن هذا الامتناع من باب مكر اللّه سبحانه بفرعون وقومه، حيث جعلهم هم الذين يبحثون ــ بحرص واهتمام ــ عن أية مرضعة. عندها لن تكون هناك شبهة في قبوله ثدي أمه، ولا يفكرون في صلتها به.

وكأن اللّه يقول لفرعون: أنت تريد أن تأخذ الرضيع من حضن أمه، ونحن نريدك أنت وقومك أن تعيدوه إلى حضن أمه، وأن توظفوا أمه مرضعة له على حسابكم، وأن تقدموا لها أجرتها مقابل رضاعه. ولا يكون إلا مانريد، وأنتم أنفسكم تنفذون ما نريد!.

اللّه يرد موسى إلى أمه:

تدخلت أخت موسى في الوقت المناسب، وعرضتْ خدماتها على آل فرعون، حيث كانوا حريصين على إنقاذ حياة الرضيع بأية وسيلة، وقبول أي قول ــ مهما كان قائله ــ.

تدخلت أخته بصورة لا تثير حولها الشبهات، وهذا يدل على حيطتها وحذرها، وعلى موهبتها وحسن تخطيطها، وذكائها وسلامة تفكيرها.

«قَالَتْ: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلونَهُ لَكُمْ، وَهُمْ لَهُ ناصِحون؟».

وانظر الدقة في كلامها: «هل أَدلكم؟» بهذا الاستفهام الذي يدل على الحث والتحضيض، والصادر بلهجة الاشفاق. وهم لا يملكون إزاء هذا الاستفهام إلا الرد بإيجاب!.

تدلهم على ماذا؟

على أهل بيت يكفلون الرضيع، يكفلونه لآل فرعون «يكفلونه لكم».

ثم هم يتوفر عندهم حسن الرعاية والعناية والحرص. والإخلاص في النصح للرضيع: «وهم له ناصحون».

ووافق آل فرعون على هذا العرض، وما شك أحدهم في إخلاصها في رأيها، ولا في رغبتها في المساعدة، وما ورد بخاطر أحدهم ظن بأنها أخت موسى، ولا توقع أحدهم بأن هذا الرضيع ذاهب إلى حضن أمه.

ورد اللّه موسى إلى أمه ﴿فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَن، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حق، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُون﴾.

«فرددناه إلى أمه» نفهم منها أن اللّه رده إليها رداً، لأنها هي الأَوْلى به، والأحق بحضانته. رده إليها رداً تصديقاً لوعده السابق لها ﴿إنا رادّوه إليك﴾. رده اللّه إليها كي تقر عينها، بأن تحضن وليدها، وتقدم له حليبها. رده اللّه إليها كي لا تحزن على فقده، ولا تهلك نفسها شوقاً له.

وقد ذكَّر اللّه موسى ـ عليه السلام ـ بهذه النعم، وامتنَّ عليه بهذا التدبير، عندما بلغه بالنبوة، وكلفه بالذهاب إلى فرعون. وقال له: ﴿إِذْ تَمْشي أُخْتُكَ، فَتَقول: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُه؟ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّك، كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَن﴾.

أم موسى ترضع ابنها على حساب فرعون:

فرح آل فرعون بقبول الرضيع ثديَ تلك المرأة، وبذلك تم إنقاذ حياته، وما فكر أحد منهم بأن هذه هي أمه!

وتم توظيف أم موسى من قبل فرعون، على أن تكون مرضعة وحاضنة وكافلة له، وقائمة بأمره، ومعنية بشؤونه. ودفَع لها فرعون أجرتها على القيام بهذا!.

وهذا من أعاجيب تدبير اللّه! فلو بقي موسى عند أمه لما استطاعت حمايتـه، ولكان معرضاً للهلاك والخطر، ولو بقي موسى عند فرعون، يرضع من أية مرضعة، لما وجد عندها حنان الأم وعطفها، ولما استقرت مشاعر أمه، ولا اطمأنت على ابنها!.

إن اللَّه أراد لموسى أن ينجوَ من مكر فرعون. وأراد لموسى أن يحمله التابوت إلى قصر فرعون. وأراد لموسى أن يحبه قلب امرأة فرعون. وأراد لموسى أن لا يقبل ثدي أية مرضعة عند فرعون. وأراد لموسى أن يُعاد إلى بيت أمه منتقلاً له من قصر فرعون. وأراد لموسى أن لا يشك في أمه أحد من جنود فرعون. وأراد لموسى أن تقوم أمه بإرضاعه وحضانته على حساب فرعون. وأن تأخذ أجرتها على ذلك من مال فرعون. وفي كل ما أراده اللَّه من هذه الأمور إلغاء وتعطيل لإرادة فرعون. ومكر بإرادة فرعون. وأين نتيجة ما أراده اللَّه ونتيجة ما أراده فرعون؟ ومن هو هذا الفرعون؟ من هو حتى يعطل إرادة اللَّه؟ إنه لن يكون إلا ما أراده اللَّه!. ويا ويح فرعون ـ ويا ويح كل من «تَفَرْعَنَ» على طريقة فرعون ـ ما أضعفه أمام إرادة اللَّه سبحانه!.

أصبحت أم موسى في إرضاعها لابنها وأخذها الأجرة على ذلك من فرعون، مثلاً يُضرب لكل من عمل الخير وقام بالواجب، ثم أخذ الأجرة على ذلك الواجب.

روى أبو داود عن جُبير بن نُفير عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال: «مَثَل الذين يغزون من أمتي، ويأخذون الجُعْل، ويتقوَّوْن به على عدوهم، مثلِ أم موسى: تُرضع ولدها، وتأخذ أجرتها»[1].

---

(١) رمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بالصحة. واعتبره مرسلاً، لأن جبير بن نفير لم يدرك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. وبذلك يكون قد أسقط اسم الصحابي.
لكن ذكر المناوي في «فيض القدير» أن جبير بن نفير أخذه عن خالد بن الوليد وعبادة بن الصامت. وكأن المناوي بذلك يصله ويزيل إرساله. فالحديث صحيح.
ثم قال المناوي: ورواه ابن عربي من حديث معاذ. وقال الحافظ العراقي عن هذه الرواية: مستقيم الإسناد، منكر المتن. فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ٥١١.

الحكمة من الرحلة المثيرة لموسى:

قد يقف بعض الناس متسائلاً عن الحكمة من هذه الرحلة المثيرة لموسى عليه السلام، فبما أنه سيكون عند أمه، وأنه سينجيه اللَّه من مكر فرعون وأذاه، فلماذا يسوقه اليم إلى بيت فرعون، ثم يعيده فرعون إلى أمه؟

هناك حِكَم عديدة من هذا التقدير الإلهي الحكيم، والتدبير الرباني المعجز. منها:

١ ــ إن اللَّه يريد أن يمكر بفرعون، ويظهر للناس تعطيل إرادته أمام إرادة اللَّه سبحانه.

٢ ــ إن اللَّه يريد أن يقدم للمؤمنين دروساً وعبراً ودلالات إيمانية، من خلال هذه الرحلة، حول قدرة اللَّه وتدبيره، ونفاذ إرادته وتحقيق مشيئته، وضعْف وعجز من يحاد اللَّه ويحارب المؤمنين ويؤذي الصالحين، وحول حفظ اللَّه للصالحين، وتدبيره الأمور لتحقيق ذلك.

٣ ــ إن اللَّه يريد أن يضمن لموسى الوسيلة الناجحة لحمايته من بطش فرعون ومكره، ويريد له أن يعيش في حضن أمه، ويرضع من ثديها، بأمان واطمئنان، بل وعلى حساب فرعون ونفقته!.

٤ ــ إن اللَّه يريد أن يكشف لنا عن نماذج خيِّرة طيبة في بيت فرعون نفسه، وهي زوجته التي أحبت موسى ودافعت عنه، فالبيت الطالح الكافر قد لا يخلو من أناس صالحين طيبين.

٥ ــ إن اللَّه يريد أن يمتنَّ على موسى، وأن يريه بعض نعمه عليه، ورعايته له، وتحقيقه معجزات في حياته:

٦ ــ إن اللَّه يريد أن يقدم لنا بعضاً من جنوده الأخفياء. التي ظهرت في هذه الرحلة.

هذه بعض الحِكَم التي تبدو لنا من هذا التدبير الإلّهي، وهذه الرحلة المثيرة، واللَّه أعلم.

بعض جنود اللَّه في هذه الرحلة :

أطلعَنا القرآن الكريم على بعض جنود اللَّه الأخفياء، الذين كان لهم دور في حماية موسى وإعادته إلى أمه منهم :

١ ــ التابوت الذي وُضع فيه موسى.

٢ ــ اليم الذي حمل التابوت.

٣ ــ قلب امرأة فرعون الذي رق لموسى، وامتلأ محبة له.

٤ ــ شفتا موسى اللتان رفضتا قبول أي ثدي، حتى عاد موسى إلى أمه.

وتجنيد اللَّه لهؤلاء الجنود الأخفياء، دليل على أن للَّه جنود السموات والأرض، وأنه ــ سبحانه ــ يوظف منها ما شاء لما شاء. وما يعلم جنود ربك إلا هو!

وتجنيد هؤلاء الجنود الأربعة، وهم لا عقل لهم ولا وعي ولا إدراك ولا اختيار ــ كما يبدو في ظاهر الأمر ــ رد بالغ على الماديين، الذين ينكرون ما وراء المادة، ولا يثبتون لغير الإنسان عقلاً أوروحاً، أو وعياً وإدراكاً.

إنهم لا يتصورون أن يكون لشفتي رضيع ــ في أيامه الأولى ــ تمييز واختيار، وأن ترفضا الأثداء والحليب، وأن تُصِرّا على ثدي خاص، هو ثدي الأم.

إن الأمر في ظاهره غريب، لكنه لا يتصادم مع العقل المؤمن الواعي البصير، إنه يَدْخل دائرة الأمور المعقولة : إن اللَّه هو الذي أراد هذا. واللَّه أمر الشفتين بالامتناع، وحرَّم عليه المراضع. والعقل المؤمن يسلِّم بأن إرادة اللَّه نافذة، وأنه فعَّال لما يريد، وأن كل مخلوق في الكون منفِّذ لأوامر اللَّه ومحقِّق لإرادته.

ماذا جرى لأم موسى بعد ذلك؟

وقف بنا القرآن عند هذه اللقطة من حياة أم موسى. ولم ندر ماذا جرى لها بعد ذلك. فكل ما عرفناه عن أم موسى ـ من خلال العرض القرآني ـ أنها امرأة من بني إسرائيل. وأنها زوجة لرجل من بني إسرائيل اسمه «عمران»، وأنها كانت مؤمنة صالحة، وأن اللّٰه ألهمها طريقة ناجحة لحفظ موسى ونجاته من الخطر الفرعوني، وأن اللّٰه رد ابنها إليها فأرضعته وجعلته يشب وينمو في بيتها.

إن القرآن لم يَعرض من قصتها إلا الجانب المتعلق بموسى عليه السلام في طفولته.

وكانت آخر لقطة في قصتها في العرض القرآني، هي عودة ابنها إليها ـ لكن بأمر فرعون وكفالته ونفقته ـ وإرضاعها له وعنايتها به.

وماذا بقي بعد ذلك؟ هل بقي من حياتها شيء له ارتباط بطفولة موسى عليه السلام، يستحق أن يُبْرَز بالذكر؟ لا شيء!.

لذلك وقف القرآن في قصتها أمام هذا المشهد، وختمها بهذه اللقطة، وهو ختام فني وموضوعي.

يجب أ نقف عندما وقف عنده القرآن، وأن نسكت على ما سكت عنه القرآن، وأن يكفينا ما قدمه لنا القرآن. ومن لم يكفه القرآن فلا كفاه اللّٰه! ومن لم يستغن بالقرآن فلا أغناه اللّٰه!.

لقد سارع القرآن في عرضه. فقدم لنا موسى عليه السلام، وهو شاب بالغٌ أشدَّه، وبذلك طوى لنا مراحل من حياته طياً، طوى لنا حياته، وهو طفل صغير بعد الفطام، وطوى لنا حياته، وهو غلام يافع، لأن هذه المشاهد ليست ضرورية لقصته.

إن المهم بعد طفولة موسى عليه السلام، هو شبابه المتدفق حياة وحيوية، وحماسة وحمية، وإيماناً وإخلاصاً ومحبة، ودفاعاً عن المظلومين. ونصرة للمستضعفين:

قال تعالى: ﴿وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى، آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً. وَكَذٰلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِين. وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلىٰ حينِ غَفْلَة مِنْ أَهْلِها، فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلان: هٰذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهٰذا مِنْ عَدُوِّهِ، فَاسْتَغاثَهُ الَّذي مِنْ شِيعَتِهِ عَلىٰ الذِّي مِنْ عَدُوِّه، فَوَكَزَهُ موسى فَقَضىٰ عَلَيْه﴾[١].

لكننا لن ندخل في قصة موسى بعد ذلك، حتى لا نخرج عن موضوع هذا الكتاب، لأن حديثنا إنما هو عن أم موسى وليس عن موسى نفسه ـ عليه السلام ـ وقد عرضنا من قصته ماله ارتباط بقصة أمه، فقط.

حديث الفتون وحكاية الجمرة والتمرة:

نرى من الضروري قبل أن نغادر هذه القصة إلى قصة غيرها، أن نشير إلى حديث «الفُتُون» وحكاية «الجَمْرَة والتَّمْرَة». نقف أمامه باعتباره يتحدث عن أشياء حدثت لموسى وهو طفل رضيع في بيت فرعون قبل أن يُعاد إلى أمه.

قال اللّه لموسى، ممتناً عليه ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الغَـمِّ، وَفَتَنَّاكَ فُتوناً﴾[٢].

أورد معظم المفسرين السابقين حديث الفتون، ونسبوه إلى ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ وزعموا أنه رفعه إلى رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ.

---

(١) سورة القصص: آيتي ١٤ ـ ١٥.

(٢) سورة طه: آية ٤٠.

وذكروا في حديث الفتون حكاية «الجمرة والتمرة».

حيث زعموا أن موسى الرضيع عندما كان في بيت فرعون، دعت امرأة فرعون زوجها إلى أن يحمل موسى في حضنه، فلما حمله، نظر موسى إلى لحية فرعون، فجذبها إلى أسفل، فغضب فرعون من فعلته، وتشاءم منه، واعتبرها إشارة إلى عداوته له، فأمر بذبحه.

فتدخلت امرأته، ورجته أن لا يفعل، وبينت له أنها حركة من طفل لا يعرف ماذا يفعل.

ولهذا فهي غير مقصودة. إنه لا يعرف ماذا يأخذ وماذا يترك وماذا يختار. وقالت له: قدِّم له جمرة وتمرة، وانظر ماذا يأخذ منهما، فإن أخذ الجمرة فهو بريء ولم يقصد حركته ضدك، وإن أخذ التمرة فهو يقصد ما فعل ويتهددك ويتوعدك!

قالوا: وقدم له فرعون جمرة وتمرة، فأخذ الجمرة، ووضعها على لسانه، فأحرقته، وأحدثت له عاهة دائمة، تمثلت في لُثْغَة مستمرة.

قالوا: والدليل على وجود هذه اللثغة، أنه لما كلمه اللَّه سبحانه بالذهاب إلى فرعون، طلب من اللَّه أن يزيل تلك اللثغة عنه، وأن يحل تلك العقدة من لسانه. فدعا اللَّه قائلاً: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْري. وَيَسِّرْ لي أَمْري. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني. يَفْقَهوا قَوْلي﴾[1].

ونحن ـ على منهجنا في النظر في قصص القرآن ـ لا نقبل هذا الكلام عن حديث الفتون، وحكاية الجمرة والتمرة، ولا نقول به، ولا نفسر به كلام اللَّه.

---

(١) سورة طه: آيتي ٢٧ ـ ٢٨.

لا نقبله لأنه لم يصح عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وإنما هو من الإسرائيليات التي ندعو باستمرار إلى طرحها جانباً.

قال الإمام ابن كثير في تفسير سورة طـه بعد إيراده حديث الفتون المطوَّل: «وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تَلقاه ابن عباس رضي اللَّه عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار، واللَّه أعلم»[1].

وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كنا لا نقبل الروايات غير الصحيحة عن الجمرة والتمرة، فما هي عقدة لسان موسى عليه السلام التي طلب من اللَّه أن يحلها له؟.

إنها عقدة معنوية وليست حسية ــ واللَّه أعلم ــ إنها «حَبْسَة» ناتجة عن الانفعال النفسي، وهذه حالة نفسية معروفة. فالإنسان عندما ينفعل أحياناً من موقف أو كلام أو حادث، ويتكلم وهو في أقصى درجات الانفعال، فإنه يتكلم كلاماً سريعاً متوالياً، غير واضح ولا بيِّن، وقد يصل إلى مرحلة من الانفعال يضيع فيها صوته ويجد نفسه عاجزاً عن الكلام.

يبدو أن موسى عليه السلام، كان يخشى أن يمر بهذه الحالة أمام فرعون، كان يخشى أن لا يتمالك نفسه وأعصابه عندما يكذِّب فرعون ويمارس أمامه طغيانه وظلمه وإفساده، كان يخشى عند ذلك أن تخرج الكلمات سريعة على لسانه، فلا يفهمها السامعون، أو تنحبس الكلمات داخل صدره، ويعجز عن إخراجها من فمه لشدة ضيقه وانفعاله، وبهذا لا يبلِّغ الدعوة ولا يقيم على الموجودين الحجة. ولذلك دعا اللَّه أنه يزيل عنه تلك الحبسة المعنوية، وأن يحل عن لسانه تلك العقدة النفسية، وأن يبقى ضابطاً لأعصابه، ملازماً له هدوءه. فاستجاب اللَّه له.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣:١٥٣. وانظر حديث الفتون بطوله فيه ٣:١٤٨ ــ ١٥٣.

هذا ما نفهمه من عقدة لسانه المعنوية النفسية، واللّه تعالى أعلم.

قال الأستاذ سيد قطب في الظلال: «والظاهر من قول موسى عليه السلام ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبون. وَيَضيقُ صَدْري، وَلا يَنْطَلِقُ لِساني﴾[1] أن خوفَه ليس من مجرد التكذيب، لكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره، ولا ينطلق لسانه، فلا يملك أن يبين، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده، إذ كانت بلسانه حبسة، هي التي قال عنها في سورة طه ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني. يَفْقَهوا قَوْلي﴾ ومن شأن هذه الحبسة أن تُنشىء حالة من ضيق الصدر. تَنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام. وتزداد كلما زاد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقاً.. وهكذا.. وهي حالة معروفة»[2].

أهم دروس قصة أم موسى:

نقف أخيراً لنلخص أهم الدروس والدلالات والعِبَر، التي نستخلصها من قصة أم موسى عليه السلام في القرآن. وقد وردت هذه الدروس أثناء حديثنا التحليلي لها:

١ ــ أم موسى عليه السلام ليست نبية، ووحي اللّه لها عن طريق الإلهام فقط.

٢ ــ وجوب الاكتفاء بالقرآن والحديث الصحيح في معرفة تفصيلات القصة.

٣ ــ كان فرعون ظالماً مفسداً متكبراً في قتله للمواليد الذكور من بني إسرائيل.

٤ ــ تعطيل وعجز إرادة فرعون أمام إرادة اللّه سبحانه. لأنه لا يكون إلا ما أراده اللّه.

---

(١) سورة الشعراء: آيتي ١٢ ــ ١٣.

(٢) في ظلال القرآن ٥: ٢٥٨٩.

٥ ـ كل من وقف أمام إرادة اللَّه فهوعاجز ضعيف، وهو فاشل مهزوم خاسر. وإن أعداء اللَّه أينما كانوا هم إلى هزيمة وخسارة، لأنهم يحاربون اللَّه بغفلة وسذاجة، ومن هو الذي سينتصر إذا حارب اللَّه القوي القادر سبحانه؟

٦ ـ يختار اللَّه سبحانه ما شاء من الوسائل والأساليب لتحقيق وعده، وإنفاذ إرادته، وحفظ أوليائه، وقهر أعدائه.

وما على المؤمنين إلا الاطمئنان إلى أمر اللَّه. وتفويض أمورهم إليه، وحسن توكلهم عليه، وأخذهم بالأسباب المادية التي تحقق لهم الانتصار على الكفار.

٧ ـ البشر مهما خططوا ونظموا ودرسوا ورسموا، فإن كل ذلك يضيع ويتلاشى، ولا يكاد يذكر أمام تقدير اللَّه سبحانه وتدبيره.

٨ ـ البشر قد يعجزون عن فعل أمر، والدفاع عن شخص ونصرته. ولكن اللَّه إذا دافع عنه ونصره فسيكون عزيزاً منتصراً. لأن اللَّه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

٩ ـ للَّه جنود أخفياء في السموات والأرض، ولا يعلم جنوده سبحانه إلا هو، وقد لا يخطر على بال بشر أن يكون أحدهم جندياً يقوم بأمر، ولكن اللَّه سبحانه يسخِّر من هؤلاء الجنود من شاء لما شاء.

١٠ ـ إن اللَّه مع أوليائه منذ اللحظات الأولى لحياتهم ـ بل منذ كونهم في بطون أمهاتهم ـ فهو يذلل لهم العقبات، وييسر لهم الطريق، وينقذهم من الأخطار. ولهذا أثره العظيم على حياة هؤلاء الأولياء وجهادهم ومواقفهم.

١١ ــ كان بيت فرعون الطاغية الذي ادعى الألوهية والربوبية مختَرَقاً من الداخل. حيث كانت أقرب الناس إليه ــ حسب الظاهر ــ وهي امرأته، كافرة به، مؤمنة باللّه وحده لا شريك له. وقد أمر اللّه قلبها أن يحب الرضيع وأن يكفله ويدافع عنه، وعجِز فرعون أمام هذا الأمر، ووافق على طلبات امرأته.

١٢ ــ يمكر اللّه بفرعون، ويجعله يتصرف أمام الناس تصرفات لا تخلو من غفلة. فها هو يوافق على أن يعيش الرضيع عنده، وأن ينمو في قصره، وأن يتولى هو بذاته كفالته ورعايته والانفاق عليه، ليكون هلاكه بعد ذلك على يديه!.

١٣ ــ إن اللّه يعوض عباده الصالحين ما فقدوه من الناس، بما يمنحه لهم، وينعم به عليهم، فها هو موسى الرضيع يفقد حضن أمه وحنانها لفترة من الوقت، فيعوضه اللّه عن ذلك بما ألقاه عليه من محبته.

١٤ ــ إن التربية الرجولية لا تتم عن طريق الرخاوة والدلال والميوعة، وإنما تتم من خلال المحنة والشدة والحزم. فها هو موسى يُقذَف في التابوت. وها هو التابوت يقذف في اليم، وها هو اليم يلقيه أمام قصر فرعون، ويقدمه هدية لعدوه اللدود، ولكن اللّه يحفظه.

١٥ ــ قد يبتلي اللّه أولياءه وأحبابه، وقد يصيبهم بالضر والمحنة، فإنْ حصل هذا لهم فلا يكون دليلاً على عدم محبة اللّه لهم، ولا عدم رضاه عنهم. فالابتلاء لصقل النفوس وتعميق الإيمان، ورفع الدرجات والمقامات عند اللّه.

١٦ ــ يُعتبر امتناع شفتي موسى الرضيع عن قبول أي ثدي، إلا ثدي أمه، رداً قوياً على الملحدين والماديين، الذين ينكرون عالم الغيب ومجال الروح، ولا يجعلون العقل والاختيار والوعي والحياة إلا للإنسان فقط.

١٧ ـ اللّه لا يخلف الميعاد، فقد وعد أم موسى أن يعيده إليها سالماً، فأعاده بطريقة لا تخطر لأحد على بال.

١٨ ـ يعتبر أخذ أم موسى الأجرة من فرعون مقابل إرضاعها لموسى، دليلاً على إكرام اللّه لها وإنعامه عليها، كما تعتبر هي مثالاً لمن يقوم بالواجب وأخذ الأجرة عليه.

١٩ ـ وجوب الأخذ بأنجح وأفضل الأساليب البشرية للتخطيط والتنظيم، وأخْذ الحيطة والحذر، وكتمان الأسرار عن الأعداء، والفطنة والذكاء وحسن التصرف معهم، كما رأينا من موقف أخت موسى ـ عليه السلام ـ.

* * *

٢

قِصَّةُ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْن

قِصَّةُ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ

قصته في العرض القرآني :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ
عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ
أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)
وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ
(٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ
رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن
يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ
(٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ
قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ
الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ

وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ
التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ
إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ
اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ
السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ
سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ
إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً
فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ
وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا
وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ
﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ » .

(١) سورة غافر: آيات ٢٣ ـ ٤٦.

من هو مؤمن آل فرعون؟

اختلف المؤرخون والمفسرون في تحديد شخصية مؤمن آل فرعون، وبيان قصته مع فرعون وقومه، وكيف كانت بداية أمره وكيف كانت نهايته.

فقال بعضهم بأنه كان ابن عم فرعون، وأنه كان يكتم إيمانه خوفاً من فرعون على نفسه.

واختلفوا في تعيين اسمه. فمنهم من ذهب إلى أن اسمه «شمعون»، وبعضهم قال: هو «خَيْر»، وبعضهم قال: هو «حَـبْرَك». وقيل هو «شمعان» وقيل: «حبيب» ومال كثير منهم إلى أن اسمه «حزفيل»[1].

وقد أورد الثعلبـي في «عرائس المجالس» طرفاً من قصته. منه: إنه كان من أصحاب فرعون، وإنه كان نجاراً، وإنه هو الذي صنع التابوت لأم موسى حين ولدته وألقته في اليم. وقيل إنه كان خازناً لفرعون، خزن له مائة سنة، ولم يُظهر إيمانه إلا من بعد ما أظهر اللّه موسى عليه السلام على السحرة. وإن نهايته كانت مع السحرة، حيث أخذه فرعون معهم، وصلبه مثلهم، وقتله معهم. وإن امرأته هي «ماشطة» ابنة فرعون، وإنها كانت مؤمنة مثله، وقد أخذها فرعون بعد قتله وقتلها مع أولادها[2].

هو من المبهمات التي لا تبيين لها:

إننا إذا ما توجهنا للمصادر المأمونة الموثوقة، لنسألها عن مؤمن آل فرعون، فإننا سنجدها تسكت عن تفصيلات قصته، وتجعل اسمه من «مبهمات القرآن».

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١ : ٢٦٠.

(٢) عرائس المجالس «قصص الأنبياء» للثعلبي : ١٦٦.

لم يَرد في القرآن تبيين اسمه وتفصيل أحداث قصته، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يبين شيئاً من ذلك. ولقد توقف الصحابة الكرام عن الخوض في قصته، واكتفوا بما ذكره القرآن منها.

ولذلك فنحن نتوقف في قصة مؤمن آل فرعون عند حدود القرآن والحديث، ونعتقد أنه يكفينا ذلك البيان، وأنه يسعنا ما وسع الصحابة والتابعين والعلماء الموضوعيين.

إن مؤمن آل فرعون من «مبهمات القرآن» التي لم تبيَّن فيه، ويجب أن يبقى من المبهمات حيث أبقاه القرآن، ولا يجوز الذهاب إلى الإسرائيليات لتبيين أمره.

وإننا بدل أن نخوض فيما لا علم لنا به، مطالبون بالوقوف أمام قصته في القرآن، لنأخذ منها اللفتات والدلالات والدروس والعبر، في موضوع الإيمان والدعوة والجرأة والشجاعة، والبيان والتأثير والجهاد.

وقد أضرب الإمام ابن كثير عن تفصيلات أمره، وأشار إلى استخراج الدلالات والدروس منها فقال: «والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه، فلما همَّ فرعون لعنه اللّه بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك، وشاور ملأه فيه، خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه بين الترغيب والترهيب»[1].

هو من آل فرعون:

نفهم من القرآن أن هذا الرجل المؤمن كان من آل فرعون: ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُـؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَه﴾. فهو من العائلة الفرعونية المالكة، وليس من بني إسرائيل.

---

(١) البداية والنهاية: ١: ٢٦٠.

واختيارُ هذا الرجل المقرَّبِ من فرعون القريبِ له الإيمانَ باللّه وبموسى، يوحي لنا ببعض الإيحاءات منها:

١ ـ زوال الولاءات والانتماءات والارتباطات العائلية والقبلية والعشائرية والقومية عند تعارضها مع الإيمان، فالإيمان لا يفرق بين شخص وشخص، ولا بين عائلة وعائلة، ولا بين قوم وقوم، وإنما الناس ـ حسب المفهوم الإيماني ـ أحد رجلين: إما مؤمن وإما كافر.

٢ ـ إن هذا الرجل المؤمن كان يملك قلباً سليماً حياً، وفطرة سوية، وأنها لم تفسد بالقرب من الحاكم. وأن الإنسان يقدر على أن يحتفظ بالخير والإيمان والفضيلة مهما كان موقعه، إذا أراد هو ذلك، وسلك الطريق الجاد لتحقيق ذلك.

٣ ـ إن هذا الرجل المؤمن كان يتمتع بإيمان عظيم، أثّر في حياته فقاده إلى الاستعلاء على الدنيا وما فيها، والزهد بمظاهر الحياة والمنزلة الزائفة، وإيثار ما عند اللّه على الدنيا وما فيها، والزهد بمظاهر الجاه والمنزلة الزائفة. ولذلك دفع تكاليف الإيمان برجولة، وواجه المحن والابتلاءات باستعلاء وجرأة وثبات.

٤ ـ لقد كان بيت فرعون مختَرقاً إيمانياً من الداخل. فقد كان ممثِّلاً للكفر والباطل، وكان قصره قلعة الكفر والباطل، وكان هو يدَّعي الألوهية والربوبية، ويُعبِّد الناس له من دون اللّه. ولكن اللّه ـ من باب المكر بفرعون وإظهار ضعف الكفر ـ وجَّه قلوب بعض المقربين من فرعون إلى الإيمان باللّه وحده. فها هو هذا الرجل من آل فرعون يختار الإيمان، وتلك هي امرأة فرعون تسير في طريق الإيمان.

٥ ـ كان موسى عليه السلام ناجحاً في دعوته، حيث أوصلها إلى موقع متقدم من قوات خصمه، وجنّد لها رجلاً يبدو أنه كان مقرّباً من قيادة

أعدائه، ولعل هذا الرجل المؤمن كان يقدم لموسى معلومات هامة عن حرب أعدائه له.

مشاهد القصة:

عندما نمعن النظر في الآيات التي عرضت قصة مؤمن آل فرعون، فسنجدها تقسِّم قصته إلى أربعة مشاهد وخاتمة:

المشهد الأول: فرعون يتآمر على موسى عليه السلام أو يريد قتله.

المشهد الثاني: ظهور الرجل المؤمن، ودفاعه عن موسى عليه السلام، ونجاحه في مخاطبة الجماهير.

المشهد الثالث: فرعون يُشغل الجماهير، كي لا تستجيب للرجل المؤمن.

المشهد الرابع: الرجل المؤمن يدعو الجماهير لاتباعه.

الخاتمة: الرجل المؤمن يغادر قومه مفوِّضاً أمره إلى اللَّه.

المشهد الأول: ضم الآيات: **٢٣ ــ ٢٧** من القصة.

المشهد الثاني: ضم الآيات: **٢٨ ــ ٣٥** من القصة.

المشهد الثالث: ضم الآيات: **٣٦ ــ ٣٧** من القصة.

المشهد الرابع: ضم الآيات: **٣٨ ــ ٤٣** من القصة.

الخاتمة: ضمت الآيات: **٤٤ ــ ٤٦** من القصة.

وقد حوى كل مشهد لقطات عديدة، تُبرز أشخاصاً وأحداثاً، وتعرض مواقف وحركات، وتقدم لنا حقائق ودلالات. بقوة وحيوية، وتصوير وتأثير.

وستكون نظراتنا في اللقطات والمقاطع والمشاهد نظرات تحليلية موضوعية، لتسجيل دلالاتها الإيمانية والدعوية والحركية، ولن نتعرض إلى لفتات فنية بيانية أسلوبية بلاغية إلا قليلاً، لأنها ليست هدفنا من هذا الكتاب. واللَّه المستعان.

المشهد الأول:

موسى يبلغ دعوة اللّه وفرعون يكيد له:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبين. إلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وقَارون. فقالوا: ساحِرٌ كَذّاب. فَلَمّا جاءَهُمْ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالوا اقْتُلوا أَبْنَاءَ الذّين آمَنوا مَعَه، وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ. وَما كَيْدُ الكَافِرينَ إلّا في ضَلال. وَقالَ فِرْعَوْن: ذَروني أَقْتُلْ موسى، وَلْيَدْعُ رَبَّه، إِني أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دينَكُمْ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ في الْأَرْضِ الفَساد.

وقالَ موسى: إِنيّ عُذْتُ بِرَبّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّر، لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِساب﴾. [الآيات ٢٣ـ٢٧].

إن قصة مؤمن آل فرعون ليست مستقلة، وإنما هي حلقة من حلقات قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، التي وردت في عدة سور من القرآن.

وقصةمؤمن آل فرعون لم ترد في غير هذه السورة. ولهذه السورة اسمان توقيفيان:

الأول: سورة غافر.

الثاني: سورة المؤمن. والمراد بالمؤمن هو هذا الرجل المؤمن، ولعلها سميت باسمه تكريماً له، وإشادة بموقفه، ودعوة المؤمنين لاتباعه والاقتداء به في دعوته.

أغفلت سورة غافر ــ أو المؤمن ــ تفصيلات قدوم موسى عليه السلام من مدين، وتكليم اللّه له عند جبل الطور، وآيتا العصا واليد، وتكليف اللّه له بالذهاب ــ مع أخيه هارون ــ إلى فرعون وقومه، ودعوتهم إلى اللّه وإخلاء سبيل بني إسرائيل.

أغفلت السورة هذه التفصيلات، وتفصيلات مواجهة موسى لفرعون، ومشاهد التحدي والمباراة، وإيمان السحرة وثباتهم، وخروج موسى مع قومه ولحوق فرعون بهم، ونجاتهم وهلاكه.

لقد أبرزت سورة غافر ــ أو المؤمن ــ موقف الرجل المؤمن، لأنه هو المقصود من السورة.

نظرة فنية في لقطات المشهد:

ضم المشهد الأول هذه اللقطات:

اللقطة الأولى: الطواغيت الثلاثة ــ فرعون وهامان وقارون ــ على مسرح الحكم والتوجيه يمارسون الفساد والطغيان على الجماهير.

اللقطة الثانية: موسى عليه الصلاة والسلام يأتي إلى الطواغيت الثلاثة، ويدعوهم إلى الإيمان بالله، والكف عن الفساد والطغيان.

اللقطة الثالثة: الطواغيت الثلاثة يرفضون دعوة موسى عليه السلام، ويتهمونه بأنه ساحر كذاب.

اللقطة الرابعة: موسى عليه السلام يقدم ما عنده من الآيات والمعجزات للتدليل على صدقه ونبوته.

اللقطة الخامسة: الطغاة يحاربون دعوة موسى عليه السلام بمحاربة أتباعه: بقتل أولادهم واستحياء نسائهم.

اللقطة السادسة: الطاغية فرعون يكيد لموسى عليه السلام، ويريد قتله، ويطلب من قومه الإذن له بذلك، ويقدم الأسباب الوجيهة لتبرير طلبه.

اللقطة السابعة: موسى عليه السلام يعوذ بربه ويلجأ إليه، ويعتصم به، في مواجهة كيد فرعون له، ويقدم الأسباب الحقيقية لطلب فرعون قتله، ويبين سر انحراف شخصيته!.

وبهذه اللقطة يُخْتَم المشهد الأول، فتكون هذه هي الخاتمة الطبيعية وتكون خاتمة فنية بيانية مؤثرة، وخاتمة موضوعية بليغة.

إن موسى عليه السلام ـ في هذا المشهد ـ يختم مهمته، ويغادر قومه ـ مغادرة فنية من خلال الآيات ـ وهو عائذ بربه، ملتجىء إليه، متوكل عليه، وبهذا الزاد الإيماني العظيم يواجه مؤامرة فرعون على حياته، ويواجه فرعون نفسه برجولة وإيمان وثبات وجهاد.

وكأن الآيات تريد أن تقر هذه الحقيقة الإيمانية الدعوية في كيان المؤمنين وهم يقرأون الآيات، ليقتدوا بموسى عليه السلام في هذا الموقف.

لن نجد خاتمة فنية أفضل من هذه الخاتمة، ولن نجد خاتمة إيمانية دعوية أجود من هذه الخاتمة!.

وسائلهم في مواجهة الحق:

جاء موسى عليه السلام فرعون وقومه بالحق من الله، وقدم لهم الآيات والمعجزات التي تدل على صدقه ونبوته. ولكنهم بدل أن يخضعوا للحق الباهر الذي معه، وأن يتبعوه ويدخلوا في دينه، كذبوه واتهموه بالسحر والكذب، وقالوا عنه: ساحر كذاب.

ويا ليتهم اكتفوا بالكفر به وتكذيبه ـ وهو موقف شنيع وجريمة منكرة ـ ولكنهم انتقلوا إلى مرحلة أخرى، أشد كفراً وطغياناً وإفساداً.

حاربوه حرباً حاقدة، واتخذوا في ذلك وسيلة خسيسة، لا تتفق مع عرف ولا قانون ولا أخلاق، حاربوه من خلال أتباعه، حيث قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا واستحيوا نساءهم.

هي وسيلة تدل على ما في قلوبهم من حقد وكيد وانتقام، ملأ تلك

القلوب الجامدة، فأخرج منها كل معاني العطف والبر والخير والرحمة والإنسانية.

لماذا يقتلون الأبناء ويستحيون النساء؟

يفعلون هذا ليقفوا في طريق الدعوة، ويوقفوا انتشارها بين الآخرين، حيث سيفكر هؤلاء الآخرون طويلاً قبل انضمامهم للدعوة، خوفاً على أبنائهم ونسائهم.

وهم يفعلون هذا ليضغطوا على المؤمنين ضغطاً مؤلماً، ومن النقطة التي تؤلمهم أكثر من غيرها، والتي يظنونها نقطة ضعف عندهم، وقد تقودهم إلى التخلي عن الدعوة والداعية. إنها نقطة الأسرة والعائلة، والأولاد والبنات. وهي نقطة ضعف حقاً، والضغط عليها مؤلم جداً، قد يفضي بأناس إلى التخلي عن الحق فعلاً.

لكن اتجاههم لمحاربة أناس أبرياء ـ هم الأولاد والنساء ـ يمثل ظلماً وعدواناً منهم، لأنهم يأخذون الأبرياء بشيء لم يفعلوه. كما يمثل حقداً وكيداً وقسوة، لأنهم يحاربون أطفالاً صغاراً ضعافاً لا طاقة لهم بالحرب، ولم يستعدوا لها.

ألم نقل إنها وسيلة خالية من كل معاني الرحمة والإنسانية، وإنها لا تتفق مع عرف أو حق أو مبدأ أو قانون؟ ولكن متى كان أصحاب الباطل يلتزمون بالقوانين والمبادىء في محاربة الحق وأهله؟

بقي أن نقول: إن وسيلة: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم. ليست خاصة بفرعون وقومه، ولكنها وسيلة دائمة مطَّردة، يستخدمها أصحاب الباطل دائماً في مواجهة أصحاب الحق. وكم وعى التاريخ، وسجل في ذاكرته ـ في القديم والحديث ـ من نماذج شديدة أليمة لهذه الوسيلة الشيطانية الحاقدة!.

لماذا يطلب فرعون السماح بقتل موسى؟

وجه فرعون كيده وحقده ضد موسى عليه السلام، وأراد قتله ليقتل بذلك دعوته، وطلب من قومه الإذن له بذلك: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ موسى وَلْيَدْعُ رَبَّه﴾.

والعجيب في طلب فرعون من قومه الإذن بقتل موسى! لقد كان يحكم فيهم كما يشاء، وما كان يجد بينهم مخالفين، لقد كانوا معه في آرائه، حتى عندما ادعى الألوهية والربوبية؟.

فما معنى أن يطلب الإذن منهم بقتل موسى؟ وهم لن يعارضوه لو فعل!.

لعله أراد من هذا الطلب أن يظهر بمظهر الحريص على مشاركة قومه، المستشير لهم.

ولعله أراد أن يشركهم معه في هذا الأمر الخطير، وأن يُشعرهم بأن موسى عدوهم مثل ما هو عدوه، وأنهم أصحاب قضية، فيتحمسون في معاداته!.

ولعله أراد أن يحمِّلهم نتيجة قتله، حتى لا يفكروا في مساءلة فرعون أو محاسبته!.

إن الطواغيت ـ أينما كانوا ـ يسلكون طريق فرعون في محاربة الحق وقتل قادته ورجاله، وهم يشركون معهم شعوبهم في تحمل وزر وإثم ودماء هؤلاء، فيعملون استبيانات، ويُعدُّون استفتاءات، ويُجْرون لقاءات ومقابلات، يخرجون منها بما يشاءون من قرارات.

توقُّح فرعون في قوله «وليدع ربه»:

يريد فرعون أن يقتل موسى، وهو لا يحسب حساباً لربه، ولا يخاف منه ولا يوقره، وقد ترجم عن هذا بقوله «وَلْيَدْعُ رَبَّه».

وهذه الكلمة الفاجرة تدل على تبجحه ووقاحته واستهتاره. إنه كافر برب موسى مستخِفٌّ به. لِيدْع موسى ربه فإن هذا لن يخيف فرعون، ولن يوقفه عن قتله.

إن عدم الخوف من اللّه، هو السبب في إقدام أي طاغية على محاربة دعاة الحق وإيذائهم وقتلهم، ولو كان هذا الطاغية مؤمناً باللّه، موقراً له، لما آذى أولياءه.

وهذه العبارة الفرعونية الفاجرة، يرددها الطغاة عندما يحاربون جنود اللّه، يقولها بعضهم بألسنتهم، ويتصرف بعضهم وفقها في أعمالهم وسلوكهم.

عندما آذى طغاةٌ دعاةً إلى اللّه، ووضعوهم في السجون، وصبوا عليهم أصناف التعذيب، توجه أحد الدعاة إلى اللّه، واستغاث به، وقال: «يا اللّه» فما كان من ذلك الجلاد الطاغية إلا أن قال: «لو جاء ربك لوضعتُه معك في الزنزانة!». وهو عندما قالها كان أفجر من فرعون وأوقح وأقسى!.

فرعون يزعم الدفاع عن الأمن والدين:

ما هي الأسباب التي سيقدمها فرعون إلى قومه؟ ويبرر بها قَتل موسى؟ إنها في قوله: «إِنّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دينَكُمْ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ في الْأَرْضِ الفَسادِ».

هما سببان: الأول: الحفاظ على الدين، فموسى عدو للدين، وفرعون حريص عليه.

الثاني: الحفاظ على الأمن، فموسى ضد الأمن، وفرعون هو حامي الأمن.

فرعون الكافر، الذي قال لقومه: «أنا ربكم الأعلى» وقال لهم: «ما علمتُ لكم من إله غيري» أصبح غيوراً على الدين، حارساً له من التغيير والتبديل، الذي يتهدده على يد موسى.

وفرعون المفسد بطغيانه وكفره، المخرب بتجبره وتكبره، أصبح داعية إصلاح وخير وأمن ورفاه.

وهذا التعليل الفرعوني، هو الذي يلجأ إليه كل طاغية في محاربة الحق وأهله. يقدم الطاغية نفسه للناس على أنه المؤمن المتدين، الحارس على الإيمان، الحريص على الفضائل، الغيور على الأخلاق، الراغب في التعمير والتقدم والأمن والازدهار. بينما يقدم هذا الطاغيةُ الدعاةَ إلى اللَّه على أنهم مفسدون مخربون، ضالون مضلون، أعداء اللَّه والأمة والوطن، وحلفاء الشيطان ورؤوس الفتنة، ودعاة الضلال، ولهذا يجب القضاء عليهم قبل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

قال سيد قطب عن تبرير فرعون لقتل موسى، واستخدام الطغاة له ضد الدعاة:

«فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني، عن موسى رسول اللَّه ـ عليه السلام ـ إني أخاف أن يبدل دينكم، أو أن يُظهِر في الأرض الفساد.

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادىء؟

إنه منطق واحد، يتكرر كلما الْتقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، على توالي الأزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة مكرورة، تُعرض بين الحين والحين»[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٣٠٨٧.

موسى عليه السلام يلجأ إلى ربه:

كيف واجه موسى كيد فرعون وحقده ومكره وعدوانه؟ «وَقالَ موسى: إِنِّي عُذْتُ بِرَبّي وَرَبِّكُمْ، مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّر، لا يُـؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِساب».

لقد لجأ موسى إلى ربه، وعاذَ بِه، وتوكل عليه، وفوَّض أمره إليه، لأنه يعلم أن اللَّه حسْبُه وكافيه وكافله، وأنه سيعيذه وينجده، ويخلصه من كيد فرعون وعدوانه.

وهذا الموقف الإيماني العظيم من موسى عليه السلام، يجب أن يكون مثالاً يُحتذى، من قِبل كل داعية، يواجَه بكيد وحقد الطغاة. إنه ليس له إلا اللَّه، ولا ينجيه إلا الالتجاء إليه واللَّوْذَ بِحِماه. وهذا هو صريح الإيمان وشرطه، فإن لم يفعل ذلك، ولجأ إلى البشر الضعاف المهازيل، فإن هذا يقدح في إيمانه، ويخدش عقيدته، ثم هو لن يجد عندهم حلاً ولا خلاصاً ولا نجاة.

كل داعية يردد بلسانه قولة موسى عليه السلام: «إن عذت بربـي وربكم» ويعيشها حقائق حياتية مُعاشة!

موسى عليه السلام يحلل نفوس الطغاة:

إن كلام موسى عليه السلام: «إِنّي عُذْتُ بِرَبّـي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُـؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِساب» يقدم لنا التعليل الصحيح والتفسير الصائب والتحليل السليم لمواقف الطغاة. ويحلل لنا نفسية كل طاغية، وسر طغيانه.

إن الطغيان له سببان، يدعوان صاحبه إلى الطغيان والبغي والعدوان.

أولهما: التكبر. فهو الذي يدفع هؤلاء إلى ارتكاب الجرائم والإفساد في الحياة، وهو الذي يمنعهم من التنازل عن المكاسب المحرمة التي حصَّلوها،

والمظاهر الفارغة التي يحيطون نفوسهم بها. إن التكبر هو المانع لهؤلاء عن الانقياد للحق والإذعان له واتباع دعاته.

إنه لا يرفض الحق إلا متكبر. ولا يحارب أهله إلا متكبر.

ثانيهما: الكفر بيوم الحساب. فالطاغية يظن أن حياته الدنيا هي كل شيء، ويعتقد أن قوته باقية وسلطانه دائم. ولو آمن هذا بيوم القيامة، وخاف الحساب في يوم الحساب، لأقلع عن بغيه وطغيانه.

سبب الجرائم والانحرافات هو الكفر بيوم الحساب.

وصمام الأمان للإنسان وأساس إصلاح الحياة هو الإيمان بيوم الحساب، هو الكفيل بردْع الطاغية عن طغيانه. وإذعانه للحق واستسلامه له.

ظهور الرجل المؤمن في الوقت المناسب:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلون رَجُلاً أَنْ يَقولَ رَبِّـيَ اللَّه؟﴾.

كان هذا الرجل يكتم إيمانه، ثم اضطر إلى إظهار إيمانه، ويبدو أن الذي دفعه إلى إظهار إيمانه هو قول فرعون: «ذَروني أَقْتُلْ موسى وَلْيَدْعُ رَبَّه» حيث اعتبر هذا الكلام تهديداً مباشراً لحياة موسى عليه السلام. وموسى هو قائده، إن حياة قائد الدعوة في خطر، مما يجعل الدعوة نفسها في خطر، فهل يبقى كاتماً لإيمانه؟ وماذا ينفعه إيمانه الذي يكتمه لو قُضي على قائد الدعوة، ولو قُضي على الدعوة نفسها؟

إذا جاز له كتمُ إيمانه في السابق فلأنَّ الظرف كان يسمح بذلك، أما الآن فلا يجوز له ذلك.

لقد كان هذا الرجل المؤمن بين خيارين أحلاهما مرّ.

فأما أن يبقى كاتماً لإيمانه، مـؤْثراً السلامة والعافية، ولو قضِي على الدعوة وقائدها.

وإما أن يُظهِر إيمانه، ويتقدم للدفاع عن دعوته وقائده، ولو كَشَف أمره، وعرّض نفسه للأذى والخطر.

لقد اختار الخيار الثاني، وكان رجلاً عظيماً في إظهار إيمانه، كما كان من قبل رجلاً عظيماً في كتم إيمانه!.

ولعل هذا الموقف الإيمانيَّ لدعوي من هذا الرجل المؤمن، يقدم لنا مَعْلَماً من معالم الدعوة إلى اللّه، ودرساً دعوياً ضرورياً للدعاة، وتعليماً لكل داعية: متى يكتم دعوته ويُسر بها، ومتى يُظهر دعوته ويجهر بها!.

طيب وجـيد أن يكتم بعض الدعاة دعوتهم أحياناً، وأن يُسِروا بها، لكن قد تجدُّ ظروف جديدة، تحتم على هؤلاء تحديد مواقفهم، وتدعوهم إلى إظهار دعوتهم والجهر بإيمانهم. فإذا ما آثر أحدهم الإسرار والكتمان في هذه الظروف، فقد يكون هذا نوعاً من الجبن أو التهرب،أو إيثار السلامة والعافية، أو الركون إلى الدنيا، أو تقديم المصلحة الشخصية على مصلحة الدعوة.

إن مصلحة الدعوة مقدمة على مصلحة الدعاة الشخصية، ومنافعهم الذاتية. وإذا كان كتمان الدعوة والإسرار بها في بعض الظروف حنكة وفطنة وبُعد نظر، فإن الجهر بالدعوة وإظهار الإيمان في أحيان أخرى يكون أكثر حنكة وفطنة ورجولة وثباتاً وإقداماً.

فليعرف كل داعية متى يكتم دعوته، ومتى يُظهرها، ولينسق بين الموقفين بتناسق وموضوعية ورجولة واتزان. وليكن دافعه إلى الكتمـان أو الإعلان مصلحة الدعوة وقوتها وتقدمها وانتصارها.

المشهد الثاني:

دفاع المؤمن عن موسى ونجاحه في مخاطبة الجماهير:

قال تعالى: ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانَه:

أَتَقْتُلونَ رَجُلاً أَنْ يَقولَ رَبِّيَ اللَّه؟ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُم.

وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُه وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُم.

إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابَ.

يا قَوْمِ: لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظاهِرينَ في الْأَرْض. فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّه إِنْ جاءَنا؟.

قالَ فِرْعَوْن: ما أُريكُمْ إِلّا ما أَرى، وَما أَهْديكُمْ إِلّا سَبيلَ الرَّشاد.

وَقالَ الذي آمن: يا قَوْمِ إِنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزاب. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نوحٍ وعَادٍ وَثَمودَ وَالّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ. وَمَا اللَّهُ يُريدُ ظُلْماً لِلْعباد.

وَيا قَوْمِ إِنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّناد. يَوْمَ تُوَلّونَ مُدْبِرينَ، ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِم. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادِ.

وَلَقَدْ جاءَكُمْ يوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالبَيّنات، فَما زِلْتُمْ في شَكٍّ مِمّا جاءَكُمْ بِهِ. حَتّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ: لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسولاً.

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتاب. الّذينَ يُجادِلون في آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الذينَ آمَنوا.

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّار﴾. [الآيات: ٢٨ــ ٣٥].

تقدم الرجل المؤمن في الوقت المناسب، وأعلن إيمانه، وواجه فرعون وطغيانه، ودافع عن موسى دفاعاً ناجحاً، وعَرض على الجماهير دعوته عرضاً موفقاً، ونجح في مخاطبتهم نجاحاً باهراً، وسلك في ذلك أساليب رائعة.

لقد حدد أسلوبه وعباراته تحديداً مبرمجاً. وانتقل مع الموجودين بدعوته من مرحلة إلى مرحلة، ومن موقع إلى موقع، وكان مدرِكاً لما يقول مخطِّطاً ومبرمِجاً له.

وهو يقدم للدعاة درساً دعوياً بالغاً في طريقة عرض الدعوة وأساليب التأثير في السامعين. يجب أن يقتدي به كل داعية يتحرك بدعوته، ويبغي النجاح في أسلوبه.

تلطف هذا الرجل المؤمن في دعوته، ورتب خطواته، وحدد كلامه، وانتقل من خطوة إلى خطوة، ومن مرحلة إلى مرحلة، وبنى المراحل والخطوات والمواقف على بعضها. وقام بجولة دعوية موفقة.

ظهر على المسرح ـ كما يبدو من العرض القرآني ـ وقد كان فرعون هو الآمر الناهي المتآمر على موسى عليه السلام، كان فرعون هو المتكلم الوحيد، والكل له مستمعون. هو يزهو وينتفش وينتفخ ويهدد ويتوعد ويتوقح.

برز له الرجل المؤمن، ووقف أمامه، وصار يخاطب الجماهير خطاباً مؤثراً، وبدأ يكسبهم إلى جانبه، وفي كل موقف منه وحركة، يُحرج فرعون ويفحمه ويضيق عليه، ويُظهره أمام الآخرين في صورة الباغي المتجبر المتكبر النزق، الذي لا يملك حجة ولا برهاناً ولا منطقاً ولا إقناعاً.

وصار يتحكم في المسرح وما يعرَض فيه، ويخفت صوت فرعون، ويتلاشى وجوده. وما أن انتهى من بيانه وإعلانه وخطابه حتى خَلا المسرح من فرعون، وانتصب الرجل المؤمن عليه وحده داعياً موجهاً ناصحاً، والكل له سامعون، ولبيانه متأثرون.

ثم غادر المسرح بعد أن قام بواجبه، وعرَّفهم به وبدعوته. غادر المسرح متوكلاً على ربه، مفوضاً أمره إليه. ويُسدَل الستار.

لئن نجح الرجل المؤمن أولاً في كتم إيمانه، فقد كان نجاحه أعظم بعد ذلك في إظهار إيمانه. ولئن كان فطناً ذكياً في كتم إيمانه، فقد كان أكثر فطنة وذكاء في إظهار إيمانه، ولئن كان رجلاً في كتم إيمانه، فقد كان أقوى رجولة من بعد في إظهار إيمانه!

لقطات المشهد الثاني:

لقد ختَم المشهد الأول بلقطة إيمانية رائعة. لجأ فيها موسى عليه السلام إلى ربه، وفوض أمره إليه، واعتمد عليه في مواجهة فرعون وكيده ومكره.

وبدأ المشهد الثاني بلقطة إيمانية رائعة، لمؤمن آل فرعون، يدافع فيها عن موسى عليه السلام، وينكر على فرعون وقومه رغبتهم في قتل موسى عليه السلام.

لكن الحاكي يقدم الرجل المؤمن الذي سيصعد إلى المسرح، ويعرِّف الموجودين عليه، حيث يصفه بقوله: ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، يَكْتُمُ إِيمانَه﴾.

ويمكن أن نلاحظ في المشهد الثاني هذه اللقطات:

اللقطة الأولى: ظهور الرجل المؤمن، وإنكاره على قومه رغبتهم في قتل موسى عليه السلام، وتخويفهم من الإقدام على هذه الجريمة.

اللقطة الثانية: ظهور فرعون، ومخاطبة قومه بأن الرأي رأيه، والطريق طريقه، وما عليهم إلا السير معه.

اللقطة الثالثة: ظهور الرجل المؤمن بعده، ووقفته المطولة يخاطب الجماهير، يذكِّرهم بالماضي ويبصرهم بيوم القيامة، يستخدم في هذا الخطاب شتى المؤثرات.

ونلاحظ في هذه اللقطات الثلاث، أن وقوف الرجل المؤمن أمام

الجماهير كان طويلاً، وعرْضَه وبيانه كان شاملاً، بينما كانت «فقرة» فرعون على المسرح قصيرة، وعبارته فيها قليلة، ويبدو فيها تكبره وطغيانه وجبروته، واستخفافه بالآخرين.

نظرة في البيان الدعوي للرجل المؤمن:

استخدم الرجل المؤمن في بيانه الدعوي مؤثرات مختلفة، ووظَّف فيه موضوعات عدة، وقدم فيه حقائق ومبادىء، وكان متمتعاً بثقافة تاريخية ونفسية وبيانية ودعوية وسننية...

وسوف ننظر في بيانه نظرات سريعة متعجلة:

١ ــ في قوله: «أَتَقْتلونَ رَجُلاً»؟

تجاهَل فرعون المنتفش على المسرح، والداعي إلى قتل موسى بقوله «ذروني أقتل موسى وليدع ربه» وتوجه بكلامه للجماهير ــ التي طلب منها فرعون الأذن ــ تجاهل فرعون لأنه ليس مقصوداً بكلامه، لأنه يعلم أنه لن يستجيب له، فلماذا يضيِّع وقته معه؟ فلْيتوجه بكلامه لمن يُرْجى منه الاستجابة.

أتقتلون رجلاً: كيف يقول لهم «أتقتلون» والذي سيقتل فرعون وليس هم؟ إن فرعون يطلب منهم الأذن بالقتل، فإن وافقوه على ذلك، فهم شركاء معه في الجريمة، وهم قتلة مثله. ويريد الرجل المؤمن أن يخوِّفهم مما هم مقدمون عليه، وأن يحمِّلهم مسؤولية قتل موسى، إن وافقوا فرعون على ذلك، لأنه سيقتله باسمهم وبموافقتهم! إن الموافق على القتل قاتل، وإن لم يشترك في عملية القتل عملياً، وإن الساكت عن نصرة المظلوم القتيل قاتل كذلك، لأنه أعان بسكوته القاتل على جريمته.

٢ ـ أتقتلون رجلاً: بهذا التنكير، ليدل على حياديته في الموضوع أولاً، ولرغبتـه في عدم الكشف عن كل أوراقه الإيمانية أمامهم دفعة واحدة، ليضمن إقناعهم. لم يقل: أتقتلون موسى رسول اللّه وأنا على دينه؟ وإنما «أتقتلون رجلاً»؟

٣ ـ أن يقول ربـي اللّه! ما هي الجريمة التي استحق بها القتل؟ هل قوله «رَبِّـيَ اللّه» يعتبر جريمة؟ ثم هو يقدمه للناس ليتعرفوا عليه وعلى دعوته بعبارة موجزة. إنه يقول: ربـي اللّه.

ثم هو يلمزهم بطريقة خفية ليزحزحهم عما هم فيه. إن موسى يقول: ربـي اللّه. وهم يقولون ربنا فرعون. وشتان بين القولين؟

٤ ـ ﴿وَقَدْ جاءَكُمْ بِالبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إنه يملك الأدلة على دعوته، وإنه قد جاءكم أنتم بالبينات، من ربكم. فربكم هو اللّه، وليس فرعون كما تزعمون.

٥ ـ ﴿إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُه، وَإِنْ يَكُ صادِقـاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ﴾.

هذا هو الأسلوب الدعوي الحكيم، إنه يريد أن يوجِد عند المدعوين اهتماماً بالدعوة وصاحبها، ويدعوهم إلى النظر إلى ذلـك بحياديـة وموضوعية، وأن يفكروا ويُعملوا عقولهم.

إن موسى إما كاذب في دعوته وإما صادق! هل هناك احتمال ثالث؟ ومن باب الموضوعية والحيادية قدم احتمال الكذب. فإن كان كاذباً فعليه كذبه، ولن يؤاخذهم اللّه هم بسببه! لكن ألا يمكن أن يكون صادقاً في دعواه؟ ـ ولو من باب الاحتمال فقط ـ الجواب: نعم. فما موقفهم فيما لو صح هذا الافتراض ورجَح هذا الاحتمال؟ ﴿وإنْ يكُ صادقاًيصبكم بعض الذي يعدكم﴾.

لقد رجَّح لهم احتمال صدقه عندما قال لهم: ﴿إن اللَّه لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ فبما أن اللَّه هدى موسى وأيده بالمعجزات، فهو صادق وليس كاذباً.

٦ ـ ﴿يا قَوْمِ لَكُمُ الملّكُ اليَوْمَ ظاهِرينَ في الأَرْض. فَمنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إنْ جاءَنا؟﴾.

استخدام من الداعية الحكيم للمؤثر الدنيوي الاقتصادي الحضاري، وهو يهم الجميع، لأنهم لا يريدون أن يفقدوا ملكهم وسلطانهم، فإذا آذوا موسى فسينتقم اللَّه منهم، ويوقع بأسه وعذابه بهم، من ينصرهم عندها؟ فرعون؟

ولاحِظْ تحببه إلى قومه وتقربه منهم، واعتبار نفسه واحداً منهم، يهمه أمرهم، ويحرص على مصلحتهم. ويبدو هذا من قوله «يا قوم»، ومن جعْله نفسه معهم «من ينصرنا من بأس اللَّه إن جاءَنا».

٧ ـ ﴿يا قَوْمِ إنّي أَخافُ عَليْكُم مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزاب﴾.

استخدام منه للمؤثر التاريخي الذي يحقق وعد اللَّه، ويصدق تحذيره لهم. وكأنه يقول لهم: التفتوا للتاريخ الماضي وادرسوه، وانظروا كيف دمر اللَّه الأحزاب من قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الكفار. لقد كفروا باللَّه وآذوا جنوده، فأوقع اللَّه بهم بأسه، فدمرهم وأهلكهم، ولم ينصرهم أحد. انظروا في التاريخ لتلاحظوا صدق كلامي لكم. يا قوم.

٨ ـ ﴿يَا قَوْمِ إنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التّناد. يَوْمَ تُولّوْنَ مُدْبِرينَ، ما لكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِم﴾.

إنه يخاف عليهم ما ينتظرهم في المستقبل يوم القيامة، يوم التناد، يوم ينادي الناس بعضهم على بعض، فلا يستجيب بعضهم لبعض، ويولّون مدبرين.

ما لهم من اللّٰه من عاصم في الدنيا، وما لهم من اللّٰه من عاصم يوم القيامة. فكيف يؤذون رسول اللّٰه موسى عليه السلام؟

٩ ــ ﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ يوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالبَيِّنات، فَما زِلْتُمْ في شَكٍّ مِمّا جاءَكُمْ بِه، حَتّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رسولاً﴾.

وهي لفتة تاريخية عقيدية. حيث يذكِّرهم بيوسف عليه السلام، وموقفهم منه، وشكهم في رسالته، وفرحهم بموته، وظنهم انقطاع الرسالة بعده. إنهم يعلمون هذا الموقف لأجدادهم، وهو فقط يذكِّرهم به.

أما المؤثر الإيماني، فهو استخدامه رسالة يوسف عليه السلام في إثبات رسالة موسى عليه السلام،

إن موسى مرتبط بيوسف ــ عليهما السلام ــ من حيث النسب ومن حيث الرسالة.

أما من حيث النسب فهذا متفق عليه.

وأما من حيث الرسالة فطالما ثبت أن يوسف رسول اللّٰه، فيثبت أن موسى رسول اللّٰه، واللّٰه الذي أرسل يوسف من قبل بالبينات، هو الذي أرسل موسى الآن بالبينات.

ثم يهدف إلى شيء آخر ﴿فَما زِلْتُمْ في شَكٍّ مِمّا جاءَكُمْ بِهِ﴾ إنه يذكِّرهم بموقفهم من يوسف عليه السلام الذي يقوم على الشك والجحود، ويدعوهم إلى عدم تكرار الموقف مع موسى عليه السلام. فلماذا نفس الموقف يكررونه؟ ألا يتعظون من الماضي؟

إن المؤمن الداعية يستخدم في هذا المشهد عدة مؤثرات ودلالات وإيحاءات: نفسية وتاريخية وعقيدية واقتصادية واجتماعية وحضارية.

إنه يقرن بين أسلوب الترغيب وأسلوب الترهيب، وبين أسلوب التذكير

وأسلوب التخويف. ويوظف ثقافته الشاملة، وبيانه المؤثِّر، وموضوعيته الملحوظة، وعقليته المتفتحة في الوصول إلى قلوب السامعين، وقد فعل!.

المشهد الثالث:

فرعون يُشْغِل الجماهير:

قال تعالى: ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ: يا هامانَ ابْنِ لي صَرْحاً، لَعَلّي أَبْلُغُ الْأَسْباب، أَسْبابَ السَّموات، فَأَطَّلِعَ إِلى إِلٰهِ موسى، وَإِنّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً.

وَكذٰلِكَ زُيِّنَ لِفَرْعَوْنَ سوءُ عَمَلِه، وَصُدَّ عَنِ السَّبيل، وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلّا في تَباب﴾ [آيتي: ٣٦ ـ ٣٧].

نجح مؤمن آل فرعون ـ كما لاحظْنا في المشهد الثاني ـ في الوصول إلى قلوب الناس والتأثير فيهم، ولمس قلوبهم لمسات لطيفة مؤثرة، وأقصى فرعونَ الطاغيَ عن الحضور المؤثر، والبيان الناجح، بحيث كان فرعون لا يظهر عليهم إلا بتكبر وعجرفة واستعلاء.

ويبدو أن فرعون لاحظ نجاح المؤمن في الوصول إلى الناس والتأثير فيهم، وخشي فرعون أن يفلت الأمر من يديه، وأن يتحول الناس عنه إلى الرجل المؤمن ودعوته.

فاضطر فرعون إلى التراجع عن طلبه الأول بالسماح له بقتل موسى، وقام بحركة خبيثة ماكرة، وقدم للناس مسرحية عابثة بهدف إلهائهم وإِشغالهم.

طلب من وزيره «هامان» أن يبني له صرحاً عالياً، وبناءً شامخاً، يصل إلى عنان السماء، وذلك بهدف صعوده إلى السموات ليبحث فيها عن إله موسى، وهو لن يجده، ولكنه يريد أن يكشف كذبه أمام الجماهير، ويُري حقيقته لذلك الرجل المؤمن الذي يدافع عنه!

هامان وصرحه:

ذكر القرآن اسم «هامان» ست مرات، وفيها كلها كان مقترناً بفرعون. مما يدل على أنه كان يعمل عنده، وكان مقرَّباً منه، مستشاراً له، منفذاً لتعاليمه وأوامره.

ولا نعرف عن هامان أكثر من هذا، ولا نَسْتفت في أمره غير القرآن والحديث الصريح.

ففي قصة مؤمن آل فرعون نجد أن فرعون قد طلب من وزيره «هامان» أن يبني له صرحاً. والصرح هو البنيان المرتفع العالي كالبرج.

وقد أشارت سورة القصص إلى هذا الصرح: ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ: يا أَيُّها المَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْري. فَأَوْقِدْ لي يا هامانُ عَلى الطّين، فَاجْعَلْ لي صَرْحاً، لَعَلّي أَطَّلِعَ إِلى إِلهِ موسى، وَإِنّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذِبين﴾[1].

ونفهم من آية سورة القصص أن هذا الصرح بُني من الطين المحروق ــ وهو «اللَّبِن» أو «الطوب» ــ وأن فرعون أوهم الناس أنه يريد أن يصعد فيه، ليبلغ أسباب السموات، وأسباب السموات هي طرقها وأبوابها ومسالكها، ليبحث فيها عن إله موسى!

أهداف فرعون من بناء الصرح:

قلنا إن هذه الحركة المسرحية من فرعون، أراد بها إشغال الجماهير وإلهاءهم، فكيف؟ وما هي أهدافه منها؟

إنه بهذه الحركة يحقق عدة أهداف:

١ ــ إنه بها يُنسي الناس القضية الأساسية، وهي الدعوة الناجحة التي

---

(١) سورة القصص: آية ٣٨.

عرضها الرجل المؤمن، وذلك بإشغالهم بأمر ثانوي وهو بناء الصرح، ومتابعته.

٢ ـ كما يريد أن يُنسيهم الدعوة والتفكير فيها عن طريق عامل الزمن، وبناء الصرح فيه تأخير وتسويف وتطويل وإِشْغال. إن التطويل والتـأخير مقصود من البناء، بل إن الكلمات التي عرضت الأمر تساعد على تطويل المشهد ﴿فَأَوْقِدْ لي يا هامَانُ عَلى الطِّين، فاجْعَلْ لي صَرْحاً﴾.

التطويل في تحويل التراب إلى طين، ثم الإِيقاد على الطين، وإشعال النار تحته، ثم حرق الطين ليكون آجُرّاً، ثم استخدام هذا الآجُر المحروق في بناء الصرح. وبعد الانتهاء من عملية البناء المطوَّلة يصعد فيه فرعون بتمهل وبطء، وهناك يبلغ أسباب السموات وطرقها، ويبحث فيها بحثاً متأنياً عن إله موسى. ثم يعود إلى الجماهير من رحلته الطويلة المتأنية ليخبرها بما وجده هناك!

كل هذا التطويل والبطء، والجماهير تنتظر نتيجة هذه الرحلة الفرعونية. وسيمر عليهم الزمن الطويل وهم ينتظرون، بحيث ينسون حجج الرجل المؤمن التي سمعوها.

٣ ـ ثم هو يريد من بناء الصرح أن تفقد حجة الرجل المؤمن عند الجماهير قوتَها وحياتها وحيويتها. إنهم الآن يفكرون بها لأنها حية ساخنة، لها دفْعُها وحيويتها وسخونتها. أما إذا انشغلوا عنها ببناء الصرح، فستتحول من قضية رئيسية عند الجماهير لها المقام الأول، إلى قضية ثانوية هامشية فرعية، عندها سوف تبرد في تصورهم وتفكيرهم، لتتحول إلى قضية نظرية جامدة باردة.

٤ ـ يريد أن يَظهر أمام الناس بمظهر الموضوعية والمنهجية، والبحث الجاد، وأنه لم يكذِّب موسى إلا لأنه لم يجد إلهه الذي يبحث عنه. أظهر

أنه جاد في بناء الصرح، وجاد في البحث عن إله موسى. وما هو في العملية كلها إلا هازل ساخر عابث!

وعندما نتصور ما سينفَق في بناء الصرح من أموال، وما يبذَل له من طاقات وقدرات، وما تضيع فيه من أوقات، وهذه هي أهداف بنائه، نقف على صورة من استخفاف الطغاة بعقول الجماهير، وإشغالِهم لها بالتوافه لتنس الحقائق، وتضييعِهم الأموال والأوقات والجهود والطاقات، فيما لا يقدم للناس خيراً ولا نفعاً. فكم وكم ينفقون من هذه الضروريات في مسرحيات هازلة عابثة. وكم يذهب من هذه المقومات إرضاءً لشهوات الطغاة!.

تراجع فرعون أمام منطق المؤمن:

تدلنا الآيات على أن فرعون قد تراجع خطوات أمام منطق الرجل المؤمن، وحسن بيانه، وتأثيره فيمن خاطبهم. ولم يكن تراجع فرعون اقتناعاً منه حقيقياً بحجج الرجل ولا قبولاً لدعوته، وإنما كان تراجعه حتى لا يكسب الرجل المؤمن الجماهير، ولا ينتصر على فرعون أمامهم.

وقد تمثل تراجعه في الأمور التالية:

١ ــ في السابق قال: «ذَروني أَقْتُلْ موسى، وَلْيَدْعُ رَبَّه»، والآن يتراجع عن هذا الطلب، ويطلب بناء الصرح بحجة البحث عن إله موسى.

٢ ــ في السابق طلب من قومه الأذن له بقتل موسى، والآن يطلب من قومه الحيادية والانتظار، ليطلعهم على نتيجة رحلته في السموات.

٣ ــ في السابق جزم بأن موسى ساحر كذاب، والآن تراجع عن الجزم إلى الظن والحدس: ﴿وَإِنّي لَأظُنُّهُ كاذِباً﴾.

وفرعون الظالم الطاغية لم يتراجع إلا أمام قوة الرجل المؤمن، القوي

بإيمانه، المعتز بربه. كما يدل تراجعه على هزيمته الفكرية ـ وهو صاحب الأمر والسلطان ـ أمام الرجل المؤمن ـ المجرد من مظاهر القوة المادية ـ

وهذه هي طبيعة الباطل المنتفش الغاشم، إذا وقف أمام الحق الواضح القوي المتين، فما من لقاء أو مواجهة أو معركة فكرية بين الحق والباطل، إلا ويخرج الباطل منها مهزوماً ضعيفاً، ويخرج الحق منتصراً ثابتاً، فيضطر الباطل المهزوم فكرياً إلى استخدام الوسائل الحيوانية: وسائل الجلد والسوط والإيذاء والاضطهاد والتعذيب والقتل.

وسلوا التاريخ القديم والوسيط والمعاصر، يقدم لكم الجواب على مصداقية هذه الحقيقة.

المشهد الرابع:

الرجل المؤمن يدعو الناس إلى اتباعه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الذي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعونِ أَهْدِكُمْ سَبيلَ الرّشاد. يا قَوْمِ إنَّما هٰذِهِ الحَياةَ الدُّنْيا مَتاع، وَإِنَّ الآخِرَةَ هي دارُ القَرار. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يَجْزى إلاّ مِثْلَها. وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِن، فَأولٰئِكَ يَدْخلونَ الجَنَّةَ، يُرْزَقون فيها بِغَيْرِ حِساب.

وَيا قَوْمِ ما لي أَدْعوكُمْ إلى النَّجاةِ، وَتَدْعونَني إلى النّار. تَدْعونَني لِأَكْفُرَ بِاللَّه، وَأُشْرِكَ بِه ما لَيْسَ لي بِهِ عِلْم. وَأَنا أَدْعوكُمْ إلى العَزيز الغَفَّار. لا جَرَمَ أَنَّ ما تَدْعونَني إليه لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ في الدُّنْيا ولا في الآخِرَة، وَأَنَّ مَرَدَّنا إلى اللَّه. وَأَنَّ المُسْرِفين هُمْ أَصْحابُ النّار﴾. [الأيات من ٣٨ ـ ٤٣].

الرجل المؤمن ذكي فطن. لقد أدرك هدف فرعون من بناء الصرح. فرد على ذلك المكر الفرعوني الخبيث، بحركة علمية دعوية ومدروسة، حيث طلب من الناس الذين سمعوا له وسمعوا لفرعون طلباً إيمانياً محدداً. طلب منهم اتباعه.

لقد تكلم معهم نظرياً بما فيه الكفاية، ولقد بذل جهده في الإقناع والتأثير. والآن بقي عليه أن يحقق الغاية من ذلك الكلام والجدل والبيان. إنها الغاية العملية التي تتمثل في اتباعهم له، واختيارهم لدعوته.

وشرح لهم دعوته بإيجاز، وعرض عليهم أهم حقائقها وأسسها، ليقيم عليهم الحجة، ولا يُبقي لهم عذراً في الجهل بها، ﴿وَقالَ الذي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعونِ أَهْدِكُمْ سَبيلَ الرَّشاد﴾.

لكنه متى طلب منهم اتِّباعه؟ لم يطلب هذا في أول لقاء بينه وبينهم، ولو فعلها لصُدموا بكلامه، وفوجئوا بدعوته، وعندها يتخلون عنه.

طلب منهم اتِّباعه بعد حلقات مسلسلة مدروسة بعناية، وبعد استخدامه عدة مؤثرات للتأثير فيهم، وبعد ما وصل إلى عقولهم وقلوبهم.

إن دعوته الناس إلى اتباعه، تعتبر ـ في جانب آخر ـ تحدياً منه لفرعون، ورداً على دعوة الأخير الناس إليه.

قال لهم فرعون من قبل: «ما أُريكُمْ إلاّ ما أَرى، وما أَهْدِيكُمْ إلاّ سَبِيلَ الرَّشاد».

والآن يقول لهم الرجل المؤمن: «يا قَوْمِ اتَّبِعونِ أَهْدِكُمْ سَبيلَ الرَّشاد».

فكلامه ودعوته دليل على جرأته وشجاعته وإقدامه، وإلا فكيف يرد على فرعون دعوته، أو يخالفه في اختياره؟ ويتحداه في موقفه؟ ويفارقه في طريقه؟

وإذا وقفنا نقارن بين الجملتين، بين كلمة فرعون للناس، وبين كلمته هو لهم، فإننا سنجد الفرق بينهما، هو الفرق بين تواضعه وتكبر فرعون، بين إعطائه هو الجماهير مجالها في الحرية والاختيار، وبين سلب فرعون الجماهير تلك الحرية. الفرق بين تقربه هو منهم وتحببه إليهم في قوله لهم:

«يا قوم» وبين استعلاء فرعون عليهم وإهانته لهم وإلغائه لعقولهم في قوله «ما أريكم إلا ما أرى».

فرعون يسلب منهم التفكير والبحث والاهتداء، ويتولى هو التفكير عنهم والبحث بدلهم، وهم ببغاوات يرددون كلامه، ويلتزمون برأيه.

والمؤمن يمنحهم حرية البحث والإقناع والتفكير والاختيار، ويجعل منهم شخصية ذاتية يقدرون بها على الإتباع الهادي البصير ﴿يا قوم اتبعون أهديكم سبيل الرشاد﴾.

وأطال الكلام معهم قليلاً، وقدم لهم خلاصة لدينه ودعوته، ليكونوا على بينة من الأمر.

ونلاحظ أنه في ذلك التعريف، قد ركز على الإيمان أولاً، وعلى موضوع الدنيا والآخرة، وعلى منزلة الدنيا بالقياس إلى الآخرة بحيث ربط قلوبهم بالآخرة، وجعل أنظارهم تتجه نحو الآخرة.

الداعية يقارن بين دعوتين:

هناك دعوتان موجهتان إلى الناس المستمعين.

دعوة فرعون الذي قال لهم: «ما أُريكُمْ إلّا ما أَرى، وَمَا أَهْديكُمْ إلَّا سَبيلَ الرَّشاد».

ودعوة الرجل المؤمن الذي قال لهم «يا قَوْمِ أَهْدِيكُمْ سَبيلَ الرَّشاد».

وهاتان الدعوتان متناقضتان. دعوة إلى النار ودعوة إلى الجنة. وقد يقع الناس في حيرة، ولا يعرفون الاختيار.

وحتى يوضح الرجل المؤمن لقومه الطريقة، ويزيل ما قد يكون فيها من لبس وغموض، وحتى يساعدهم على حسن الاختيار، وقف يقارن لهم بين الدعوتين. بين دعوته وبين دعوة فرعون:

«وَيا قَوْمِ ما لي أَدْعوكُمْ إلى النَّجاةِ وتَدْعونَني إلى النّار؟ تَدْعونَني لأَكْفُرَ باللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لي بِهِ عِلْم، وَأَنا أَدْعوكُمْ إلى العَزيزِ الغَفّار. لا جَرَمَ أَنَّ ما تَدْعونَني إِليه لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ في الدُّنْيا ولا في الآخرة، وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلى اللّه، وأَنَّ المُسْرِفين هُمْ أَصْحابُ النَّار﴾.

وعندما ننظر في مقارنته بين الدعوتين، فسنلاحظ فيها ما يلي:

١ ـ هما دعوتان لا ثالث لهما: دعوة الحق ودعوة الباطل. دعوة إلى الإيمان باللّـه، ودعوة إلى الشرك باللّه، دعوة إلى طاعة اللّه، ودعوة إلى معصية اللّه.

٢ ـ وينتج عن الاستجابة للدعوتين نتيجتها الملزمة. فمن استجاب لدعوة الحق، وآمن باللّه وأطاعه، نال الجنة وحقق الخير وكتبت له النجاة. ومن استجاب لدعوة الباطل وكفر باللّه وعصاه، خسر وهلك، وكان من أهل النار.

وقد أبرز المؤمن الداعية نتيجة الدعوتين، وما يترتب على الاستجابة عليهما فقال: ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؟

٣ ـ عرَّف المؤمن الداعية كلاً من الدعوتين. بذكر أبرز ما يميز الواحدة عن الأخرى: «تدعونني لأكفر باللّه وأشرك به ما ليس لي به علم». «وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار».

٤ ـ قوله لهم «يا قوم»: رغبة منه في لمس قلوبهم والتأثير فيهم، فهو ما زال يتقرب إليهم ويتحبب إليهم، ليشعرهم بأنه منهم وهم منه، فهم قومه وهو واحد منهم.

٥ ـ في قوله لهم «وتدعونني إلى النار» لفتة دعوية لطيفة: من هو الذي دعاه إلى النار؟ إنه فرعون وليس قومه! فلماذا نسب الدعوة إلى النار إليهم، مع أنهم لم يدعوه إليها؟

لقد سبق أن أشركهم في فعل فرعون في قوله لهم: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي اللَّه». وهنا أشركهم في دعوة فرعون إلى النار. لأنهم إن استجابوا لدعوة فرعون إلى النار فهم شركاء له فيها، لأنهم لم ينكروا عليه دعوته، ولم يقفوا في وجهه، فهم شركاء في توجيه الدعوة إلى النار، وفي الإعلان عنها والدعاية لها، وفي عاقبتها ونتيجتها الوخيمة يوم القيامة.

وكأن الرجل المؤمن يريد من نسبة الدعوة إليهم أن يدعوهم إلى عدم تلبية دعوة فرعون أولاً، وإلى الإنكار عليه والوقوف في وجهه بعد ذلك، ثم اتباع الرجل المؤمن في دعوته لهم إلى النجاة.

٦ ـ ذكر اسمين من أسماء اللَّه، وهو يعرِّفهم بدعوة اللَّه، ويذكر لهم نتيجتها: «وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار».

واختيار هذين الاسمين هنا مقصود، وهو الأنسب للسياق.

إن اللَّه عزيز قوي، وإنه يمنح من يؤمن به ويستجيب لدعوته القوة والعزة، وبهذا يجاهد الباطل، ويواجه الطغيان.

والعزة أنسب صفة في مواجهة فرعون وباطله وطغيانه وجبروته.

أما الغفار فلأن اللَّه يغفر لمن يستجيب له، يغفر له ماضيه، وما ارتكب فيه من كفر ومعصية، يتوب عليه ليبدأ بعد إيمانه حياة إيمانية جديدة.

إنه ترغيب للقوم بالإيمان باللَّه. إنهم عندما يؤمنون باللَّه العزيز الغفار، فسيكونون أعزة كراماً، وسوف يحظون بالمنزلة العالية عند اللَّه، ويغفر لهم ويتوب عليهم.

٧ ـ في قول الرجل المؤمن: «لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة» تجريد لفرعون من كل معاني القوة والفاعلية

والتأثير، وبيان أنه لا يملك من هذه المقومات شيئاً: لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وإن الإنسان ليعجب من هذا الأمر رجل مؤمن مجرد من كل ألوان القوة المادية المشاهَدة، يقف أمام أعتى وأطغى وأظلم طاغية «فرعون»، فرعون الذي يملك ما يملك من ألوان ومظاهر القوة المادية بما فيها من جاه وسلطان.

يقف أمامه برجولة وإيمان، ويتحداه بثبات واستعلاء. فلا ترهبه تلك المظاهر والقوى المادية!

ثم ينتقل إلى خطوة أخرى أعجب. إذ يجرد فرعون من مقومات القوة والتأثير!

لقد نظر الرجل المؤمن إلى فرعون وسلطانه ودعوته بالنظار الإيماني الصادق، فوجد فرعون مجرداً من القوة والتأثير، ووجده ضعيفاً لا يملك دعوة في الدنيا ولا في الآخرة.

لم يُخدع الرجل المؤمن بالمظاهر المادية التي أحاطت بفرعون، وإنما أنفذ بصره ـ بمنظاره الإيماني الأصيل ـ إلى حقائق الوجود والحياة والخير والحق، فوجد فرعون مجرداً من هذه الحقائق.

وهكذا كل ظالم طاغية، إنه لا يملك من حقائق الأمور شيئاً، وإن ما حوله من مظاهر القوة، ما هي إلا «هالات» زائفة، وألوان خادعة، لا تخدع إلا الضعاف السذَّج، فيظنونه على شيء، وأنه يملك من حقائق الحياة شيئاً!

إن الدعاة بحاجة إلى أن يقتدوا بالرجل المؤمن في موقفه الإيماني العظيم، وأن يستخدموا المنظار الإيماني الهادي، ليعرفوا الطغاة البغاة على حقيقتهم، ويعرفوا ما يملكون من المظاهر على حقيقتها، ويكتشفوا ما في هذه

المظاهر من خداع وزيف وغرور. وعندها يعتقدون أن ما مع هؤلاء الطغاة ما هو إلا كمثل السراب يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً!.

خاتمة عرض القصة:

الرجل يغادر قومه مفوضاً أمره إلى اللّٰه:

قال تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرونَ ما أَقولُ لَكُمْ. وَأُفَوِّضُ أَمْري إلى اللّٰه. إِنَّ اللّٰه بَصيرٌ بِالعِباد.

فَوَقاهُ اللّٰهُ سَيِّئاتِ ما مَكَروا، وَحاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سوءُ العَذاب. النارُ يُعْرَضونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقومُ السّاعة: أَدْخِلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذاب﴾.

[الآيات: ٤٤ ـ ٤٦]

نصل الآن إلى خاتمة عرض قصة مؤمن آل فرعون.

لقد ظهر الرجل المؤمن، ودافع عن نبي اللّٰه موسى عليه السلام، ورد على فرعون دعوته، ودعا الجماهير إلى أتباعه، ووضح لهم دعوته، ورغّبهم في الآخرة، وحثهم على اختيار طاعة اللّٰه ورضوانه، ودلهم على طريق النجاة والفوز، وحذرهم من طريق الخسارة والهلاك!.

ماذا بقي عنده؟ هل بقي شيء آخر يقوله لهم؟ وهل عليه أكثر من ذلك؟

لقد أقام عليهم الحجة، وأرشدهم إلى السلامة، وبين لهم الطريق. لقد قال ما عنده، وأدى ما عليه!.

لم يبق عنده شيئاً. فما عليه إلا أن يغادر مسرح الأحداث.

لقد غادر المسرح، وودع قومه قائلاً: «فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى اللّٰه. إن اللّٰه بصير بالعباد».

إن هذه «اللقطة» هي أنسب اللقطات لإنهاء مشاهد القصة، وختْمها بختام فني، يؤدي غرضه الإيماني والدعوي.

فستذكرون ما أقول لكم:

تدل هذه الجملة البليغة على معلم بارز من معالم الدعوة إلى اللَّه، على الدعاة أن يلتفتوا إليه وأن يلتزموا به.

الداعية يعرض دعوته على الناس، ويدعوهم إلى اتباع الحق الذي معه، ويواجه الباطل ويرد عليه، ويفند أفكاره ويكشف زيفه، وينتصر للحق ويوضحه ويعرِّف به. ويستخدم في ذلك أفضل الأساليب وأبلغ المؤثرات وأجود النصائح.

ولا يملك الداعية أكثر من هذا. ﴿فَذَكِّرْ. إِنَّما مُذَكِّرْ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِر﴾[1].

إذا وصل الداعية مع المدعوين إلى هذه المرحلة، فعليه أن يتركهم ليفكروا فيما قال، لينظروا ويبحثوا ويراجعوا موقفهم. عليه أن يعطيهم مهلة للتفكير والاختيار. عليه أن يَدَعَهم فترة لعقولهم وأفكارِهم: ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بواحِدَة: أَنْ تَقوموا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى. ثُمَّ تَتَفَكَّروا. ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّة. إِنْ هُوَ إِلّا نَذيرٌ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديد﴾[2].

إِذًا وصل معهم إلى هذه المرحلة فلْيستخدم معهم منطق الرجل المؤمن ﴿فَسَتَذْكُرونَ مَا أَقولُ لَكُمْ﴾.

إن هذه العبارة الواثقة الواعدة ليست تهديداً، وإنما هي نصيحة وتذكير.

---

(١) سورة الغاشية: آيتي ٢١ ـ ٢٢.
(٢) سورة سبأ: آية ٤٦.

كما أنها ليست تخلياً عنهم. وإنما هي وسيلة من وسائل التأثير فيهم لاختيارهم الحق.

إن الداعية يقول لقومه: لقد قمت بواجبي، وقدمت لكم دعوتي، وبذلت غاية وسعي في نصحكم. وبذلك أديت ما عليّ. والخطوة التالية عليكم والاختيار الآن لكم. وأنتم تتحملون نتيجة اختياركم.

سوف تنعكس عليكم نتائج اختياركم في الدنيا والآخرة. إن اخترتم طريق الإيمان والحق جنيتم ثمارها الطيبة النافعة في الدنيا والآخرة. وإن اخترتم طريق الباطل والكفر حصدتم ثمارها النكدة في الدنيا والآخرة.

وعندما تختارون إحدى الطريقين، وتقطفون ثمارها. عندها «ستذكرون ما أقول لكم».

عندها: إذا اخترتم طريق الباطل: فلا تلوموني، ولوموا أنفسكم!.

وأفوض أمري إلى اللّه:

أما قول الرجل المؤمن: «وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إلى اللّه. إنَّ اللّه بَصيرٌ بِالعباد» فيدل على معلَم بارز من معالم الإيمان والدعوة، وقاعدة أساسية من قواعد الجهاد والمجاهدة: لا يجوز نسيانه أو الغفلة عنه. وعلى الدعاة أن يطيلوا الوقفة أمامه، وأن يُحسنوا استيعابه وفهمه ومعايشته.

إن مؤمن آل فرعون قد واجه الباطل، وتحدى فرعون، ولم يرهَب طغيانه ولا سلطانه ولا بطشه، فدافع عن موسى عليه السلام، وفنَّد كلام فرعون، ودعا الجماهير إلى اتباعه هو، ونهاهم عن اتباع فرعون.

وهو بموقفه الإيماني، وجهاده البطولي، وتحديه الرجولي، قد أصبح عُرضة لأذى فرعون وعذابه، وحقده وانتقامه، وكيده وسخطه.

إن فرعون لن يسكت عنه، وسوف يعذبه ويضطهده.

وفرعون يملك الأساليب والأدوات لذلك، وحوله جنوده وزبانيته الذين ينفذون أمره.

أما الرجل المؤمن فإنه في الميدان وحيداً ـ حسب الظاهر ـ إنه مجرد من الحَوْل والطَّوْل والقوة والمنعة. إنه ضعيف ـ في مقاييس البشر المادية ـ ولذلك فهو خاسر مهزوم، لأنه لا يقدر على أن يرُد عن نفسه بطش فرعون وعذابه، فضلاً عن أن يحاربه.

هذه هي القضية بالمنطق المادي الجاهلي.

أما بالمنطق الإيماني، فإن القضية لها بُعد آخر:

إن الرجل المؤمن لم يتحرك من تلقاء نفسه، وإلا لكان مجنوناً.

وإنه لم يكن وحيداً أمام فرعون، وإلا لكان منتحراً.

لقد تحرك من وحي إيمانه، وكان ينفذ تكليف اللّه له بالدعوة والجهاد، ولقد كان اللّه معه بتأييده وتثبيته.

إن الدعوة دعوة اللّه، وإن اللّه ناصرٌ دعوته، وإن موسى رسول اللّه، وإن اللّه يدافع عنه. وإن الرجل المؤمن قد نصر دين اللّه، وإن اللّه سيؤيده. وإن فرعون قد حارب اللّه وإن اللّه سيهزمه.

لقد واجه الرجل المؤمن فرعون، وهو مؤمنٌ باللّه، معتمدٌ عليه، واثقٌ من نصره، مستمد للقوة منه. أما فرعون فإنه عدو للّـه، وإنه عندما يحارب المؤمن فإنما يحارب اللّهَ حقيقة. وكل من حارب اللّهَ مهزوم!

هذه هي حقيقة المعركة بين الرجل المؤمن وبين فرعون، وهذه هي حقيقة القوى فيها.

إن القوى البشرية كلها تتصاغر وتتضاءل وتذوي أمام قوة اللّه سبحانه،

مهما ملكت من القوى والمظاهر المادية. وإن ألوان كيدها وصور بطشها ضائعة باطلة لا تضر أحداً إلا بإذن اللّه.

على ضوء هذا البيان نفهم قول الرجل المؤمن: «وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إلى اللّه، إِنَّ اللّه بَصيرٌ بِالعِبادِ﴾.

إن هذه العبارة الإيمانية الواثقة تقدم لنا منهجاً في الإيمان والدعوة، منهج يلزمه كل داعية عندما يواجه قوى الباطل والطغيان.

إن الداعية يدخل المعركة مع قوى الباطل، وهو ممتلىء بالمعـاني الإيمانية. وهو مدرك لحقيقة المعركة وقواها وأطرافها. إنه يدخل المعركة وكله إيمان باللّه، وتوكل عليه، واستنصار واستغاثة به، وتفويض مطلق إليه، وطلب للمدد والتثبيت منه.

وعندما يفوض الداعية أمره إلى اللّه، يجد اللّه معه، وعندما يستنصر اللّه يجد اللّه نعم النصير، وعندما يتوكل على اللّه يجد اللّه نعم الوكيل.

إن هذه العبارة الإيمانية، ليست مجرد كلمة يقولها الداعية، مجردة من المعاني والحقائق، ولكنها جملة حقائق إيمانية ودعوية وجهادية يعيشها.

وهي ليست موقفاً قصيراً، ولكنها حياة إيمانية حقيقية يعيشها كل لحظـة من حياته.

والداعية يقرن مع هذه العبارة الإيمانية، آياتٍ أخرى، تكوِّن كلها منهجاً إيمانياً دعوياً جهادياً له.

من تلك الآيات قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَه؟ وَيُخَوِّفونَكَ بِالّذينَ مِنْ دونِه، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هاد. وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلّ! أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزيز ذي انْتِقامٍ؟﴾(١).

---

(١) سورة الزمر: آيتي ٣٦ ــ ٣٧.

ومنها قوله تعالى: ﴿الذّينَ قالَ لَهُمُ النّاس: إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعوا لَكُمْ فَاخْشَوهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً، وَقالوا: حَسْبُنا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكيل. فَانْقَلَبوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سوء﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نوحٍ، إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ: يا قَوْم إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامي وَتَذكيري بِآيات اللَّه، فَعَلى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعوا أَمْـرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ، ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُم عَلَيْكُم غُمَّة، ثُمَّ اقْضوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرون﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب. وَمَنْ يَتوكَّلْ عَلى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ: إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِه، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿قال: إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدوا أَنّي بَريءٌ مِمّا تُشْرِكون، مِنْ دونِه، فكيدوني جَميعاً، ثُمَّ لا تُنْظِرون. إِنّي تَوَكَّلْتُ على اللَّهِ رَبّـي وَرَبِّكُمْ، ما مِنْ دابَّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها. إِنَّ رَبّـي عَلى صِراطٍ مُسْتَقيم﴾[4].

فوقاه اللّه سيئات ما مكروا:

بعدما قام الرجل المؤمن بواجبه، يبدو أن فرعون قد توعَّده وهدّده، وخوّفه بطشه وعذابه، فلم يَرْهبه بل فوض أمره إلى اللّه.

وكان تفويض أمره إلى اللّه خاتمة بيانه الإِيماني الدعوي، وهي خاتمة مناسبة للقصة، كما أنها مقصودة من أهداف عرضها في القرآن.

إن القرآن يريد أن يرسخ هذا الموقف عند المسلمين، ويقرر هذا المعنى في مخيلة وذهن وشعور كل واحد منهم. إن القرآن يريد أن يعلِّم

---

(١) سورة آل عمران: آيتي ١٧٣ ــ ١٧٤.

(٢) سورة يونس: آية ٧١.

(٣) سورة هود: آيات ٥٤ ــ ٥٦.

(٤) سورة الطلاق: آيتي ٢ ــ ٣.

المسلمين ـ من خلال قصصه ـ الإيمان باللّٰه والتوكل عليه واللجوء إليه، وتفويض الأمر كله له، والاستسلام بين يديه.

ويسكت عن تفصيلات الأحداث بعد ذلك، ولم يبين ما جرى للرجل المؤمن، لأنه غير مقصود في القصة، ولأن بيانه لا يفيد كثيراً.

إننا قد نتوقع ـ في خيالنا ـ الأذى والاضطهاد ضد الرجل المؤمن. وقد نتوقع صنوفاً وألواناً من الكيد الفرعوني وحقده ومكره ضد الرجل المؤمن.

لا حرج من هذا التوقع المتخيَّل، ولا مانع أن يكمِّل خيالنا هذه اللقطات. لكن على أن يكون من باب التخيُّل وليس من باب الجزم والرواية. لا يجوز أن نقول: فعل به فرعون كذا وكذا وكذا، طالما لم يرد في القرآن والحديث.

المهم أن نقف لحظة أمام إخبار اللّٰه عنه: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَروا﴾.

لقد أسلم الرجل المؤمن نفسه للّٰه، وفوّض أمره إليه، فهل يتخلى اللّٰه عنه؟ وهل يُسْلِمهِ إلى فرعون وكيده ومكره؟

إن اللّٰه لا يتخلى عن أوليائه، ولا يسْلمهم إلى أعدائهم وأعدائه، بل يكون معهم بالنصر والتثبيت.

إنها سنة ربانية لا تتخلف، وكم عرض القرآن من نماذج لهذه السنة الربانية، وما مؤمن آل فرعون إلا نموذج من هذه النماذج.

وهذا الخبر القرآني الصادق بُشْرى يقدمها القرآن للمؤمنين عندما يطالبهم بالتوكل على اللّٰه، وتفويض الأمر إليه. كما أنه أمل يبثه القرآن في نفوس المؤمنين عندما ينصرون دين اللّٰه، ويجاهدون أعداء اللّٰه.

وكم يعجبني في هذا المقام قول الإمام جعفر بن محمد الصادق رضي اللَّه عنه:

عجبت لمن ابتلي بأربع، كيف يغفل عن أربع:

١ ــ عجبت لمن خاف، كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكيل﴾ فإني سمعت اللَّه يقول بعقِبها ﴿فَانْقَلَبوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ، لَمْ يَمْسَسْهُمْ سوء﴾(١).

٢ ــ وعجبت لمن اغتم، كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه ﴿لا إلـٰهَ إلَّا أَنْتَ سُبْحَانك، إِنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمين﴾ فإني سمعت اللَّه يقول بعقبها: ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ، فَنَجَّيناهُ مِنَ الغَمِّ، وكَذٰلِكَ نُنْجي المُـؤْمِنين﴾(٢).

٣ ــ وعجبت لمن مُكِر به، كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْري إِلى اللَّه، إِنَّ اللَّهَ بَصيرٌ بِالعِباد﴾ فإني سمعت اللَّه يقول بعقبها: ﴿فوقاهُ اللَّهُ سِيِّئاتِ ما مَكَروا﴾(٣).

٤ ــ وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها، كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿ما شاء اللَّه، لا قُوَّةَ إلّا بِاللَّه﴾ فإني سمعت اللَّه يقول بعقبها: ﴿فَعَسى رَبّـي أَنْ يُـؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِك﴾(٤).

وحاق بآل فرعون سوء العذاب:

وقى اللَّه الرجل المؤمن سيئات مكر فرعون، وأنجاه اللَّه منه.

ولا نعرف ماذا جرى له بعد إلقاء بيانه الإيماني الدعوي. لا ندري هل

---

(١) سورة آل عمران: آيتي ١٧٣ ــ ١٧٤.

(٢) سورة الأنبياء: آيتي ٨٧ ــ ٨٨.

(٣) سورة غافر: آيتي ٤٤ ــ ٥٥.

(٤) سورة الكهف: آيتي ٣٩ ــ ٤٠. والخبر مذكور في كتاب: «جعفر بن محمد الصادق» لعبد العزيز سيد الأهل ٦٨.

قتله فرعون مع السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام، أم سجنه ومات في سجنه؟ هل مات في مصر موتاً طبيعياً؟ أم غادرها مع بني إسرائيل ومات بعد ذلك؟

لا ندري! لأن القرآن لم يوضح ذلك، كما لم توضحه الأحاديث الصحيحة. وبما أن هذين المصدرين اليقينيين سكتا عن بيان تلك التفصيلات، فنحن ملزمون بالسكوت عنها، وعدم بحثها في غيرهما من المصادر. ويكفينا ما فيهما من بيان.

وقاه اللّه مكر فرعون وقومه. وأوقع بهم عاقبة مكرهم ﴿وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذاب. النّارُ يُعْرَضونَ عَلَيْها غُدُوًّاوَعَشِيّاً. وَيَوْمَ تَقومُ السّاعَة: أَدْخِلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذاب﴾.

حل بفرعون وقومه نتيجة كيدهم ومكرهم، وجنوا ثمار ما خططوا من السوء، وحاق بهم مكرهم السيء «ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله» وهذه قاعدة ثابتة من قواعد القرآن، وسنة مطردة من سنن اللّه سبحانه.

حاق بآل فرعون سوء العذاب، فأغرق اللّه فرعون وجنوده عندما لحقوا بموسى عليه السلام والذين آمنوا معه، وغادروا هذه الدنيا غير مأسوف عليهم: ﴿كَمْ تَركُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيون. وَزُروع وَمقَام كَريم. وَنَعْمَةٍ كانُوا فيها فاكهين. كذٰلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخرين. فَما بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّماءُ وَالْأَرْض. وَما كانوا مُنْظَرين﴾[1].

وانتقل فرعون وآله من حياة الدنيا إلى حياة «البرزخ» حيث يعذّبون فيها في قبورهم حتى قيام الساعة.

وقد بيَّن القرآن سوء العذاب الذي يقع عليهم في قبورهم بأنه: ﴿النّارُ

(١) سورة الدخان: آيات ٢٥ ــ ٢٩.

يُعْرَضونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾ فيُعْرضون على النار كل يوم: في الصباح وفي المساء. إنهما وجبتان يومياً يعذّبون فيهما، منذ أن أغرقهم اللَّه وحتى قيام الساعة! فكم مضى عليهم في هذا العذاب اليومي من قرون! وكم سيمضي عليهم ــ حتى قيام الساعة ــ من قرون!.

ويوم تقوم الساعة، يُساق فرعون وآله للحساب، ثم تَصدر الأوامر إلى زبانية العذاب بإدخالهم النار ﴿وَيَوْمَ تَقومُ السَّاعَة: أَدْخِلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذاب﴾.

وقد اعتبر علماء التفسير هذه الآية نصاً في عذاب القبر. وقالوا: إن عذاب القبر ونعيمه كذلك ــ ثابت بصريح القرآن، وصحيح الحديث.

أما صريح القرآن فقول اللَّه: ﴿النّارُ يُعْرَضونَ عَلَيْها غُدُوًّاً وَعَشِيّـاً ويَوْمَ تقوم السّاعَةُ. أَدْخِلوا آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذاب﴾.

وأما صحيح الحديث فمثاله ما رواه البخاري ومسلم عن عبداللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال: «إن أحدكم إذا مات، عُرِض عليه مقعده من الغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك اللَّه يوم القيامة»[1].

بين أبـي بكر الصديق ومؤمن آل فرعون:

لعل الإمام البخاري رضي اللَّه عنه أراد أن يقارن بين مؤمن آل فرعون في نصرته لموسى عليه السلام، وبين أبـي بكر الصديق في نصرته لرسول اللَّه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز ٢٣، باب الميت يعرض عليه مقعده، رقم ٨٩، حديث رقم ١٣٧٩.
ورواه مسلم في كتاب الجنة ونعيمها ٥١، باب عرض مقعد الميت ١٧، حديث رقم ٢٨٦٦.

صلى اللَّه عليه وسلم في مكة، وأن يُبين أن أبا بكر الصديق أفضل من ذلك الرجل المؤمن.

ففي كتاب التفسير من جامعه الصحيح، أورد حديث عروة بن الزبير قال: قلت لعبداللَّه بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم؟ قال: بينما رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه، ودفع عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي اللَّه وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟»[1].

وقد قارن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه، بين أبي بكر الصديق ومؤمن آل فرعون، وفضَّل أبا بكر على مؤمن آل فرعون:

أورد الإمام ابن كثير في تاريخه ـ نقلاً عن البزّار ـ عن محمد بن عقيل، أن علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه خطب الناس يوماً فقال: يا أيها الناس: مَنْ أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفت منه! ولكنه أبو بكر. إنا جعلنا لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عريشاً. فقلنا: من يكون مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم؟ فواللَّه ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، شاهراً بالسيف على رأس رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، لا يَهْوي إليه أحد إلا أهوى إليه. فهذا أشجع الناس!.

ثم قال: ولقد رأيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وقد أخذته قريش، فهذا يحادُّه، وهذا يُتَلْتِلُه؟ ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟

---

(١) البخاري: كتاب التفسير ٦٥، باب ٤٠، سورة المؤمن، حديث رقم ٤٨١٥.

فواللَّه ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجاهد هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربـي اللَّه؟

ثم ردَّ علِيٌّ بُردةً كانت عليه، فبكى. حتى اخضلَّت لحيته. ثم قال: أُنشدكم اللَّهَ: أمؤمن آل فرعون خير أم هو؟ فسكت القوم. فقال عليّ: فواللَّه لساعة مع أبـي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون! ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه»[1].

تلخيص لأهم الدروس والدلالات:

والآن ــ وبعدما قاربت جولتنا مع قصة مؤمن آل فرعون على الانتهاء ــ نقف أمام القصة لنستخلص أهم ما فيها من دروس ودلالات، ملخصين لها.

١ ــ يستخدم الظالمون والطغاة وسائل وأساليب غير قانونية ولا أخلاقية، ولا إنسانية،في مواجهة الحق وجنوده، منها قتل أبناء المؤمنين واستحياء نسائهم. كما فعل آل فرعون.

٢ ــ الطغاة يريدون من وسائلهم في حرب الدعوة والدعاة إرهاب الآخرين وتخويفهم عن طريق البطش بالدعاة.

٣ ــ الطغاة يحرصون على أن يظهروا بمظهر الديمقراطية، فيدَّعون التقرب إلى الجماهير، ويُعِدون لهم استفتاءات شكلية ومظاهر خادعة.

٤ ــ الطغاة يحرصون على أن يُشركوا معهم الجماهير في مقاومة الحق والبطش بجنوده، وتحميلهم مسؤولية ذلك، وإشعارهم بأنه قضيتهم الأساسية.

٥ ــ الطغاة يَظهرون أمام الناس على أنهم حماة الدين، ورسل الإصلاح، وحراس الأمن.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٢٧١ ــ ٢٧٢.

٦ ـ الطغاة يتهمون الدعاة بالكفر والفساد والتخريب، وأنهم ضد الدين والأمن والاصلاح.

٧ ـ على الداعية وهو يواجه الطغيان أن يلجأ إلى ربه، ويتوكل عليه، ويركن إليه.

٨ ـ سر الطغيان في أمرين هما: التكبر والكفر بيوم الحساب، وسر الصلاح في أمرين: التواضع والإيمان بيوم الحساب.

٩ ـ الطغيان مدمرٌ لصاحبه، مفسدٌ للحياة، مؤذٍ للآخرين، والإيمان هو صمام الأمان للحياة الفاضلة السعيدة لصاحبه وللآخرين.

١٠ ـ جواز أن يكتم المؤمن إيمانه، وأن يُسر به، إذا كان في ذلك مصلحة للدعوة، كما فعل مؤمن آل فرعون، وكما فعل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في بداية الدعوة السرية في مكة.

١١ ـ على الداعية أن ينسق بين خطواته ومواقفه الدعوية، فيعرف متى يكتم إيمانه ومتى يجهر به، ففي حالات الخطر المباشر الذي يواجه الدعوة وقيادتها، والذي يقدر فيه الداعية على الانتصار لها، لا يُقبَل منه كتمان إيمانه إيثاراً للسلامة والعافية.

١٢ ـ إقبال شخص على الإيمان، وانتماؤه للدعوة، دليل تمكن الخير منه، وتوفر معاني الفضيلة والرجولة والصدق فيه.

١٣ ـ كيان الكفر والطغيان ضعيف هزيل، وقد يُخترق من الداخل، فيوجَد فيه مؤمنون صالحون.

١٤ ـ الداعية يقف أمام قوى الباطل ويتحدى عناصر البشر برجولة وصدق وثبات وإيمان، ولو كان وحيداً مجرداً من مظاهر القوة المادية.

١٥ ـ الكلمة الصادقة الواثقة الجريئة أقوى من الباطل، ولن يصمد لها الباطل في أية مواجهة فكرية حوارية جدلية. بشرط أن يتصف أصحابها بالشروط اللازمة للانتصار والنجاح.

١٦ ـ على الداعية أن يستخدم أفضل الأساليب، وشتى المؤثرات، ومختلف الوسائل، التي يصل بها إلى قلوب المدعوِّين. وعليه أن يرتب خطواته ومواقفه وكلماته. وأن يدخل ميدان الدعوة بعلمية ومنهجية مدروسة مبرمجة.

١٧ ـ الداعية بأسلوبه الدعوي الناجح، ومنطقه الإيماني المؤثر، يهزم الباطل والضلال والكفر، لأنها لا تقوم على أساس، ولا تملك حجة ولا سلطاناً.

١٨ ـ على الداعية الاتصاف بالموضوعية وهو يخاطب الآخرين، وأن يحترم عقولهم وثقافاتهم، وأن يعرف كيف يؤثر فيهم ويغير مواقفهم.

١٩ ـ من أساليب نجاح الداعية في إقناع وحوار الآخرين: الالتفات إلى المؤثرات الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والحضارية، وإثارة الأسئلة التي تزعزع قناعاتهم السابقة، وتقربهم إلى صفه.

٢٠ ـ فرق بين منطق الطغاة في مخاطبة الجماهير، حيث يقوم على التكبر والاستعلاء، وبين منطق الدعاة في مخاطبتهم حيث يقوم على التحبب والتقرب والاحترام.

٢١ ـ الطغاة يدعون الجماهير إلى أن تلغي عقولها، وتمتنع عن البحث والتفكير، فهم يفكرون عنها، ويكفونها هذه المهمة، وما عليها إلا أن تأخذ ما يقدمونه لها من آراء وأفكار.

٢٢ ـ الطغاة لا يسمحون برأي معارض لهم، ولا بأناس يخالفونهم ويقفون أمامهم.

٢٣ ـ إذا أحس الطغاة بتأثير الدعاة على الجماهير، وخشوا أن يفلت الأمر من أيديهم، وأن تنحاز الجماهير للدعاة، يعلنون التراجع، ويدّعون العلمية والموضوعية، ويزعمون دراسة دعوة ومطالب الدعاة. ليقرروا بعد ذلك أنهم كاذبون.

٢٤ ـ إن قوة منطق الدعاة، وحسن تأثيرهم في الناس، كفيل بتراجع الطغاة، وتغيير مواقفهم ـ ولو حسب الظاهر ـ.

٢٥ ـ يحرص الطغاة على إشغال الجماهير بأمور جانبية هامشية ثانوية، ليشغلوهم عن الأمور الأساسية، ويُنْسوهم القضايا المصيرية، وقد يوقعون بعض الدعاة في هذا الشَّرَك، ليتحولوا عن أهدافهم الأساسية.

٢٦ ـ قد يستخدم الطغاة عامل «الزمن» لتموت قضية الدعوة عند الجماهير، وتفقدَ حياتها وحيويتها وسخونتها. وما على الدعاة إلا أن يستمروا في طرح الدعوة بقوة وفاعلية، وإبقائها حاضرة حية عند الناس.

٢٧ ـ كم ينفق الطغاة من طاقات وقدرات وأموال وأوقات الأمة على مظاهر وأشياء وأعمال، لا نفع فيها ولا خير، وإنما هي مسرحيات لإلهاء الناس وإشغالهم.

٢٨ ـ على الداعية أن يوصِل المدعوين إلى مفترق الطرق، بحيث لا يرون أمامهم إلا طريقين: طريق الإيمان والهدى والنجاة والجنة، أو طريق الكفر والضلال والهلاك والنار. ثم يدعوهم إلى الاختيار المدروس. ويعطيهم فرصة ومهلة للاختيار، يبتعد عنهم فيها قليلاً، ليحسوا أن اختيارهُم كان بحرية ذاتية.

٢٩ ـ على الداعية أن يستخدم مع المدعوين منطق الانتظار، وعامل

المستقبل ليروا فيه مصداق كلامه، وتحققَه في عالم الواقع، وليذكروا ما قاله لهم من قبل، وحذرهم من الوقوع فيه، فيقوم بتذكيرهم بذلك، ليكون أدعى إلى أتباعه!.

٣٠ ـ على الداعية أن يستعلي بإيمانه، ويعتز بدينه، ويتوكل على ربه، فهذا أعظم عوامل الثبات في مواجهة قوى الطغيان. وإن تفويض الداعية أمره إلى الله، واستسلامه المطلقَ، له، واستنجاده الصادق به، معلَم إيماني دعوي بارز، وأساس الثبات والانتصار في المواجهة.

٣١ ـ الله مع عباده وجنوده بالتثبيت والتوجيه والنصر، والتمكين، وهو ضد أعدائهم ـ وأعدائه ـ يهزمهم ويبطل كيدهم ومكرهم.

٣٢ ـ الدعاة ينقذون أنفسهم وأمتهم في الدنيا والآخرة، والطغاة يهلكون أنفسهم وأمتهم في الدنيا والآخرة.

٣٣ ـ ساحة المعركة بين الحق والباطل ليست محدودة بمكان ولا زمان ولا موقع ولا ميدان، فهي شاملة لكل المواقع والميادين، والمجالات والأزمان والأمكنة. كما أنها لا تختص بهذه الدنيا فقط، بل تنتقل إلى حياة البرزخ وساحات العرْض وساعات الحساب.

إن جنود الباطل مهزومون في الدنيا ـ وصور الهزيمة كثيرة ـ معذَّبون في قبورهم، أذلاءُ مهانون يوم القيامة، ثم هم خالدون في نار جهنم.

وإن جنود الحق منتصرون في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ـ وصور النصر كثيرة ـ وهم منعَّمون في قبورهم، مكرَّمون يوم الحساب، مخلَّدون في النعيم المقيم في جنات الخلد!.

* * *

٣

قِصَّة قارُون

قِصَّةُ قَارُون

قصة قارون في السياق القرآني :

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ

أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ

قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

ذكر قارون في القرآن:

ورد اسم قارون في القرآن أربع مرات.

مرتان منهما في سورة القصص، في الآيات التي أوردناها.

والمرة الثالثة في سورة العنكبوت أثناء الحديث الموجز عن تكذيب الطواغيت الثلاثة: فرعون وهامان وقارون، وإهلاك اللّه لهم:

قال تعالى: ﴿وَقارونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامان. وَلَقَدْ جاءَهُمْ موسى بالبَيِّنات، فَاسْتَكْبَروا في الْأَرْضِ، وَما كانوا سابقين. فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ: فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيهِ حاصِبا. وَمِنْهُم مَنْ أَخذَتْهُ الصَّيْحَة. وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْض. وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا. وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ. ولـكِنْ كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمون﴾[2].

والمرة الرابعة في سورة غافر. حيث وردت أسماء الطواغيت الثلاثة في سياق إرسال موسى عليه السلام لهم، وتكذيبهم له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبين. إلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارون. فقالوا ساحِرٌ كَذّاب﴾[3].

---

(١) سورة القصص: الآيات ٧٦ ــ ٨٣.

(٢) سورة العنكبوت: آيتي ٣٩ ــ ٤٠.

(٣) سورة غافر: آيتي ٢٣ ــ ٢٤.

موجز قصة قارون:

كان قارون من قوم موسى، فهو إسرائيلي وليس قبطياً، وأرسل اللَّه موسى إليه مثل ما أرسله إلى فرعون وهامان.

وقد أعطى اللَّه قارون أموالاً عظيمة، وكنوزاً وافرة، تملأ خزائن عديدة. ويثقل حمل هذه الكنوز والخزائن، بحيث تنوء بحملها العُصبة من الرجال الأقوياء الأشداء.

وقد استخدم قارون هذه الأموال في البغي والظلم والعدوان، وفي التكبر والبطر والخيلاء. وكان فتنة للفقراء الضعفاء من بني إسرائيل.

انقسم بنو إسرائيل في نظرتهم إلى قارون وكنوزه إلى قسمين:

قسم آمنوا باللَّه، وآثروا ما عند اللَّه.

ولذلك لم يغتروا بما ملك قارون، ولم يتمنوا أن يكونوا مثله. بل أنكروا على قارون تكبره وبغيه وإفساده، وطالبوه أن يجعل ماله للَّه، وفي سبيل اللَّه، ولنفع عباد اللَّه.

أما القسم الثاني فقد خُدعوا بما ملك قارون، لأنهم فقدوا الميزان والقاعدة، والأساس الذي يقوِّمون به قارون وما يملك. فاعتبروا غنى قارون من مظاهر رِضى اللَّه عنه ومحبته له. فتَمنَّوْا أن يكونوا مثله، لأنه ذو حظ عظيم.

وسكر قارون بنشوة المال والغنى، فأعماه ذلك عن الحق، وأصمَّه عن قبول نصائح المؤمنين. ولما طالبوه بشكر اللَّه على نعمة المال، وتوظيفه في النفع والخير والحلال، وأخبروه بأنه مال اللَّه. رد عليهم بقوله: «إِنَّما أُوتيتُه عَلى عِلْمٍ عِنْدي!».

وخرج يوماً على قومه في زينته، واستخدم زينته في الكبر والخيلاء،

فكسر بها قلوب الفقراء، وغبَّش بها عيونهم، حيث قالوا لما رأوه: «يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُون. إِنَّه لَذو حَظٍّ عَظيم».

لكن المؤمنين الذين أوتوا العلم، نصحوا المخدوعين بقولهم: «وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً».

وحقت على قارون سنة اللَّه، وحل به غضبه، فكان مالُه سبباً في هلاكه وعذابه، إذ خسف اللَّه به وبماله وبكنوزه وبداره الأرض، حيث شُقت الأرض، وابتلعت قارون وما يملك. على مرأى من بني إسرائيل ـ بقسميهم ـ ولم يجد قارون من ينصره ويدافع عنه، ولم تنفعه أمواله وكنوزه.

ولما رأى بنو إسرائيل ما حل بقارون ومالِه. ازداد المؤمنون الثابتون الصابرون إيماناً. أما الآخرون المخدوعون الذين تمنوا بالأمس أن يكونوا مثل قارون، فقد عرفوا الحقيقة، وزالت عن عيونهم الغشاوة، وحمدوا اللَّه لأنهم لم يكونوا مثل قارون. وقالوا: «وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِر. لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لخَسَفَ بِنا. وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرون».

إسرائيليات في قصة قارون:

نورد أهم الروايات الإسرائيلية في قصة قارون، لنحذِّر منها، ونضعُها بين أيدي القراء، حتى لا يغتروا بها إذا سمعوها أو إذا قرأوها، وليردوا على كل من قال بها أو كتبها.

قال الثعلبي في كتابه «عرائس المجالس في قصص الأنبياء» ـ والذي ملأه بالإسرائيليات والأساطير ـ في مقدمة قصة قارون: «قالت العلماء بأخبار القدماء»[١].

(١) عرائس المجالس للثعلبي: ١٨٨.

وقوله هذا غريب ومرفوض.

لأن أخبار القدماء ـ بالنسبة لمن جاء بعدهم ـ هي من غيب الماضي. وهو لا يؤخَذُ إلا من مصادر يقينية جازمة قاطعة، وهذا لا يكون إلا لما أورده الله في كتابه الكريم، أو ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح.

فكل من ادّعى العلم بأخبار القدماء، وكل من أورد قولاً أو خبراً من أخبار القدماء، لا بد أن يبين مصدر قوله وخبره، من قرآن كريم أو حديث صحيح.

فإذا لم يفعل ذلك، فإن كلامه يكون مردوداً، وخبره يكون مرفوضاً. وهذا الرجل لا يكون من «العلماء بأخبار القدماء» وإنما يكون جامعاً للإسرائيليات، راوياً للخرافات والأساطير!.

ذكر رواة الإسرائيليات: أن قارون كان ابن عم موسى عليه السلام. وأنه كان من أعلم بني إسرائيل وأفضلهم وأجملهم، وأنه كان يسمى «المنوَّر» لحسن صورته، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتوراة. ولكنه نافق.

وذكروا عن مفاتيح كنوزه: أنها كانت حمل ستين بغلاً، ولا يزيد حجم المفتاح منها عن إصبع، وكل مفتاح منها لكنز.

وذكروا بداية جمعه للأموال، فقالوا: إن قارون في بداية أمره كان معتكفاً عابداً لله في صومعة على أساس جبل أربعين سنة. وقد سبق بني إسرائيل في العبادة.

فبعث إليه إبليسُ شياطينه ليغووه، فلم يقدروا عليه، فجاءه إبليس، وصار يعبد الله مثله، فغلب إبليسُ قارونَ في العبادة، فخضع له قارون باعتباره أكثر منه عبادة، وهو لا يعرف حقيقة أمره، فصار إبليس يخرجه من

الصومعة تدريجياً، وصار قارون يقبل على الدنيا تدريجياً، فكثر ماله وزادت كنوزه. فتركه إبليس. وأقبل قارون على الدنيا وترك العبادة.

وذكروا أنه لما كثر مال قارون، وأوجب اللّٰه الزكاة على بني إسرائيل، جاء قارون إلى موسى عليه السلام واتفق معه أن يدفع له الزكاة: عن كل ألف دينار ديناراً، وعن كل ألف درهم درهماً، وعن كل ألف شاةٍ، وهكذا. ولما رجع قارون إلى بيته، وحسب الزكاة الواجبة عليه، وجدها قد بلغت مبلغاً عظيماً. فلم تسمح له نفسه بإخراج هذه الزكاة. فمكر بموسى عليه السلام.

فاتفق مع ملأ متآمرين من بني إسرائيل، وقال لهم: آمركم أن تأتوا بفلانة البغِيّ، فنجعل لها مالاً على أن تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلتْ ذلك، خرج بنو إسرائيل عليه فرفضوه، واسترحنا منه.

فأتوا بها، فجعل لها قارون ألف درهم، وقيل: ألف دينار، وقيل: طستاً من ذهب. وقال لها: اقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل.

فلما كان الغد، جمع قارون بني إسرائيل. ثم أتى موسى وقال له: إن بني إسرائيل قد اجتمعوا لك، ينتظرون خروجك. فاخرج إليهم لتعظهم وتذكرهم.

فخرج إليهم موسى عليه السلام، فخطبهم قائلاً: يا بني إسرائيل. من سرق قطعنا يده. ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة. ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة. وإن كانت له زوجة رجمناه حتى يموت.

فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا!.

فقال قارون: إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة!.

قال موسى: أنا؟ قال: نعم!.

قال موسى: ادعوها، فإن قالت بهذا، فهو كما قالت.

فلما جاءت قال لها موسى: يا فلانة: أنا فعلت بك ما يقوله هؤلاء؟ وعظَّم عليها، وسألها بالذي أنزل التوراة وفلق البحر، إلا صدقت.

فلما ناشدها اللَّه، تداركها اللَّه بالتوفيق، وقالت في نفسها: لئن أُحْدِث اليوم توبة، أفضل من أن أوذي موسى رسول اللَّه!.

فقالت له: لا. بل كذبوا. ولكن جعل لي قارون مالاً، على أن أقذفك بنفسي!.

فلما تكلمت بهذا الكلام، سُقِط في يد قارون، وَنَكَس رأسه. وسكت الملأ.

فخر موسى ساجداً للَّه يبكي. ويقول: يا رب إن عدوك هذا قد آذاني، وسبَّني وأراد فضيحتي. اللهم إن كنتُ رسولك فاغضب لي وسلِّطْني عليه.

فأوحى اللَّه إليه: ارفع رأسك. وأْمُر الأرض بما شئتَ، تطعْك.

فقال موسى: يا بني إسرائيل. إن اللَّه قد بعثني إلى قارون، كما بعثني إلى فرعون. فمن كان معه فليلبث مكانه، ومن كان معي فليعتزل عنه.

فاعتزلوا عن قارون، ولم يبق معه إلا رجلان.

ثم قال موسى: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى كعابهم. ثم أخذتهم إلى جنوبهم.

ثم أخذتهم إلى أعناقهم. وقارون وصاحباه يتضرعون إلى موسى عليه السلام، ويناشدونه باللَّه وبالرحم.

ثم قال موسى: يا أرض خذيهم. فانطبقت الأرض عليهم.

وأوحى اللَّه إلى موسى: يا موسى ما أفظَّك! استغاثوا بك سبعين مرة، أما وعزتي وجلالي، لو إياي دعوا لوجدوني قريباً مجيباً!.

وإن اللّه يخسف بقارون وصاحبيه كل يوم قامة، وإنه يجلجل بهم فيها، لا يبلغون قعرها إلى يوم القيامة»[1].

إننا لا نقبل هذه التفصيلات الإسرائيلية، إذ لا يجوز لأحد أن يرويها إلا من باب التحذير منها، والإشارة إلى كونها إسرائيليات غير مقبولة.

قارون الإسرائيلي وسر قَرْنه مع فرعون:

أخبر القرآن أن قارون كان من قوم موسى، فهو من بني إسرائيل، وليس من آل فرعون.

وبما أنه من بني إسرائيل، فلماذا قرنه القرآن مع فرعون وهامان، واعتبر موسى عليه السلام مرسلاً للثلاثة؟ كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا موسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبين. إلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارونَ. فَقالوا: ساحِرٌ كَذّاب﴾.

فرعون مصري. وهامان مصري. وقارون إسرائيلي.

ويبدو أن الجامع بينهم هو الطغيان والبغي والفساد والكفر والتكذيب.

وبعدما جمعهم هذا الجامع، اختلف السبب الذي حمل كلاً منهم على جريمته:

فطغيان فرعون بسبب ملكه وسلطانه، ولهذا دعا قومه إلى عبادته، وقال لهم: ما علمت لكم من إله غيري.

وطغيان هامان بسبب وزارته ووظيفته عند فرعون، وتنفيذه لأوامره.

وطغيان قارون عن طريق الثراء والغنى والمال والكنوز.

فهم طواغيت ثلاثة. وإن اختلفت أسباب طغيانهم.

---

(١) انظر «عرائس المجالس للثعلبي» ١٨٨ ـ ١٩٢.

إنها أسباب ثلاثة للطغيان: السلطان. والوظيفة. والمال.

وهذه الأسباب مستمرة على مختلف فترات التاريخ البشري. وكم من الطغاة من يكونون أسرى هذه الأسباب!

كم من الناس من يكون طغيانه بسبب ملكه وسلطانه! وكم من الناس من يكون طغيانه بسبب وظيفته ومركزه واتباعه للكبراء! وكم من الناس من يكون طغيانه بسبب ماله وثرائه!.

تعددت الأسباب والحكم واحد، والطغيان طغيان!.

والعجيب أن الطغاة الثلاثة ـ فرعون وهامان وقارون ـ استقبلوا موسى بنفس الاستقبال، وأجابوه بنفس الجواب: «فَقالوا: ساحِرٌ كَذّاب».

كان قارون من قوم موسى، فبغى عليهم. والبغي هو الطغيان والظلم والعدوان. بغى عليهم بسبب ماله وكنوزه، والمال يقود للبغي والطغيان، إذا ملكه فاقد الإيمان!.

ويبدو من آيات قصة قارون، أنه كان مع بني إسرائيل بعدما خرجوا من مصر، بدليل أن الآيات تشير إلى وجود فريقين من بني إسرائيل: فريق المؤمنين العلماء الذين لم يغتروا بقارون، وفريق السّذج الضعفاء من بني إسرائيل الذين خُدعوا به.

وبدليل أن قارون خرج على قومه في زينته ففتنهم، وقومه بنو إسرائيل.

أما أين خرج عليهم، وما هي تفصيلات قصته مع موسى عليه السلام، وكيف كانت نهايته بالتفصيل، وأين ومتى؟ فهذه أسئلة لا جواب عليها إلا عند رواة الإسرائيليات.

كنوز قـــارون:

أشار القرآن إلى كثرة كنوز قارون بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنوزِ ما إِنَّ مفاتِحَهُ لَتَنوءُ بِالعُصْبَةِ أُولي القُوَّة﴾.

وتوحي هذه الآية بأن أموال قارون وكنوزه كانت كثيرة، بحيث تعجز المجموعة من الرجال الأقوياء عن حمل مفاتيح خزائنها، أو عن حمل الخزائن نفسها.

الكنوز جمع كنز. ويطلق على الأموال المذخورة المدفونة تحت الأرض.

لكنه ورد في القرآن بمعنى «جعْل المال بعضِه على بعض، وحفظه. وأصله من كنزتُ التمر في الوعاء. وناقة كِناز مكتنزة اللحم»[1].

ويبدو أن الحكمة من التعبير بكلمة «كنوز» عن مال قارون، قد تبدو فيما يلي:

١ ــ إن هذه الأموال كانت سهلة المأخذ، قريبة التناول، وأنه حصَّلها بأدنى جهد مبذول، وكأنها كنوز مدفونة اغترف منها اغترافاً.

٢ ــ إن قارون كان يحفظ تلك الأموال، ويجعلها فوق بعضها البعض، ويزيدها وينمِّيها، ويحرص على اكتنازها.

٣ ــ لم يكن قارون يُخرج حق الفقراء والمساكين في أمواله، ولا يؤدي زكاتَها. فالكنز هو المال المكنوز الذي لم تُؤَدَّ زكاته، ولم ينفَق منه في سبيل اللّه على الفقراء والمحتاجين.

ويوحي القرآن بهذا المعنى في قوله: ﴿وَالّذينَ يَكْنِزونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَلا يُنْفِقونَها في سَبيل اللّه، فَبَشِّرْهُمْ بِعذَابٍ أَليم. يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها

---

(١) المفردات للراغب ٤٤٢.

في نارِ جَهَنَّم. فَتُكْوى بِهَا جِباهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورهُمْ. هٰذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، فَذوقوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزون﴾[١].

مفـــاتح ومفاتيح:

اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَآتَيْناهُ مِنَ الكُنوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنوءُ بِالعُصْبَةِ أُولي القوة﴾.

فمنهم من قال: المفاتح في الآية هي مفاتيح خزائن أمواله. وكانت هذه المفاتيح صغيرة، الواحد منها بحجم الإصبع، وكانت هذه المفاتيح كثيرة، فإذا ركب جعلوها معه على سبعين بغلاً.

وعنصر المبالغة في هذا واضح ـ علاوة على كون تلك الأخبار من الإسرائيليات ـ ولهذا قال الإمام الرازي في تفسيره: «إن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ. ولو أنا قدَّرْنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح، فأي حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح»[٢].

ومن العلماء من قال: المفاتـح هي الخزائن التي كانت تُحفظ بها أموال قارون، وهذه الخزائن كانت كبيرة وكثيرة، بحيث يعجز الرجال الأقوياء عن حملها.

وهذا القول معقول وممكن. ويتفق مع كلمات الآية.

وقد ذكر الرازي في تفسيره أن هـذا هو رأي ابن عبـاس والحسن البصري. قال: «اختيار ابن عباس والحسن أن تُحمل المفاتح على نفس المال، وهذا أبين، وعن الشبهة أبعد»[٣].

---

(١) سورة التوبة: آيتي ٣٤ ـ ٣٥.
(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٥ : ١٥.
(٣) المرجـع السابق ٢٥ : ١٥.

ونحن نميل إلى هذا الرأي، ونرى أنه هو المتفق مع سياق القرآن.

فقد وردت كلمة «مفاتح» في القرآن ثلاث مرات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلّا هُو﴾[١].

ومفاتح الغيب هي خزائن عالم الغيب، التي اختص اللّه بها وبعلمها. وهذه الخزائن في سورة الأنعام، مفاتيحها خمسة مذكورة في سورة لقمان. في قول اللّه تعالى: ﴿إنَّ اللّه عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَة، وَيُنَزِّلُ الغَيْث، وَيَعْلَمُ ما في الْأَرْحام، وَما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غداً، وَما تَدْري نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَموت. إنَّ اللّهَ عَليمٌ خَبير﴾[٢].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَآتَيْناهُ مِنَ الكُنوزِ ما إنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنوءُ بِالعُصْبَةِ أُولي القُوَّة﴾.
أي خزائن أمواله يعجز عن حملها الرجال الأقوياء الأشداء.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلوا مِنْ بُيوتِكُمْ أَوْ بُيوتِ آبائِكُمْ، أَوْ بُيوت أُمَّهاتِكُمْ، أَوْ بُيوتِ إخْوانِكُمْ، أَوْ بُيوتِ أَخَواتِكُمْ، أَوْ بُيوتِ أَعْمَامِكُمْ، أَوْ بُيوتِ عَمَّاتِكُمْ، أَوْ بُيوتِ أَخْوالِكُمْ، أَوْ بُيوتِ خَالاتِكُمْ، أو ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ، أَوْ صَديقِكُمْ﴾[٣].
أي ما ملكتم خزائنه.
إذن هناك فرق بين مفاتح ومفاتيح:
قال العُكْبَري: «مفاتح جمع مَفْتَح. والمَفْتح الخزانة. فأما ما يُفتح به فهو مِفتاح، وجمعه مفاتيح»[٤].

---

(١) سورة الأنعام: آية ٥٩.
(٢) سورة لقمان: آية ٣٤.
(٣) سورة النور: آية ٦١.
(٤) إملاء ما منّ به الرحمن للعكبري: ٢٤٥.

وقال الكَفَويُّ: «المفتاح آلة الفتح كالمِفتح، وكمَسكن ـ يعني بفتح الميم ـ: الخزانة والكنز والمخزن.

والمفاتح: جمع مِفْتَح، وهو الآلة التي يُفتح بها. أو جمع «مَفْتَح» وهو المكان. لا جمع مِفتاح»(١).

تنوء بالعصبة أولي القوة:

خزائن قارون «تَنوءُ بِالعُصْبَةِ أُولي القُوَّة» أي تثقل بالعصبة أولي القوة، ويثقل حملها عليهم.

والعصبة «جماعة متعصبة متعاضدة مجتمعة» وتطلق على عدد من الرجال المجتمعين المتعاونين الأقوياء يزيدون على عشرة.

أما المراد بقوله: «تنوء بالعصبة أولي القوة» فقد ذكر الإمام الرازي فيه ثلاثة احتمالات:

١ ـ إن هؤلاء العصبة يعجزون عن حمل المفاتيح التي للكنوز. وهذا مرجوح.

٢ ـ إن العصبة يعجزون عن حمل الخزائن. وهذا ممكن ومعقول.

فالحمل على هذين الاحتمالين، حمل حسي مادي محسوس.

٣ ـ إن المراد بالحمل هو الحفظ والعد والرعاية.

قال الرازي: «المراد من المفاتح العلم والإحاطة. والمراد: آتيناه من الكنوز ما إنَّ حفظها والاطلاع عليها، ليثقل على العصبة أولي القوة والرعاية. أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها، تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها»(٢).

---

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي ٤ : ٢٩٤.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٥ : ١٥.

ولا مانع من القول بأن المراد بحمل المفاتح، هو حفظ الأموال وعدها ورعايتها والقيام عليها. ويكون المراد بأنها تنوء بهم، أي يثقل ويصعب عليهم حفظها.

مع أن الأولى هو القول الثاني.

بنو إسرائيل فريقان تجاه قارون:

كان قارون فتنة لبني إسرائيل، بسبب كنوزه وأمواله.

والمال فتنة طاغية، يُفتَن به كثيرون، فيسقطون في الفتنة والامتحان.

لقد فُتن قارون نفسه بأمواله، فاستخدمها في البغي والظلم والفساد، فخسر وكفر، وكان ماله سبباً في هلاكه.

أما موقف قومه منه، فقد أخبر القرآن أنهم انقسموا إلى فريقين:

الفريق الأول: وهم المؤمنون الثابتون، المستعْلون بإيمانهم، الراجون ما عند اللّٰه. وهؤلاء عرفوا حقيقة ما عليه قارون، فآثروا ما عند اللّٰه.

وقد نصح هذا الفريق المؤمن قارونَ بقولهم له: «لا تَفْرَحْ. إنَّ اللّٰهَ لا يُحبُّ الفَرِحين. وَابْتَغِ فيما آتاكَ اللّٰهُ الدّارَ الآخِرَة، وَلا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا. وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللّٰهُ إِلَيْكَ، وَلا تَبْغِ الفَسادَ في الْأَرْض. إنَّ اللّٰهَ لا يُحِبُّ المفسدين».

الفريق الثاني: هم ضعاف الإِيمان الماديون، الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها، حيث خُدعوا بقارون، وفُتِنوا بكنوزه، وأُعجبوا بزينته، فلمارأَوْه خارجاً عليهم فيها قالوا: «ياليْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارون. إنَّهُ لَذو حَظٍّ عَظيم».

وما حصل في بني إسرائيل بالنسبة لمال قارون، قد يحصل لأية أمة في أي زمان ومكان.

بعض الناس يمتحنهم اللَّه ويبتليهم عن طريق المال والغِنى والثراء، فيفتح عليه أبواب الرزق، ويُكثِّر بين يديه المال، فيغتر بالمال، ويفتَن به، ويستخدمه في البغي والظلم والفساد، ويسير على طريق قارون.

فإذا رأى الناس هذا «القارون» اختلفت نظرتهم إليه:

أما المؤمنون الثابتون الصابرون الذين أوتوا العلم، فإنهم لا يُخدَعون به، بل ينصحونه، ويذكِّرونه، فإن لم يستجب لهم فإنهم يوقنون بخسارته وهلاكه.

وأما السُّذج الذين يريدون الحياة الدنيا، فإنهم يفتنون به، ويتمنون مكانه.

كم من «القوارين» يظهرون في الأمم! وكم من السذج البسطاء يُخدعون بهؤلاء «القوارين»! وكم من الناس الصالحين يعصمهم اللَّه، فيثبتون ويصبرون وينصحون!.

إن الشخصيات التي يقدمها القرآن في قصصه، ليست شخصيات موقوتة بزمان محدد، وإنما هي «نماذج إنسانية» عامة. تظهر في فترات مختلفة من التاريخ، ويلحظها أولو العلم والبصيرة، ويلحظون انطباقها على بشر آدميين يعيشون معهم، تختلف الأسماء والأماكن في النماذج الإنسانية، في الحالات المكررة، وتبقى السمات والقواعد والخصائص والحقائق.

فقارون. والذين لم يُخدعوا به. والذين خُدعوا فتمنوا مكانه. لا يخلو من هؤلاء زمان ولا مكان!

لا تفرح. إن اللَّه لا يحب الفرحين:

نصح المؤمنون الثابتون الصابرون قارون، ونهوه عن البطر والفرح والتكبر. فقالوا له: «لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحين».

لقد نهوه عن الفرح، وأخبروه أن اللّه لا يحب الفرحين.

وقد يستغرب بعض الناس: هل الفرح حرام حتى ينهوه عنه؟ وهل اللّه لا يحب كل الفرحين؟ وهل نُمنع من الفرح ونعيش في حزن دائم حتى يحبنا اللّه؟ إن الإنسان ــ أي إنسان ــ يفرح، ويحب أن يبقى فرحاً. فما معنى نهيهم له عن الفرح.

وللإجابة على هذه التساؤلات، ننظر ــ نظرة سريعة ــ في كلام القرآن عن الفرح.

قال الإمام الراغب في مفرداته: «الفرح: هو انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية»[1].

وإذا ما نظرنا في آيات القرآن، فإننا نجدها تقسم الفرح إلى قسمين: فرح مباح. وفرح منهي عنه.

أما الفرح المباح الجائز: فهو الانشراح والرضى، بحيث يفرح المؤمن بما أنعم اللّه عليه من النعم، وما منحه من الخيرات واللذات، ثم يستخدم هذه النعم فيما يُرضي اللّه سبحانه. فلا تقوده هذه النعم إلى البطر والتكبر، ولا يجعلها غاية الحياة.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ، فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا، هُوَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعونَ﴾[2].

تأمر الآية بالفرح وتحث عليه، وتُعرِّف الفَرح المأمور به، بأنه فرح بفضل اللّه وبرحمته، وأنه خير مما يجمع الجامعون من متاع الدنيا.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٣٧٤.
(٢) سورة يونس: آية ٥٨.

وقال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللَّهِ أَمْواتاً. بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقون. فَرِحين بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه﴾[1].

فهؤلاء الشهداء في الجنة، وهناك يفرحون بفضل اللَّه لهم.

الفرح الثاني: هو الفرح المحظور المنهي عنه. وهو الذي يقود إلى البطر والتكبر.

قال تعالى في ذم الكفار: ﴿ذٰلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ في الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِ، وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحون﴾[2].

ففرح الكفار بغير حق، وهو يقود للمرح والبطر والتكبر والخيلاء.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنا الإِنْسانَ مِنّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْه، إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفور. وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنّي. إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخور﴾[3].

لا يفرح بنعم اللَّه ـ فرحاً يقود إلى البطر والكبر والخيلاء والإفساد ـ إلا ساذج مغرور، قصير النظر. فما بين يديه من النِّعم ـ من مال وجاه وقوة وصحة وجمال ـ إنما هي هبة من اللَّه ومنحة منه ونعمة، واللَّه يهبها لمن يشاء من الناس، وقتما يشاء وبالمقدار الذي يشاء، وهو قادر على نزع هذه النعمة من صاحبها وقتما يشاء، ولا يمنعه من ذلك أحد ـ سبحانه ـ.

فكيف يفرح بَطِراً متكبراً بنعمة ليس هو مالكها ولا منشئوها؟ وكيف يفرح بطراً متكبراً بنعمة لا يضمنها ولا تدوم له؟

---

(١) سورة آل عمران: آيتي ١٦٩ ـ ١٧٠.
(٢) سورة غافر: آية ٧٥.
(٣) سورة هود: آيتي ٩ ـ ١٠.

ألم نقل إنه ـ إن فعل ذلك ـ ساذج مغرور؟

هذا النوع من الفرح يفسد صاحبه، ويهلكه، ويجعله سبباً لغضب اللَّه وسخطه وعذابه، ويحرمه من محبته ورضوانه. «إِنَّ اللَّه لا يُحِبُّ الفَرِحين».

قواعد قرآنية لاستخدام نعم اللَّه:

عندما نمعن النظر في النصيحة الثانية من المؤمنين الناصحين لقارون، فإننا نستخرج منها قواعد قرآنية شاملة مطردة، لاستخدام نعم اللَّه، والتصرف في المال ـ إحدى هذه النعم ـ.

قالوا له: «وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدّارَ الآخِرَة، وَلا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا، وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْك، وَلا تَبْغِ الفَسادَ في الأَرْض، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدين».

بإمكاننا أن نقسم الآية إلى الجمل التالية:

١ ـ وابتغ فيما آتاك اللَّه الدار الآخرة.

٢ ـ ولا تنس نصيبك من الدنيا.

٣ ـ وأحسن كما أحسن اللَّه إليك.

٤ ـ ولا تبغ الفساد في الأرض.

٥ ـ إن اللَّه لا يحب المفسدين.

وكل جملة من هذه الجمل تقرر قاعدة من القواعد القرآنية الثابتة، حول استخدام نعم اللَّه بصورة عامة، وحول استخدام نعمة اللَّه بالمال على وجه الخصوص.

إن هذه الآية تشير إلى الطريق الصحيح في تَصرُّفنا بالمال، وتَعامُلنا به. وإنها تدلنا على النظرة الصائبة لهذا المال، وكيفية توظيفه في نفع صاحبه وإسعاد الآخرين، وجعْله وسيلة إلى تحقيق العبودية والإِحسان للَّه، ونيل جنته ورضوانه.

القاعدة الأولى: ابتغاء الدار الآخرة في المال والنعم:

يوجهنا قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فيما آتاكَ اللَّهُ الدّارَ الآخِرَة﴾ إلى أن نبتغي ونقصد ونتوجه في المال الذي يمنحنا اللَّه إياهَ، والنعم التي ينعم بها علينا، نحو الدار الآخرة، وأن نجعل كل هذه النعم موجهة نحو الدار الآخرة، وأن تكون كل هذه النعم وسيلة لحصولنا على الفوز والسعادة في الدار الآخرة.

هذه النعم ــ ومنها المال ــ ليست غاية بحد ذاتها، وليست وسيلة للحياة الدنيا فقط، ولكن هذه النعم كلها وسيلة للنجاة والسعادة في الدار الآخرة، وعلى صاحبها أن يُحْسن توظيفها لتحقيق تلك الغاية، وعلى صاحبها أن يحقق في كل واحدة منها، وفي كل جزئية من جزئياتها هذا المعنى القرآني، وهذه القاعدة الصائبة.

بعض الناس قد يخطىء فهم هذه الجملة من الآية ﴿وَابْتَغِ فيما آتاكَ اللَّهُ الدّارَ الآخِرَة﴾ وبخاصة عندما يقرنها بما بعدها ﴿وَلا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ فيستخرج من الجملتين تقسيم النعم ــ ومنها المال ــ قسمين:

القسم الأول: معظم النعم يوجهها للدار الآخرة.

القسم الثاني: بعض النعم يوجهها لنصيبه من الدنيا.

وهذا التقسيم لا يتفق مع توجيه الجملة الأولى.

إنها تدعونا إلى أن نجعل كل ما آتانا اللَّه من النعم للدار الآخرة، لا تُسْتثنى منها واحدة، وهذا ما نلاحظه في كلمات الآية ﴿وابتغ فيما آتاك﴾ أي في الذي آتاك، على العموم والشمول.

أليست النعم وسيلة للسعادة والرفاهية؟ أليس المال وسيلة للكسب والمتاع والرغَد؟ ومتى يحقق الإنسان الرغد والسعادة والرفاهية؟ هل يحقق

هذه المعاني في الدنيا فتكون دائمة باقية؟ إنها في الدنيا موقوتة محدودة فانية! وإنها مشوبة بالكدر والهم! إن هذه المعاني المأمولة المطلوبة المبتغاة، لا توجد على أفضل وأتم وأسمى صورها وحالاتها إلا في دار النعيم، في الجنة. ولذلك يبتغيها المؤمن الفطن الزكي، الذي وفقه اللّه إلى إدراك هذه الحقيقة، يبتغيها من خلال توظيف نعم اللّه كلها لتحقيق تلك المطالب العالية السامية، فيبتغي في كل نعم اللّه عليه، تلك الآمال في الدار الآخرة. ﴿وابْتَغِ فيما آتاكَ اللَّهُ الدّارَ الآخِرة﴾.

القاعدة الثانية: «وَلا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا»:

حيث تدعو هذه القاعدة كل من أنعم اللّه عليه بنعمة، ووظفها للدار الآخرة، أن لا ينسى نصيبه من الحياة الدنيا.

لقد وضحتْ هذه القاعدة كيفية تطبيق القاعدة الأولى، وأزالت ما قد يثور في بعض الأذهان من إشكالات أو أخطاء في تطبيقها:

فقد لا يعرف بعض المسلمين كيفية ابتغاء الدار الآخرة في نعم اللّه، فيحرمها على نفسه في الحياة الدنيا، فلا يستمتع بها الاستمتاع الطيب المباح، ولا يستخدمها الاستخدام الصحيح الحلال فيعيش في دنياه محروماً من ذلك الاستمتاع، ويظن أنه بهذا الحرمان يبتغي فيها الدار الآخرة، ليذوقها هناك!.

ألم يفهم الرهبان هذا الفهم؟ ألم يحرموا على أنفسهم الاستمتاع المباح الحلال ببعض النعم ـ مثل الزواج والمال والتملك ـ؟ ألم يحرم بعض المسلمين على نفسه ـ خطأ ـ بعض المباحات والطيبات، باسم الزهد في الدنيا، وتوظيفها للدار الآخرة؟

إن الآية ترد على هؤلاء وأولئك خطأ الفهم وسوء النظر، وتنكر عليهم الامتناع عن الاستخدام الحلال، والاستمتاع الطيب بنعم اللّه في الدنيا. وتدعوهم إلى أن يُحسنوا الاستمتاع بها في الدنيا.

إنهم يبتغون فيها كلها الدار الآخرة، نعم! لكنهم مطالَبون بأن لا ينسوا نصيبهم فيها كلها من الحياة الدنيا، بمعنى أنهم مطالبون بأن يعيشوا فيها في حياتهم الدنيا، بأن يجعلوها وسيلة للحياة الطيبة الهانئة الرغيدة في الدنيا، وهذا من الابتغاء فيها نحو الدار الآخرة!.

إن الجملتين القاعدتين «وابتغ فيما آتاك اللَّه الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا» تربطان ما بين الدنيا والآخرة برباط قرآني دقيق، وتنسِّقان ما بين استخدام النعم في الدنيا، وتوفيرها للاستمتاع بها يوم القيامة.

إنهما تقرران: أن من معاني ابتغاء الدار الآخرة في نعم اللَّه، الاستمتاع الطيب بها في الحياة الدنيا. فيجمع المؤمن بذلك بين الحُسنْيين ـ بتناسق واتزان ـ:

الأولى: الاستخدام الحلال لهذه النعم في الدنيا، والاستمتاع الطيب بها، وبذلك يعيش حياته الدنيا مرفَّهاً منعَّماً، سعيداً هانئاً مطمئناً.

الثانية: ابتغاء الدار الآخرة في نفس النعم التي استمتع بها في الدنيا، وجعْلها وسيلة لفوزه ونجاته وسعادته هناك في جنات النعيم.

الماديون أصحاب الدنيا، يريدون النعم لدنياهم فقط، وينسون نصيبهم من الآخرة فيها. أما المؤمن فإنه يتمتع بها في دنياه مثل ما يستمتعون ـ بل أفضل مما يستمتعون ـ من خلال توظيفها لسعادته في الآخرة.

والرهبان ومَنْ شاكلهم يريدون النعم لآخرتهم ـ كما يزعمون ـ ولذلك ينسون نصيبهم من الدنيا فيها. أما المؤمن فإنه يوظفها لسعادته في الآخرة، ويبتغي فيها الدار الآخرة، ومع ذلك يستمتع بها في حياته الدنيا.

وبمعنى هاتين القاعدتين القرآنيتين، ورد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ

زِينَةَ اللَّه الّتي أَخْرَجَ لِعِبادِه، وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْق؟ قُلْ هِيَ لِلّذينَ آمَنوا في الحياةِ الدُّنْيا، خالِصَةً يَوْمَ القِيامَة﴾[١].

من حرم زينة اللّه التي أخرج لعباده؟ من حرم هذه الزينة والطيبات على نفسه في الدنيا بزعْم توفيرها للآخرة، والابتغاء فيها الدار الآخرة؟ إنها للمؤمنين في الدنيا، يعيشون بها، ويستمتعون فيها، ويشاركهم الكفار الاستمتاع فيها في الدنيا، لكنها لهم وحدهم خالصة يوم القيامة!

القاعدة الثالثة: «وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْك»:

تقرر القاعدة أن اللّه قد أحسن إلى الإنسان إحساناً عظيماً، عندما أنعم عليه بتلك النعم. وهذا الإحسان من اللّه تفضُّل منه وتكرُّم وإنعام، سبحانه.

وتدعو هذه القاعدة الإنسان إلى مقابلة إحسان اللّه له بإحسان، من باب الشكر: ﴿هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إلاّ الإِحْسان؟ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان؟﴾[٢].

الإحسان من خلال حمد اللّه وشكره على إنعامه بتلك النعم، وإحسانه في ذلك لهذا الإنسان. وقد قال اللّه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزيدَنَّكُمْ﴾[٣].

والإحسان بأن يبتغي في تلك النعم الدار الآخرة، وأن لا ينسى أثناء ذلك نصيبه منها في الحياة الدنيا.

والإحسان بأن يوظف هذه النعم الربانية في تقديم النفع لعباد اللّه، ونشر الخير بينهم، وترسيخ قيم الحق في حياتهم.

إن قيام الإنسان بالإحسان في نعم اللّه عليه دليل على تمكُّن معاني الحق في نفسه، وعلامة على صفائه وصدقه وإخلاصه وكرمه.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٣٢.

(٢) سورة الرحمن: آيتي ٦٠ ــ ٦١.

(٣) سورة إبراهيم: آية ٧.

إنه لا يحسن إلا الكريم الصادق الطيب الخيِّر الفاضل. إنه يقابل إحسان اللَّه بإحسان، ويعبد اللَّه بإحسان، ويستخدم نعم اللَّه بإحسان، ويستمتع بها في دنياه بإحسان، وينفق منها على عباد اللَّه بإحسان، ويتعامل معهم بإحسان، ويعيش حياته الدنيا كلها بإحسان. وعندها يديم اللَّه عليه نعمه. ويقابل إحسانه بإحسان. و«هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان؟».

القاعدة الرابعة: «وَلا تَبْغِ الفَسادَ في الْأَرْضِ»:

لا تقصد الفساد في الأرض، ولا تستخدم نعم اللَّه في الفساد في الأرض. ولا تجعل نعمة المال التي أنعم اللَّه بها عليك وسيلة للفساد في الأرض.

تجتمع القاعدتان ـ الثالثة والرابعة ـ على توجيه الإِنسان إلى حسن استخدام نعم اللَّه:

فالقاعدة الثالثة توجهه إلى الإِحسان مع اللَّه والإِحسان إلى الناس من خلال استخدامه لنعم اللَّه.

والقاعدة الرابعة تحذره من الاستخدام السيء لتلك النعم، من خلال الإِفساد به في الأرض.

إن نعم اللَّه عند من لا يحسنون النظر إليها، ولا يجيدون استخدامها والتصرف فيها، هي وسيلة للفساد والإِفساد. كم من هؤلاء من يستخدم نعمة المال في الفساد والطغيان! وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة الجاه والسلطان في الفساد والطغيان! وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة القوة في الفساد والطغيان! وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة الصحة والعافية في الفساد والطغيان! وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة الشهوة في الفساد والطغيان! وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة العقل والموهبة والذكاء في الفساد والطغيان! وكم

وكم وكم مما نرى من المتكبرين الظالمين الذين يستخدمون نعم اللّه المختلفة في الفساد والطغيان!

إنه لا يفسد في الأرض إلا ظالم متكبر مغرور، ولا يستخدم نعم اللَّه في الفساد في الأرض إلا ساذج غِرٌّ مخدوع.

وما الذي ينتج عن استخدام هؤلاء المتكبرين المغرورين لنعم اللَّه في الإفساد والفساد؟

إنهم يعطلون الوظيفة الأساسية لهذه النعم، ويحولونها عن الوجه الصحيح لها إلى وجه باطل مرفوض.

وإنهم يُفسدون بها وجه الحياة، ويؤذون بها عباد اللّه، بدل أن يصلحوا الحياة وينفعوا عباد اللَّه.

وإنهم بذلك يطلبون غضب اللَّه، ويستقدمون عذاب اللّه، ويستحقون نار اللَّه.

وهم نتيجة لكل ذلك: خاسرون هالكون، ساقطون فاشلون!.

شتان بين محسن صالح كريم يستخدم النعم في الإحسان ونشر الخير بين الناس، فيربح ويفوز.

وبين ظالم مغرور مخدوع يستخدم النعم في الفساد والإفساد، فيخسر ويهلك!.

القاعدة الخامسة: «إنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ المُفْسِدِين»:

إنها تقرر حقيقة دائمة مطردة، لا تختلف في أي زمان ولا مكان: إن اللَّه لا يحب المفسدين.

لا يحب المفسدين، لأنهم يفسدون في الأرض، ويكونون دعاة للشر والظلم والرذيلة، واللَّه يحب المصلحين دعاة الخير والعدل والفضيلة.

لا يحب المفسدين لأنهم يؤذون الناس، واللَّه يحب الذين ينفعون الناس.

وإذا لم يوفَّق إنسان إلى محبة اللَّه فماذا بقي له؟ وإذا فات الإنسانَ محبةُ اللَّه فهل ينفعه أحد؟ إذا غضب اللَّه على إنسان وأوقع به عذابه فهل ينصره أحد؟

إن الذي فاتته محبة اللَّه قد خسر كل شيء، وإن الذي نال محبة اللَّه فاز بكل شيء.

فلنتَخَلَّقْ بالصفات التي يحبها اللَّه، ولنتَخَلَّ عن الصفات التي لا يحبها اللَّه. لننال محبة اللَّه!.

أوتيته على علمٍ عندي:

كيف استقبل قارون نصيحة الناصحين؟ وكيف نظر إلى القواعد الثابتة حول استخدام نعم اللَّه؟

لقد رفض النصيحة، وأعمى عينيه عن الحقيقة. ورد على كلام الناصحين بقوله: «إنما أوتيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدي!».

أوتيت هذا المال على علم عندي. إن اللَّه آتاني هذا المال لأنني أستحقه، واللَّه يعلم أنني أستحقه، ولو لم أكن أستحقه لما أُوتيتُه.

واختلف المفسرون في بيان المقصود بقوله: «إنما أوتيته على علم عندي». ذكر الإمام ابن كثير من أقوالهم ثلاثة:

الأول: «إن اللَّه إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ومحبته لي. فتقديره: إنما أُعطيتُه لعلم اللَّه فيَّ أنّي أهل له. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانا. ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قال: إِنَّما أُوتيتُه عَلى

عِلْم﴾[1]. أي على علم من اللّه بـي. وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنّا مِنْ بَعْدِ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقولَنَّ هٰذا لِي﴾[2]. أي هذا أستحقه.

الثاني: «إنه كان يعاني علم الكيمياء».

وعلم الكيمياء عند السابقين له معنى غير معناه العلمي المعاصر. بل هو معنى أسطوري خيالي يقوم على خرافة، فهو عنـدهم علم يستطيـع به صاحبه أن يحوِّل المعادن المختلفة من حديد ونحاس إلى ذهبٍ خالصٍ صافٍ. فقارون عند هؤلاء كان يقدر على تحويل ما أمامه من معادن إلى ذهب، ولهذا كثر ماله، وزادت كنوزه.

وقد رد ابن كثير هذا القول: «وهذا القول ضعيف. لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل، لأن قلب الأعيان لا يقدر عليـه أحد إلا اللّه عز وجل. قال تعالى: ﴿يا أَيُّها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعوا لَه: إِنَّ الذينَ تَدْعون مِنْ دونِ اللّهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً وَلَو اجْتَمَعوا لَه﴾[3].

الثالث: إنه كان يعرف اسم اللّه الأعظم، فدعا اللّه به، فتمـوَّل بسببه»[4].

المهم أن قارون ظن أن اللّه أنعم عليه بالمال لأنه يستحقه ولأن اللّه يحبه، ولأنه أهل لتملك ذلك المال، ولأنه يملك صفات خاصة يستحق بها أن يتملك هذا المال، وغيره ليس أهلاً لذلك قال: «إنما أوتيتـه على علم عندي».

---

(١) سورة الزمر: آية ٤٩.
(٢) سورة فصلت: آية ٥٠.
(٣) سورة الحج: آية ٧٣.
(٤) تفسير ابن كثير ٣: ٣٩٩.

لم يعرف قارون حقيقة ابتلاء اللّٰه له بالمال، وأن إنعام اللّٰه على أحد بالمال ليس دليل محبته له، وأن تقليل المال في يد آخر ليس دليل غضب اللّٰه عليه، وأن المال ليس هو مظهر التكريم أو الإهانة. لم يعرف قارون كل هذا. ولهذا سقط في امتحان المال.

كم من الناس الذين أنعم اللّٰه عليهم بالمال، ينظرون لتلك النعمة بمنظار قارون، ويقيسونها بمقياس قارون، ويفهمونها كما فهمها قارون. ويقولون ــ بلسان الحال أو لسان المقال ــ كما قال قارون! ويتصرف أحدهم على أساس هذه الجملة: «إنما أوتيته على علم عندي!».

صاحب الجنتين الظالم لنفسه، ذكرت سورة الكهف قوله لما دخل جنته: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِه. قال: ما أَظُنُّ أَنْ تَبيدَ هٰذِهِ أَبَداً. وَما أَظُنُّ السّاعَةَ قائِمَة. وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً﴾[1].

إن المال فتنة وابتلاء وامتحان، وليست كثرته علامة المحبة والتفضيل، ولا قلته علامة الإهانة والكراهية. إن أساس القبول عند اللّٰه هو الإيمان والتقوى، وإن الكريم عند اللّٰه هو التقي وليس مجرد الغني، وإن الأكرم عند اللّٰه هو الأتقى، وليس مجرد الأغنى. وهذا هو صريح القرآن: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقاكُمْ. إِنَّ اللّٰهَ عَليمٌ خَبير﴾[2].

هذا ما يفهمه المؤمنون الأتقياء، وأصحاب التصور الإيماني القرآني السليم. ولذلك لا يطغون ولا يبغون إذا كثر المال بين أيديهم، بل يستخدمونه في طاعة اللّٰه، ويشكرون فيه الرب المنعِم سبحانه. كما أنهم لا يحزنون ولا ييأسون إذا قل المال بين أيديهم.

---

(١) سورة الكهف: آيتي ٣٥ ــ ٣٦.
(٢) سورة الحجرات: آية ١٣.

أما من فقد المقياس الإيماني والمنظار القرآني، فإنه يظن أن المال هو مجال التكريم أو الإهانة. ويتصرف إنْ كثر المال بين يديه تصرف قارون، ويقول: «إنما أوتيته على علم عندي». وإذا قل المال بين يديه يحزن ويكتئب.

وقد ذكر القرآن تصور هؤلاء بقوله: ﴿فَأَمّا الإِنْسانُ إذا ما ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ، فيَقولُ رَبّي أكْرَمَن. وَأَمّا إذا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُه، فَيَقولُ رَبّي أهانَن﴾[1].

فخرج على قومه في زينته:

وهذه جريمة أخرى من جرائم قارون، تضاف إلى جرائمه السابقة، التي دفعته إليها كثرة أمواله.

لم يكتف بغروره بكثرة أمواله، ولم يكتف بتكبره وبطره وبغيه وظلمه من خلال أمواله، ولم يكتف برفض نصيحة المؤمنين الناصحين، ولم يكتف بخطأ نظرته إلى أمواله، وتوظيفها لملذاته وشهواته ودنياه، ونسيانه الدار الآخرة، واعتباره كثرة ماله دليل محبة اللّٰه له.

لم يكتف بكل تلك الجرائم والممارسات الخاطئة، بل أضاف إليها جريمة أفظع: لقد أصبح فتنة لقومه من بني إسرائيل. طغى عليهم طغياناً كبيراً، وبغى عليهم بغياً بارزاً، وفتنهم فتنة طاغية، وامتحنهم امتحاناً قاسياً صعباً: «فخرج على قومه في زينته».

«فخرج على قومه في زينته» تصور لنا بظلالها وإيحاءاتها وكلماتها، الزينة القارونية المنتفشة المنتشية المتعاظمة، التي يذهب خيال القارىء في تخيلها كل مذهب، ويرسم الخيال لها صورة متخيَّلة مكبَّرة ضخمة.

---

(١) سورة الفجر: آيتي ١٥ ــ ١٦.

مهما افترضنا زينة قارون التي خرج على قومه فيها، ومهما قلنا عنها، فسيبقى كلامنا عنها قاصراً، وافتراضنا قليلاً. فلا داعي لأن نقول عنها شيئاً، لا سيما أنه لم يرد عنها شيء في الأحاديث الصحيحة، وما روي حولها من روايات، منقولةٌ عن الإسرائيليات، التي لا نجيز الذهاب إليها أو يراد شيء منها.

ثم إن إيراد تلك الروايات غير الثابتة يحرم خيال القارىء من لذة تخيل زينة قارون التي خرج فيها، ورسْم صورة منتفشة متعاظمة لها. فلندعْ للخيال يتخيل ما شاء حول تلك الزينة، ولا نقيده بشيء من الأقوال والروايات التي لم تصح.

فخرج على قومه في زينته. ليفتنهم ويطغى عليهم، ليريهم أنه أغنى وأقوى منهم، وأنه هو الذي يعيش حياته مرفَّهاً منعَّماً، وأنه هو الذي يعرف معنى الحياة، أما هم فهم محرومون من لذة العيش وطعم الحياة.

وهذا التصرف الفاجر من قارون، هو نفس تصرف كل من سار على طريقه، واستخدم ماله في الفتنة والإيذاء، والتكبر والبطر، والانتفاش والخيلاء.

كثيرون هم الذين يخرجون على الآخرين بزينتهم ليكسروا قلوبهم، ويفتنوهم.

وكثيرون هم الذين ينشرون على الآخرين، ويذيعون عليهم أخبار ترفهم وفجورهم ومجونهم ومظاهر زينتهم. يتحدثون عن ألوان طعامهم وشرابهم، ومظاهر لهوهم وعبثهم، وصور زينتهم وملابسهم وأثاثهم ورياشهم وبيوتهم وقصورهم.

بعض هؤلاء الذين يخرجون على قومهم بزينتهم، يفوقون قارون بدرجات ودرجات، ومن ثم يكونون أشد طغياناً وبغياً وابتلاء وفتنة من قارون.

الذين خُدعوا بقارون:

كان قارون ومالُه فتنة لقومه، فلما خرج عليهم في زينته خُدع به فريق منهم، وقد أخبر عنهم القرآن بقوله: ﴿قالَ الذينَ يُريدونَ الحيَاة الدُّنْيا: يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أوتِيَ قارون. إنَّهُ لَذو حَظٍّ عظيم﴾.

وصفهم القرآن بأنهم الذين يريدون الحياة الدنيا.

وهذه الصفة هي أساس انحرافهم، وسبب خطأ نظرتهم واختلال مقاييسهم: إنهم يريدون الحياة الدنيا. ولذلك اعتبروا قارون مالكاً من مظاهر زينة الحياة الدنيا أكثر منهم، واعتبروا أنفسهم أمامه فقراء محرومين، فتمنوا أن يملكوا من زينة الحياة الدنيا مثلما يملك، وأن يحوزوا من المال والكنوز مثلما يحوز، وأن يعيشوا كما يعيش. فقالوا بحسرة: «يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون: إنه لذو حظ عظيم».

اعتبروا قارون ذا حظ عظيم بسبب زينته وأمواله، لأن مقياس الحظ عندهم هو كثرة الأموال!

لو لم يكونوا يريدون الحياة الدنيا لما خُدعوا بقارون، ولما فتنوا بزينته، ولما اعتبروا الحظ العظيم بكثرة الأموال والزينة والمتاع.

سر الانخداع هو أنهم «يريدون الحياة الدنيا». والقرآن عندما ذكر لنا صفة أولئك المخدوعين، فكأنما يدعونا إلى أن لا نتصف بها حتى لا نُخدع بالمظاهر الدنيوية الزائفة كما خُدعوا، وأن لا نتحسر كما تحسروا. يدعونا إلى أن لا نريد الحياة الدنيا، بل نستعلي عليها، ونريد الدار الآخرة، ونسعى لها سعيها.

وصدق اللّه، فكل من أراد الحياة الدنيا ونسي الحياة الآخرة، سعى إلى الإكثار من مظاهرها وزينتها، واعتبر مظاهر الحظ العظيم في الإكثار من ذلك،

وقاس نفسه بمن يملكون منها ما يملكون، فحزن واكتأب وتحسر، وتمنى ما عندهم بلهفة وحسرة واشتياق.

أما من أراد الآخرة، وطلب ما فيها من نعيم دائم، واشتاق إلى لذاتها وخيراتها، وعرف قيمة الحياة الدنيا وما فيها. فإنه لا يُخدع بما يملكه المالكون من الدنيا، ولا يتمنى ما عندهم، ولا يذوب حسرة ولهفة إليه، بل يستعلي على تلك المظاهر والسفاسف.

وصدق اللّه حيث يقول: ﴿إِعْلَموا أَنَّما الحَياةُ الدُّنْيا: لَعِب، وَلَهْو، وَزينَة، وَتَفاخُرُبَيْنَكُمْ، وَتَكاثُرٌ في الْأَمْوالِ وَالْأَوْلاد. كَمثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَباتُه، ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً، ثُمّ يَكونُ حُطاماً. وَفي الآخِرَة: عَذابٌ شديد، وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوان. وما الحَياةُ الدُّنْيا إلّا مَتاعُ الغُرور. سابِقوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْض، أُعِدَّتْ لِلّذينَ آمنوا بِاللَّهِ وَرُسُلِه، ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاء. وَاللَّهُ ذو الفَضْلِ العَظيم﴾[1].

من هو ذو الحظ العظيم؟

الذين يريدون الحياة الدنيا، خُدعوا بقارون، وفتنوا بما يملك. ولما رأوه في زينته اعتبروه ذا حظ عظيم.

فالحظ العظيم عندهم هو الزينة الدنيوية، ومظاهر الترف والإسراف، وصاحب الحظ العظيم هو من ملك تلك المظاهر والزينة.

لكن هل حقيقة الأمر هكذا؟ هل هذا هو مقياس الحظ العظيم؟ هل من ملك ذلك يكون ذا حظ عظيم؟

إن مظاهر الحياة الدنيا وألوان زينتها، ليست دائمة ولا باقية، وإنما هي

---

(١) سورة الحديد: آيتي ٢٠ ــ ٢١.

موقوتة محددة، مصيرها الزوال والفناء. فكيف يكون تملك هذه المظاهر والألوان هو مقياس الحظ العظيم؟ كيف تقاس الأشياء بما يصير إلى الزوال والفناء؟

وإن التمتع بهذه المظاهر والألوان بترف وإسراف ليس دائماً ولا باقياً، بل مصيره الزوال والفناء، وسيحل محله الفقر والحرمان، فكيف يكون صاحبه ذا حظ عظيم، وهذا مصيره وهذه نهايته؟

ما كان قارون في الحقيقة ذا حظ عظيم، طالما هذه حقيقة زينته، وهذا مصير استمتاعه بها. وما كان ذا حظ عظيم من كان مثل قارون في تملكه وزينته واستمتاعه، وإنْ ظن المخدوعون غير ذلك.

ذو الحظ العظيم في الحقيقة من ملك حقيقة الأمور الباقية لا مظاهرها الزائفة الخادعة، ذو الحظ العظيم من عاش حقيقة الحياة، وذاق طعمها وحلاوتها. ذو الحظ العظيم من وجد الإيمان والرضى والطمأنينة والسعادة. ذو الحظ العظيم من فاز باللذات الباقية والنعيم الدائم. ولا يكون هذا إلا للمؤمن الصادق الصابر المجاهد.

قال تعالى: ﴿وَلا يَحْزُنْكَ الذينَ يُسارِعونَ في الكُفْرِ. إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرّوا اللَّهَ شَيْئاً. يُريدُ اللَّهُ أَلّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً في الآخِرة وَلَهُمْ عَذابٌ عَظيم﴾[1].

الحظ العظيم هو الحظ في الآخرة لا في الدنيا، هو في الاستمتاع بنعيم ولذات الجنة، فمن حُرم من ذلك النعيم فلا حظ له. فالكفار لا حظ لهم في الحقيقة لحرمانهم من ذلك النعيم.

والحظ العظيم في الدنيا يكمن في السمو الأخلاقي والتحلي بالآداب والفضائل، ومعاملة الآخرين بسماحة ويسر وعفو ورحمة، وتذوق طعم الرضى

(١) سورة آل عمران: آية ١٧٦.

والطمأنينة والسعادة، وذو الحظ العظيم من رزقه اللّه هذا الفضل، وأنعم عليه بهذه النعمة. قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوي الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئة، إِدْفَعْ بِالتي هِيَ أَحْسَن، فَإِذا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَميم. وَما يُلَقّاهَا إِلّا الذينَ صَبَروا، وَما يُلَقّاها إِلّا ذُو حَظٍّ عَظيم﴾(١).

قال الذين أوتوا العلم:

بعد أن بيَّن لنا القرآن صفة الذين خُدعوا بقارون، ودلنا على سر انخداعهم به، بيَّن لنا صفة الذين لم يخدعوا به، ونجحوا في الفتنة والامتحان. وهم الذين سمعوا أمنية الذين خُدعوا بقارون في أن يكون لهم مثل ما له، فآلمهم ذلك التمني من أولئك المخدوعين المفتونين، وردوا عليهم، وصحَّحوا لهم الأمر، وصوَّبوا لهم النظر.

قال تعالى: ﴿قال الذينَ أوتوا العِلْم: وَيْلَكُمْ ثوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحَاً، ولا يُلَقّاها إِلّا الصّابرون﴾.

وكأن القرآن يدلنا على سر انتصارهم واستعلائهم ونجاحهم، وأساس صدق أحكامهم، وحسن تقويمهم، ونفاذ نظرتهم. يدلنا على ذلك لنضع أيدينا عليه، فنأخذه ونلتزمه.

إنه العلم: ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾.

لقد نظر هؤلاء الذين أوتوا العلم إلى قارون وزينته وأمواله بمنظار العلم، وعرضوه على ما عندهم من العلم، وتعاملوا معه على أساس العلم، ووزنوه بميزان العلم. فوجدوه لا يملك شيئاً، وجدوه فقيراً بائساً. تعيساً، وجدوه هالكاً خاسراً محروماً، وجدوه معذَّباً شقياً مطروداً.

---

(١) سورة فصلت: آيتي ٣٤ ــ ٣٥.

فدعَوْا الآخرين المخدوعين به، إلى معرفة هذه الحقيقة، لتزول عن عيونهم الغشاوة.

إن العلم هو السر والأساس، وبه العصمة والنجاة.

العلم بحقائق الأشياء، العلم بأسباب ومظاهر وألوان الحظ والسعادة والخير، العلم بالأمور الباقية الدائمة وطلبها والسعي إليها، العلم بالأمور والمظاهر والألوان الزائلة الزائفة، وعدم الاعتزاز بها.

إنه العلم الرباني الصائب، فما يخدع ذو علم، وما يغتر ذو علم، وما يريد الدنيا ومظاهر زينتها وينسى الآخرة وثواب اللّه فيها ذو علم.

ولعله لأجل هذا المعنى قال اللّه لنا: ﴿إعْلَموا أَنَّما الحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ في الْأَمْوالِ وَالْأَوْلاد، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَباتُهُ، ثُمَّ يهيج فَتَراهُ مُصْفَرّاً، ثُمَّ يكونُ حُطاماً. وَفي الآخِرَةِ عَذابٌ شَديَد، وَمَغْفِرةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوان. ومَا الحَياةُ الدُّنيا إلاّ مَتاعُ الغُرور﴾[٢].

إعلموا. إعلموا هذه الحقائق حتى لا تخطئوا النظر، إعلموا حقيقة الدنيا وزينتها حتى لا تخدعوا بها. إعلموا، فلا ينفعكم إلا العلم، ولا ينجيكم إلا إذا كنتم من الذين أوتوا العلم.

أين الذين أوتوا نصيباً من الحياة وزينتها من الذين أوتوا العلم؟ هل يستوي الفريقان؟

ثواب اللّه خير لمن؟

ماذا قال الذين أوتوا العلم للمخدوعين؟

قالوا: «ويلكم ثواب اللّه خير. لمن آمن وعمل صالحاً»

(١) سورة الحديد: آية ٢٠.

لقد دعوا هؤلاء المخدوعين إلى معرفة حقائق الأمور، ووجهوهم إلى طلب ما يستحق أن يُطلب، حيث أرشدوهم إلى إبتغاء ثواب اللّه.

ثواب اللّه خير. خير من مال قارون وكنوزه وزينته، خير من مظاهر الدنيا وزخارفها، خير من كل ما ملكه المالكون منها. خير لأنه هو الباقي الدائم الخالد، خير لأنه هو الذي تأنس به النفس، وتسعد به الروح، وتلذ به الحياة. خير لأنه دليل محبة اللّه ورضاه وفضله.

ثواب اللّه خير. ويستحق أن تطلبه النفوس، وتتوجه إليه الأنظار، ويسير إليه الناس بهمة وعزيمة، يستحق أن تنفق فيه الأموال والأوقات والأعمار، وأن توظَّف له الطاقات والقدرات والإمكانات.

ثواب اللّه خير. لمن آمن وعمل صالحاً.

إنه ليس كل أحد يرجو ثواب اللّه، ولا كل من رجا ثواب اللّه يفوز به.

لا يرجو ثواب اللّه إلا الذي أوتي العلم.

ولا ينال ثواب اللّه إلا من آمن وعمل صالحاً. فطريق نيل ثواب اللّه، والفوز بالنعيم الدائم، هو الإيمان والعمل الصالح. لا يُنال ثواب اللّه بمجرد الآمال والأمنيات والأحلام. ولا بالظن والزعم والأدعاء. لا يُنال ثواب اللّه إلا بالسير في الطريق الوحيد الذي يوصل إليه: طريق الإيمان والعمل الصالح: ﴿ويلكم ثواب اللّه خير. لمن آمن وعمل صالحاً﴾.

ومما يصدِّق قولَ الذين أوتوا العلم، قول اللّه تعالى: ﴿المالُ وَالبنونَ زينَةُ الحَياةِ الدُّنْيا. وَالباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً، وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[1].

هناك أناس لا يريدون إلا الحياة الدنيا وزينتها، لا يريدون إلا ثواب

(١) سورة الكهف: آية ٤٦.

الدنيا، وينسون ثواب اللّه، وهناك مؤمنون صالحون يريدون ثواب اللّه، فيعطيهم اللّه ثواب الدنيا والآخرة: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنْها، وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها. وَسَنَجْزي الشّاكرين﴾(١). ﴿مَنْ كانَ يُرِيْدُ ثَوابَ الدُّنْيا، فَعِنْدَ اللّهِ ثَوابُ الدُّنيا وَالآخِرَة﴾(٢).

وقد وعد اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وأرادوا ثواب اللّه، بمنحهم ذلك الثواب الحسن يوم القيامة، وقال لهم: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ، وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنهار. ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللّه. وَاللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثّواب﴾(٣).

ولا يلقاها إلا الصابرون:

ثواب اللّه خير لمن آمن وعمل صالحاً. نعم. هذه حقيقة صادقة قاطعة، لا شك فيها ولا لبس ولا تخلف.

لكن هل كل الناس يدركون هذه الحقيقة ويعرفونها؟ هل كل الناس يُلَقَّوْنَها ويتعاملون معها؟

لا. فهناك أناس على عيونهم غشاوة فلا يرونها، وعلى قلوبهم أكنة فلا يدركونها، وفي عقولهم خلط ولبس وتمويه واضطراب فلا تعيها.

لقد أخبر القرآن أنه ﴿لا يلقاها إلا الصابرون﴾.

الصبر هو الشرط لإدراك هذه الحقيقة وتلقيها. والصابر هو المؤهل لتلقيها من اللّه سبحانه. وغير الصابر محروم منها.

لكن ما هو الصبر؟

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٥.
(٢) سورة النساء: آية ١٣٤.
(٣) سورة آل عمران: آية ١٩٥.

إنه الصبر على الابتلاء والامتحان. الصبر على الفتنة الطاغية، والمحنة القاسية.

عندما يرى المؤمن أصحاب الأموال والكنوز، يستعلي عليهم بالصبر. وعندما يرى المظاهر والشهوات يستعلي عليها بالصبر. وعندما يرى المفتونين المخدوعين بزينة الدنيا وملذاتها لا يجد أمامه إلا الصبر، ولا ينجيه من السقوط مثلهم إلا الصبر.

الصبر زاد عظيم، ومدد لا ينقطع، وعطاء لا ينفد.

ولا يُلقاها إلا الصابرون. الذين يعلمون أن ثواب اللّه خير. وان ما عند اللّه خير. وأن نعيم اللّه خير، وأن جنة اللّه خير. فيطلب هذا الخير بصبر، ويسعى إليه بصبر، ويبقى على موقفه بصبر، ويثبت على هذه الحقيقة بصبر.

نهايـــة قارون:

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْض، فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرونَـهُ مِنْ دونِ اللَّه، وَما كان مِنَ الْمُنْتَصرين﴾.

كان قارون فتنة لقومه، وقد وقعت الفتنة وتم الامتحان، وآن لقارون أن ينتهي دوره.

ولقد كان المال لقارون فتنة، فافتتن به وسقط في الامتحان، وحقت عليه النتيجة، وحلّت عليه العقوبة، وحاق به العذاب.

لقد طغى قارون على قومه وبغى، وتاه وتكبر وتجبر، وفَخَر وتَاه، وخرج على قومه في زينته، وانتشى وانتفش، ففسد وأفسد، وبلغ غاية السوء في كل هذه الجرائم، وحان الوقت ليقطف الثمرة المرة لتلك الجرائم الفظيعة.

لقد أمهل اللّه قارون لعله يتذكـر فلم يتذكـر، ونصحه النـاصحون فلم ينتصح، وزجروه فلم ينزجر، ووعظوه فلم يتعظ.

نسي قارون ربه، فأوكله اللّٰه إلى نفسه، واعتز بماله وكنوزه وهي لن تنفعه، ولن تنصره، ولن تدفع عنه عذاب اللّٰه.

﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾.

نلاحظ الربط بين هاتين الجملتين: «فخرج على قومه في زينته» و«فخسفنا به وبداره الأرض».

الربط بينهما بحرف الفاء، وعطف الجملة الثانية على الجملة الأولى بالفاء، وحرف الفاء يدل على الترتيب والتعقيب ـ كما يقول علماء اللغة ـ.

وهذا معناه أن الجملة الثانية ترتبت على الجملة الأولى، بمعنى أن الجملة الأولى كانت سبباً في وقوع الثانية. كما أن الجملة الثانية وقعت عقب الجملة الأولى مباشرة.

بعد هذه الملاحظة لمعنى الفاء، والربط بها بين الجملتين، نقرر أن خروج قارون على قومه في زينته مختالاً متبختراً، كان السبب المباشر في إيقاع العذاب عليه، وخسف الأرض به وبداره.

ويبدو أن الحكمة من ذلك هي أنه بلغ نهاية المطاف في السوء والبغي والظلم والإفساد، عندما خرج على قومه في زينته، ولم يبق أمامه مجال للتراجع، واستخدم كل صور وألوان الإيذاء لقومه. فماذا بقي له؟

وهو بذلك الزهو والخروج والانتفاش قد استجلب غضب اللّٰه، واستقدم عذابه، وساعَدَ على مسارعة وصوله إليه، وإيقاعه به.

وهكذا كل الأغنياء المتكبرين البطرين، كلما ازدادوا تكبراً وبطراً، ازدادوا إثماً وعذاباً، وكلما بالغوا في الترف والفجور والزهو والانتفاش والغرور، استجلبوا عذاب اللّٰه ومقته، وساعدوا على الإسراع في وقوعه.

وصدق اللَّه القائل: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الّذينَ كَفَروا أَنَّما نُمْلي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ، إِنَّما نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدادوا إِثْماً، وَلَهُمْ عَذابٌ مُهين﴾[1].

وقد ترتب على خروج قارون على قومه في زينته. خسْفُ اللَّه به وبداره ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾.

وبذلك الخسف انتهى قارون، وزالت فتنته، واختفت أمواله.

انشقت الأرض وابتلعته، وابتلعت داره وما حوته من أمواله، وما ضمته من كنوزه.

ولم يفصِّل القرآن كيفية الخسف الذي تم، ولذلك لا يجوز لنا أن نأخذ في ذلك عن الإسرائيليات. فنترك الآية على إجمالها، ونترك القصة على إبهامها، ولا نقول أكثر مما قال القرآن.

وقد ذكر علماء التفسير بالمأثور عند تفسيرهم لذلك الخسف حديثاً صحيحاً عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يشير إليه عن طريق الإشارة والتلميح لا عن طريق النص والتصريح.

روى البخاري عن عبداللَّه بن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنهما ـ أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال: «بينما رجل يجر إزاره، إذ خُسِفَ به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[2].

قالوا: المقصود في الحديث هو قارون.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري أثناء شرحه للحديث: «وجزم الكلاباذي في معاني الأخبار بأنه قارون. وكذا ذكر الجوهري في الصحاح.

(١) سورة آل عمران: آية ١٧٨.

(٢) البخاري: كتاب اللباس (٧٧) باب من جر ثوبه مِن خيلاء (٥)، حديث رقم (٥٧٩٠).

وروى الطبري في التاريخ عن قتادة قال: «ذُكر لنا أنه يخسف بقارون كل يوم قامة، وأنه يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة»[1].

وقول قتادة الذي أورده الطبري لا دليل عليه من الأحاديث الصحيحة، ولذلك نسكت عنه.

المهم أن الحديث لا يصرح بقارون. وإن كان يفهم منه ذلك. وهذا الفهم ليس بعيداً.

خسف اللّه بقارون فلم ينفعه ماله، ولم تدافع عنه كنوزه، ولم ينصره أحد من البشر: «فما كان له من فئة ينصرونه من دون اللّه. وما كان من المنتصرين».

ذهب قارون وغاص في طبقات الأرض، وغارت كنوزه فيها، وكأنه لم يعش حياته، ولم يملك أمواله. ذهب وبقيت قصته عبرة لمن يعتبر. وكأنها تدعو الناس الذين أنعم اللّه عليهم كما أنعم على قارون، أن لا يفعلوا كما فعل قارون، حتى لا يقع بهم عذاب اللّه كما وقع بقارون، عندها لن ينفعهم شيء ولن يرد عنهم عذاب اللّه، كما حصل لقارون.

وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون:

خسف اللّه بقارون وأمواله، على مرأى من بني إسرائيل بفريقيهم: فريق المؤمنين الصابرين، وفريق السذج المخدوعين.

أما المؤمنون الصابرون الذين لم يُخدعوا بقارون، فلعلهم حمدوا اللّه أنْ أذهب قارون وأمواله، وأزال فتنته. ولعلهم ذكَّروا الفريق الآخر بما سبق أن قالوه لهم. لقد ازداد هؤلاء المؤمنون اقتناعاً وتصديقاً بما عندهم من قواعد ومبادىء وأسس، وازدادوا إيماناً وثقة واطمئناناً ويقيناً بما أخبرهم اللّه به من تلك القواعد والمبادىء والأسس.

---

(١) فتح الباري ــ طبعة السلفية ١٠: ٢٦٠.

وأما السذج المخدوعون بقارون فقد سجل القرآن موقفهم الجديد، وتأثرهم بما شاهدوه بشيء من السخرية والإثارة والطرافة والتعجب.

لقد وقف هؤلاء السذج موقفين متعارضين متناقضين:

هم بالأمس لما رأوا قارون خارجاً عليهم في زينته، خُدعوا به، وتمنوا مكانه، تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي، واعتبروه ذا حظ عظيم بما عنده من كنوز وزينة: ولذلك، قالوا بالأمس: «يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون. إنه لذو حظ عظيم».

أما اليوم ــ وبعدما خسف اللَّه بقارون ــ فقد تحول موقفهم، وقالوا: الحمد للَّه أننا لم نكن مثل قارون، ولم نملك مثل ما ملك قارون. فلو كنا مثله لخسف اللَّه بنا، لقد منَّ اللَّه علينا إذ كنا فقراء.

انظر في تعبير القرآن الساخر عنهم: «وَأَصْبَحَ الّذينَ تَمَنَّوا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقولون: وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِر. لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا. وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرون».

الكلمة التي قالوها: وَيْكَأَنَّ اختلف العلماء في معناها، حيث أورد الإمام ابن كثير في التفسير أهم هذه الأقوال:

١ ــ قال بعضهم: الكلمة اختصار لجملة «ويلك اعلم أن» وقد حُذفت اللام من كلمة ويلك. كما حذفت كلمة اعلم. للتخفيف، فصارت ويك أن. ثم وصلت الكلمتان معاً، فصارت: ويكأن.

٢ ــ وقال قتادة: معناها: ألم تر أن.

٣ ــ وقال آخرون: هي مكونة من كلمتين: وي: حرف للتعجب أو للتنبيه. وكأن: بمعنى أظن وأحتسب[١].

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:٤٠١.

فإذا نظرنا في هذه الأقوال الثلاثة، فإننا نرى أن القولين الأخيرين مقبولان، ويتفقان مع معنى الآية، ومع السياق الذي وردت فيه، والقصة التي تتحدث عنها.

لقد تعجب هؤلاء الفريق مما وقع لقارون، وتملكتهم الدهشة والانفعال.

الآن، وبعدما رأوا وشاهدوا وتأثروا. الآن صدقوا المؤمنين الناصحين في قولهم. الآن عرفوا أن اللّه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. الآن عرفوا أن قارون لم يكن ذا حظ عظيم. الآن عرفوا أن ماله هو السبب في هلاكه، وأنه كان نقمة له. الآن عرفوا أنهم هم أصحاب الحظ العظيم. الآن عرفوا أن اللّه أراد بهم الخير إذ لم يبسط عليهم الرزق. الآن عرفوا أن قلة المال منَّة من اللّه ونعمة. الآن عرفوا أنه لا يفلح الكافرون.

الآن. عرفوا هذه المعاني والحقائق. لكن متأخرين.

بينما المؤمنون الصابرون عرفوها من وقت طويل، عرفوها وأدركوها وأيقنوا بها وصبروا عليها، في عنفوان الفتنة القارونية الطاغية.

إنهما لا يستويان في الموقف ولا في المعرفة ولا في اليقين. لا يستوي الموقف الواثق الموقِن في عنفوان الفتنة وشدة المحنة، مع الموقف الذي ينشأ متأخراً بعد الرؤية العملية.

لا تستوي المعرفتان: المعرفة السابقة الواثقة الهادية، التي لا يرِدُ عليها شك أو ظن أو بلبلة، ولا يزعزعها الواقع مهما كان طاغياً قوياً منتفشاً.

والمعرفة الحادثة الطارئة التي لم توجَد ولم تنشأ، إلا بعد وقوع الحدث، واطلاع الجميع عليه، وتصديقهم به.

إن المعرفة الثانية ــ التي وجدت عند المخدوعين بقارون ــ والتي قد

توجَد متأخرة عند كل من كانوا مثلهم في الانخداع والاغترار ـ لا جهد فيها، ولا فضل لها، ولا لذة ولا سمو فيها. لقد أسفر الصبح لذي عينين، وظهرت الحقيقة لكل من يرى، وتساوى الجميع في إدراكها، ولا فضل في ذلك لأحد على أحد.

ثم ما هو دور العقل في هذه المعرفة المتأخرة؟ ما هو دور الفطنة والوعي والذكاء؟ لقد عطَّل السذج المخدوعون وظيفة هذه المواهب والطاقات، وما عرفوا الأمر إلا بعد وقوعه، ولا صدقوا بالحقيقة إلا بعد تحقيقها في صورة خارجية!.

إن العظمة والسمو والسبق والفضل والتفوق هو لفريق المؤمنين الصابرين، الذين أدركوا الحقائق والقواعد مبكِّرين. وإن معرفتهم الواثقة السابقة ناتجة عن فطنتهم وذكائهم ووعيهم وإعمالهم عقولَهم، وعظمة إيمانهم، ونفاذ نظراتهم، وقوة أبصارهم.

إن المعرفتين لا تستويان. فشتان بين مَنْ يسبق ويتفرد، وبين من يلحق به متأخراً!

كذلك نقف عند الفريق الساذج المخدوع على شيء آخر، مرتبط بمعرفته المتأخرة، وسذاجته الواضحة، وتعطيله لفطنته وذكائه ووعيه وعقله وبصيرته.

إنه الاضطراب والتناقض في المواقف والأمنيات والأحكام، والخطأ في النظر والتقويم.

بالأمس قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون!.

واليوم قالوا: الحمد للَّه أننا لم نُؤْتَ مثل ما أوتي قارون!.

بالأمس كان قارون ذا حظ عظيم. واليوم أصبحوا هم أصحاب الحظ العظيم.

بالأمس كانوا محرومين من المنن والنعمة. واليوم هم الذين منَّ اللَّه عليهم وأنعم!

ما هو السر في هذا الاضطراب والتناقض عند هؤلاء؟ إنه في إرادة الحياة الدنيا: «قال الذين يريدون الحياة الدنيا».

وما هو السر في عظمة وفطنة الفريق الأول؟ إنه العلم الهادي الواثق البصير: «قال الذين أوتوا العلم».

أين الذين يريدون أن يتعلموا، ويتعظوا، ويعتبروا؟.

تعقيب القرآن على قصة قارون:

بعدما انتهى قارون، وبعدما سُردت قصته ـ وفق المنهج القرآني في عرض قصصه ـ وفي أنسب حالات التعقيب والتقرير، حيث النفوس منفعلة بما سمعت. والقلوب جاهزة لتلقي التعقيب المناسب.

عقب القرآن على قصة قارون بقوله: ﴿تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلّذينَ لا يُريدونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ وَلا فَساداً. وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقين. مَنْ جاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزىٰ الّذينَ عَمِلوا السَّيِّئاتِ إلّا ما كانُوا يَعْمَلون﴾.

ونلحظ في هذا التعقيب بعض المعاني والدلالات. منها:

١ ـ توجيه أنظار وقلوب وحياة المستمعين نحو الدار الآخرة، ودعوتهم إلى التجافي عن الدنيا، وأن لا يجعلوها أكبر همهم ومبلغ علمهم وأقصى آمالهم.

٢ ـ بيان صفات الذين يطلبون الدار الآخرة، ومواصفات الذين جعل اللَّه لهم الدار الآخرة. إنهم هم «الذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً».

ومن خلال هذه الصفات ندرك السر في هلاك قارون: انه أراد الدنيا ولم يرد الآخرة، وإنه ابتغى العلو في الأرض والفساد.

٣ ــ كل من أراد العلو والفساد في الأرض، وكانت حياته نشراً للعلو والفساد فإنه يخسر الحياتين: حياته في الدنيا إذ يحل به عذاب اللّه، وحياته في الآخرة إذ يكون مصيره النار. إنه يخسر الدارين: الدار الدنيا بهلاكه ودماره، والدار الآخرة بجعله وقوداً لنار جهنم.

وها هو قارون أبرز مثال لذلك، وهو عبرة لمن يعتبر.

٤ ــ العافية للمتقين. فالتقوى هي سر التمكين في الدنيا، والقبول عند اللّه، ونيل جنته.

العاقبة للمتقين في هذه الأرض، لأنهم هم الذين يستحقون هذه العاقبة، هم الذين يصلحون الأرض بتقواهم، وينشرون فيها القيم والحقائق والمبادىء الفاضلة الحقة، ويقمعون فيها قيم البغي والظلم والعدوان. أما المتكبرون المفسدون فلا عاقبة لهم في الأرض، لأنهم ينشرون مبادىء الظلم والباطل، ويغرسون معاني الفساد والعدوان، ويدمرون الأرض ويخربون الحياة. وهم أول ما يدمرون أنفسهم، وأول ما يهلكون أشخاصهم.

إنها سنة ربانية قاطعة لا تتخلف في أية فترة من فترات التاريخ البشري: العاقبة للمتقين.

وجاءت آيات قرآنية لتقرير هذه السنة الربانية وتأكيدها.

قال موسى لقومه عندما كانوا مستضعفين في مصر: «اسْتَعينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِروا. إنَّ الْأَرْضَ لِلَّه، يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه. وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقين»[1].

(١) سورة الأعراف: آية ١٢٨.

وقال تعالى: «قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلوا عَلى مَكانَتِكُمْ، إنّي عامِل. فَسَوْفَ تَعْلَمونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّار. إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمون»(١).

وقال تعالى: ﴿الّذينَ إنْ مَكَّنّاهُمْ في الأَرْضِ أَقاموا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاة، وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَر. وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الأُمور﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا في الزَّبورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْر: أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالحون. إنَّ في هـٰذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدين﴾(٣).

هذا في الدنيا. حيث العاقبة في الحقيقة للمتقين.

أما في الآخرة فلا يشك أحد أن العاقبة هناك لا تكون إلا للمتقين، وأن الجنة لا تكون إلا للمتقين: ﴿وَسِيقَ الّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلى الجَنَّةِ زُمَراً. حَتّى إذا جاءُوها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها، وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ. طِبْتُمْ. فادْخُلوها خالِدين. وقالوا: الحَمْدُ لِلَّهِ الّذي صَدَقَنا وَعْدَه. وَأَوْرَثَنا الأَرْض، نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشاء. فَنِعْمَ أَجْرُ العامِلين﴾(٤).

٥ ــ من جاء بالحسنة فله خير منها. ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون.

تقرير للقواعد الربانية في الثواب والعقاب، في المكافأة والمجازاة، وهي التي تقوم على العدل الإلهي المطلق. من جاء بالحسنة فقد عامل اللَّه بإحسان: وإن اللَّه يثيبه عليها خيراً منها، ويضاعفها له أضعافاً مضاعفة. لأن اللَّه يرد على الإحسان بإحسان.

ومن جاء بالسيئة فعلى نفسه جنى، حيث يجازيه اللَّه بعدْله، ويوقع به نتيجة سيئته وعمله.

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٣٥.

(٢) سورة الحج: آية ٤١.

(٣) سورة الأنبياء: آيتي ١٠٥ ــ ١٠٦.

(٤) سورة الزمر: آيتي ٧٣ ــ ٧٤.

تلخيص لأهم دروس القصة:

نورد فيما يلي أهم الدروس والدلالات التي يمكن أن نستخرجها من قصة قارون. بإيجاز:

١ ــ الطغاة يلتقون على صفة الطغيان وإن تفرقت أوطانهم، واختلفت أجناسهم، ولذلك قرن القرآن قارون الإسرائيلي مع فرعون.

٢ ــ تختلف أسباب الطغيان عند الطغاة. فمنهم من طغيانه بسبب السلطان، ومنهم من طغيانه بسبب المال، ومنهم من طغيانه بسبب الوظيفة، والجامع بينها أن الناتج عنها لا يسمى إلا طغياناً.

٣ ــ ابتلى اللَّه قارون بكثرة أمواله وعظمة كنوزه، وكانت هي السبب في هلاكه وخسارته.

٤ ــ الراجح أن المراد بمفاتح كنوز قارون، هي الخزائن التي تحفظ فيها، وليست المفاتيح لتلك الخزائن.

٥ ــ انقسام بني إسرائيل فريقين في نظرتهم لقارون، وموقفهم من فتنته. وهكذا كل أمة، تنقسم إزاء تلك الفتنة إلى فريقين.

٦ ــ كثيرون هم الذين يسيرون على طريق قارون، ويغترون بما منحهم اللَّه من مال، وكثيرون هم الذين يُخدعون بهؤلاء «القوارين».

٧ ــ لا بد من وجود مؤمنين صالحين صابرين، ينصحون الطغاة البغاة، كما فعل المؤمنون مع قارون.

٨ ــ قاعدة قرآنية عامة: إن اللَّه لا يحب الفرحين، الذين يقودهم فرحهم بنعم اللَّه إلى الكبر والخيلاء، والبطر والغرور، والظلم والفساد.

٩ ــ الفرح في الإسلام فَرَحان: فرح مباح بل مطلوب مرغوب. وهو سرور المؤمن بنعم اللَّه عليه، ورضاه بها، وشكره للَّه عليها.

وفرح محرم وهو الذي يقود إلى الغرور والفخر والبغي والجحود.

١٠ ـ الفرح الحقيقي لا يكون إلا بشيء باق دائم، وهو فضل اللَّه ورحمته ونعيمه وجنته، أما الفرح بشيء عرضي زائل مثل الدنيا وزينتها وزخارفها، فهذا دليل السذاجة والغفلة.

١١ ـ الإسلام يقرر قواعد شاملة لاستخدام نعم اللَّه منها:

(أ) ابتغاء الدار الآخرة فيها.

(ب) توجيه قليل منها للتمتع المباح في الحياة الدنيا.

(ج) الإحسان مع اللَّه، والإحسان إلى الناس من خلال استخدام تلك النعم.

(د) حرمة استخدامها في البغي والفساد والإفساد.

(هـ) المفسدون ينالون غضب اللَّه ويفقدون محبته، ولذلك فهم هالكون خاسرون.

١٢ ـ المؤمن يوجه كل نعم اللَّه نحو الدار الآخرة، ويبتغي بها الجنة، كلها بدون استثناء.

١٣ ـ الإسلام يحث على الاستمتاع المباح بنعم اللَّه في الحياة الدنيا، وينكر على من يحرم ذلك، ويجعل هذا الاستمتاع المباح عبادة يثاب صاحبها عليها.

١٤ ـ المسلم لا يعادي المال، ولا يمتنع منه، بل يأخذه وفق ضوابط شرعية، ويستمتع به وفق ضوابط شرعية، وينظر إليه وفق قواعد شرعية.

١٥ ـ وجوب مقابلة إحسان اللَّه إلى الإنسان بالنعم والطيبات، بالإحسان مع اللَّه من حيث شكره عليها، والإحسان إلى الناس من خلال نفعهم بها. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟.

١٦ ـ كم هو مخطىء وساذج ذلك الذي يستخدم نعم اللّه عليه في الفساد والإفساد، إنه بذلك يقضي على نفسه، ويزيل تلك النعم لأن اللّه لا يحب المفسدين.

١٧ ـ المغرور المخدوع هو الذي ينسى كون النعم التي عنده من اللّه، ويظن أنه حصَّلها بجهده، أو منحت له لجدارته وأهليته، فيقول كما قال قارون «إنما أوتيته على علم عندي».

١٨ ـ أساس التكريم الإلهي للإنسان، ما كان يوماً المال ولا الجاه ولا الجمال ولا النسب ولا الجنس ولا المنصب، بل هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح ونفع الناس وتقديم الخير لهم.

١٩ ـ يحرص الطغاة البغاة المفسدون على كسر قلوب الآخرين، وعلى غرس الشعور بالمرارة والحرمان في نفوسهم. فيختالون عليهم وينتفشون ويتيهون، ويخرجون عليهم بكامل زينتهم، وينشرون عليهم مباذلهم ومفاسدهم ومجونهم.

٢٠ ـ إرادة الحياة الدنيا والرغبة في الإكثار من زخارفها، توقع صاحبها في أخطاء فظيعة في النظرة والرغبة والحكم والقياس والتقدير. كما أنها سر هزيمة هؤلاء أمام المترفين الفاجرين. واتِّباعهم لهم كالعبيد، ولهاثهم وراء فتات موائدهم.

٢١ ـ كثيرون هم الذين يظنون صاحب الحظ العظيم والنصيب الوافر، هو ذلك الذي ملك ما ملك من الأثاث والزينة والمتاع، فيتمنون أن يكونوا مثله.

٢٢ ـ ذو الحظ العظيم هو الذي نال نعمة الإيمان والأمان. والرضى والاطمئنان، وفاز بالنجاة والنعيم الخالد.

٢٣ ـ إذا كانت إرادة الحياة الدنيا هي سر السقوط والذل والحسرة، فإن تحصيل العلم والحياة به هو سر الاستعلاء على المحنة، والثبات في الفتنة، والانتصار العظيم.

٢٤ ـ يجب توجيه الأنظار إلى ثواب اللّه، وتعليق القلوب به، فهو خير لمن آمن وعمل صالحاً. وشتان بين من يريد الدنيا، وبين من يريد ثواب اللّه الدائم.

٢٥ ـ الصبر الجميل العظيم هو المدد الدائم، والزاد الذي لا ينفد، في مواجهة ضغط الفتن وقوة الإغراءات، وعنف البغي والبطر. ولا يُلقّاها إلا الصابرون.

٢٦ ـ خروج قارون على قومه في زينته، ومبالغته في فتنتهم وابتلائهم بها، كان السبب المباشر لإيقاع العذاب به، وابتلاع الأرض له، ولماله. وهكذا المترفون الفاجرون فإنهم بممارساتهم وتصرفاتهم الفاجرة يستقدمون عذاب اللّه، ويستحثونه على الإسراع إليهم لتدميرهم.

٢٧ ـ كان قارون فتنة لقومه، فمنهم من افتتن، ومنهم من انتصر وصبر وثبت، ولما تمت الفتنة والامتحان، أدى قارون دوره، وآن له أن يغادر هذه الدنيا، مقروناً بلعنة اللّه، مصحوباً بعذابه، وهكذا كان!.

٢٨ ـ كل ما يملكه الإنسان من مظاهر هذه الحياة الدنيا، من المال والجاه والقوة والسلطان، لا تنفعه عند وقوع عذاب اللّه به، ولا تسعفه ولا تنصره من اللّه سبحانه. فكم هي خسارة الذين يركنون إليها، ويعتمدون عليها، ويجعلونها محط آمالهم ومعقد رجائهم!.

٢٩ ـ عندما خسف اللّه بقارون زالت الغشاوة عن عيون الذين خُدعوا به، وتغيرت مواقفهم وتمنياتهم. فبالأمس تمنوا مكانه، واليوم حمدوا اللّه

أن لم يكونوا مثله. وهكذا: فسِرُّ التناقض والاضطراب والخطأ عند هؤلاء ـ ومن كان مثلهم ـ هو إرادة الحياة الدنيا فقط.

٣٠ ـ شتان بين معرفتين: بين معرفة المؤمنين للحقائق، وهي المعرفة الأصلية الثابتة الناتجة عن الفطنة والوعي والذكاء. وبين المعرفة المتأخرة الحاصلة لدى السذج المغفلين.

٣١ ـ يجعل اللّه الدار الآخرة للأصفياء الصالحين الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

٣٢ ـ العاقبة في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، لا تكون إلا للمتقين، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

٣٣ ـ اللّه يعامل المحسنين برحمته وفضله فيضاعف لهم المثوبة. ويعامل أصحاب السوء بعدله فيوقع بهم نتائج سوءهم، وهذه سنة اللّه الدائمة.

* * *

٤

تيه بني إسرائيل في سيناء

تيه بني إسرائيل في سيناء

القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٠) يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ (٢١)

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ (٢٢)

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ (٢٤)

قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٦)﴾[1].

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٢٠ ــ ٢٦.

موجز القصة :

أنقذ اللَّه بني إسرائيل من فرعون، وأخرجهم إلى سيناء بقيادة موسى عليه السلام، وأنعم عليهم في صحراء سيناء بنعم عظيمة، حيث فجَّر لهم من الحجر إثنتي عشرة عيناً، وظلَّل عليهم الغمام، وجعل طعامهم فيها المنَّ والسلوى.

طلب منهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة ـ وهي فلسطين ـ وأخبرهم أن اللَّه سينصرهم على أعدائهم الكافرين الذين فيها، وما عليهم هم إلا أن يقاتلوا في سبيل اللَّه.

ولكن اليهود جُبلوا على الجبن والذل، ولم يعرفوا طريق الشجاعة والرجولة، فرفضوا تنفيذ أمر موسى عليه السلام. وقالوا: إن فيها قوماً جبارين، لا طاقة لنا بقتالهم، فلن ندخلها حتى يخرجوا منها.

وخرج من بينهم رجلان، منَّ اللَّه عليهما بالشجاعة والقوة، وعجبا من موقف القوم الجبان، فرسما لهم طريق القتال والنصر: أُدخلوا عليهم الباب، وابدءوا أنتم بالهجوم ـ والنصر لمن هاجم وبدأ الحرب ـ فإذا فعلتم ذلك فإنكم غالبون. ثم إن اللَّه قد ضمن لكم النصر، فتوكلوا عليه واطلبوا النصر منه.

وشعر اليهود بأن الرجلين قد أفحماهم، وقضيا على أعذارهم. فتوقحوا، وأعلنوا التمرد، وقالوا لموسى عليه السلام: إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون.

وتوجه موسى عليه السلام إلى ربه قائلاً: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافرُق بيننا وبين القوم الفاسقين.

وعاقب اللَّه ذلك الجيل الجبان من اليهود، بأن حرمهم من شرف

الشجاعةوالجهاد، ولذة الانتصار، والتنعم بدخول الأرض المقدسة. فكتب عليهم أن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين سنة، وهي مدة كافية ليموت ذلك الجيل الخنوع الذليل الجبان. ويظهر بدلهم جيل جديد، ينشأ على الخشونة والهمةوالجلد، في جو الصحراء، فيقْدر على قتال الكافرين، ويكتب اللّٰه له الانتصار. قال: فانها محرمة عليهم، أربعين سنة يتيهون في الأرض. فلا تأس على القوم الفاسقين.

إسرائيليات حول قصة النية:

أورد بعض المفسرين والإخباريين روايات وأقوالاً بشأن بعض تفصيلات القصة أخذوها من الإسرائيليات، ومن هذه الروايات ما هو منكر وخرافي وأسطوري.

من تلك الروايات، تحديدهم المدينة التي أمرهم موسى عليه السلام بدخولها، بأنها مدينة «أريحا» الواقعة في الغور الأوسط من فلسطين.

ومنها تحديدهم أحجام القوم الجبارين، الذين قال عنهم اليهود: «إن فيها قوماً جبارين».

قالوا في تلك الروايات: إن موسى عليه السلام، أرسل إثني عشر رجلاً من بني إسرائيل ليستطلعوا أخبار مدينة الجبارين. فذهبوا إلى مشارف المدينة، وشاهدوا رجلاً قادماً من الجبارين، ففزعوا منه، واختفوا في العشب والزرع. فجاء هذا الرجل الضخم إلى الحقل، وشاهد اليهود فيه، وبَدَوْا أمامه أقل من الأقزام. فصار يأخذهم، ويضعهم في كُمِّه وحُجْزَة سراويله، وسار بهم حتى وصل إلى قصر الملك، فنثر اليهود الذين معه بين يدي الملك ورجاله، فتعجبوا من صغر أحجامهم، وسأل الملك: مَنْ هؤلاء؟ ولم يصدق أن يكونوا من البشر!.

فلما علم أنهم من اليهود، أكرمهم وأعطاهم قطف عنب، كل حبة منه تُشبع الرجل!.

قالوا: وكان مع هؤلاء الجبارين، عوج بن عناق. وهو شخصية أسطورية خرافية غريبة، حيث زعم الخرافيون الكاذبون، أن عوج كان مع الكافرين من قوم نـوح وأنه نجا من الطوفان العظيم الذي أغرق قمم الجبال العالية، لكن هذا الطوفان الهائل، لم يبلغ إلى كعبـي عوج بن عناق! وأنه كان يسير وسط الطوفان بأمان وسلام، وكان عندما يجوع يمد يده بسهولة فإذا هي تصل قاع البحر، فيأخذ منه السمك، ويرفع يده إلى أعلى باتجاه الشمس، فيشوي ذلك السمك وهو بيده، وينضجه على حر الشمس اللاهبة.

قال الإسرائيليون الخرافيون الكاذبون: وبقي عوج بن عناق حياً حتى عهد بني إسرائيل، وأنه كان يسكن «أريحا» مدينة الجبارين، وأنه حارب موسى معهم.

وأضافوا قائلين: كان طول عوج بن عناق ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً.

ولما توجه عوج إلى جيش موسى ليقتله، اقتلع قمة جبل عظيمة ليهوي بها على موسى ومن معه، فجاء طائر ونقر تلك الصخرة العظيمة، فصارت طوقاً في عنق عوج بن عناق. فعمد موسى عليه السلام إليه، فوثب في الهوة عشرة أذرع، وطول موسى عشرة أذرع، وبيده عصا طولها عشرة أذرع. فوصل إلى كعب عوج، فقتله!.

وبهذا عجز الطوفان عن إهـلاك عوج بن عنـاق، ولم يقتله إلا بنو إسرائيل!.

وقالوا عن أحجام الجبارين العماليق: استظل سبعون رجلاً من بني إسرائيل في خف رجل من العماليق.

وقالوا: إن ضبعاً ربضت هي وأولادها في فجاج عين رجل من العماليق الجبارين»[1].

الإمام ابن كثير يرفض تلك الإسرائيليات:

كم يعجبني في هذا المقام قولُ الإمام ابن كثير في حكمه على تلك الخرافات والأساطير الإسرائيلية حيث قال: «وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة، يدل النقل والعقل على خلافها. من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً».

وبعد أن أورد ــ في تاريخه ــ بعض تلك الإسرائيليات، قال: «يُروى هذا عن نوف البكالي، ونقله ابن جرير عن ابن عباس، وفي إسناده إليهِ نظر.

ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، وكل هذا من وضع جُهال بني إسرائيل، فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم، ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها. ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم. وقد ذمهم اللّه على نكولهم، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم، ومخالفتهم رسولهم»[2].

وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين:

يُذكِّر موسى عليه السلام بني إسرائيل ببعض نعم اللّه عليهم، وذلك في قوله لهم: ﴿يا قَوْمِ اذْكُروا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ: إذْ جَعَلَ فيكُمْ أَنْبِياءَ. وَجَعَلَكُمْ مُلوكاً. وَآتاكُمْ ما لَمْ يُـؤْتِ أَحَداً مِنَ العالَمين﴾.

وعندما ننظر في الآية، نجد أنها تشير إلى بعض نعم اللّه على بني إسرائيل. منها:

---

(١) انظر الدر المنثور، للسيوطي ٦:٤٨ ــ ٤٩ ؛ والبداية والنهاية ١:٢٧٧ ــ ٢٧٨.
(٢) البداية والنهاية ١:٢٧٨.

١ ــ «إذ جعل فيكم أنبياء»: ووجود الأنبياء بينهم مظهر من مظاهر نعمة اللّٰه عليهم، لأنهم يدلونهم على الخير، ويحكمونهم بالحق، ويقودونهم إلى السعادة.

٢ ــ «وجعلكم ملوكاً»: ولا يعني هذا أنهم جميعاً أصبحوا ملوكاً، إذ من غير المعقول أن يكون كل فرد منهم ملكاً! ملِك على من؟ وأين هو الشعب الذي يتملك عليه؟ فمعنى قوله: «جعلكم ملوكاً»: عندكم الأهلية لتكونوا ملوكاً، لو توفرت لكم الظروف المتاسبة.

قال الإمام الراغب الأصفهاني: «والمُلْك نوعان:

(أ) مُلك هو التملك والتولي. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ المُلوكَ إِذا دَخَلوا قَرْيَةً أَفْسَدوها﴾[١].

(ب) ملك هو القوة على ذلك. تولى أم لم يتول. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فيكُمْ أَنْبِياء، وَجَعَلَكُمْ مُلوكاً﴾. فجعل النبوة مخصوصة، والملك عاماً. فإن معنى الملك ههنَا هو القوة التي بها يرشح للسياسة، لا أنه جعلهم كلهم متولين للأمر، فذلك منافٍ للحكمةِ، كما قيل: لا خير في كثرة الرؤساء»[٢].

٣ ــ ﴿وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العالَمين﴾.

إن اللّٰه أعطى بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام، ما لم يعط أحداً من العالمين، حيث أعطاهم التمكين والنصر، فأنجاهم من فرعون وجنوده، وأهلك أعداءهم الكافرين.

إن هذه النعمة محدودة بزمان معين ولأقوام مخصوصين، وليست عامة

(١) سورة النمل: آية ٣٤.
(٢) المفردات في غريب القرآن ٤٧٢.

مطردة لليهود على اختلاف الزمان والمكان، كما يدَّعي اليهود، ويحاولون إقناع الآخرين بذلك. فيقولون: إن اللّٰه أعطانا ما لم يعط أحداً من العالمين، وهذا مذكور في القرآن كتاب المسلمين وليس فقط في كتابنا التوراة. وعطاء اللّٰه لنا باعتبارنا يهوداً، وهو مستمر حتى قيام الساعة.

وقد يُخْدع أناس بهذه الدعايات الإسرائيلية.

إن معنى ﴿وَآتاكُمْ ما لَمْ يُـؤْتِ أَحَداً مِنَ العالَمين﴾ قريب من معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنّي فَضَّلْتُكُمْ عَلى العالمين﴾(١).

العالَمون الكافرون مثل فرعون وجنوده، ومثل الكافرين الذين كانوا يسكنون الأرض المقدسة.

ولقد فضَّل اللّٰه بني إسرائيل على أولئك العالَمين لا لجنسهم ولا لأصلهم. بل لعقيدتهم وإيمانهم. كانوا هم المؤمنين وسط أقوام من الكافرين، ومن الطبيعي أن يفضل اللّٰه المؤمنين على الكافرين، وأن يؤتيهم ما لم يؤت أحداً من الكافرين.

أما بعد تلك الفترة فقد أزال اللّٰه عن اليهود ذلك التفضيل، وذلك بعد أن كفر اليهود وطغوا وبغوا وأفسدوا. فبعث اللّٰه محمداً عليه الصلاة والسلام، وجعل الإسلام دين العالمين، وكان المسلمون خير أمة أخرجت للناس.

الأرض المقدسة التي كتب اللّٰه لكم:

الأرض المقدسة هي فلسطين. وهي الأرض المباركة التي قال اللّٰه عنها: ﴿سُبْحانَ الّذي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إِلى المَسْجِدِ الأَقْصى الّذي بارَكْنا حَوْلَه﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة: آية ٤٧.

(٢) سورة الإسراء: آية ١.

وقال اللّه عنها في سياق قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَجَّيْناهُ وَلوطاً إِلى الْأَرْضِ الّتي بارَكْنا فيها لِلْعالَمين﴾(١).

وخَاطب موسى عليه السلام قومه قائلًا: «يا قَوْمِ ادْخُلوا الْأَرْضَ المُقَدَّسَةَ التي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَلا تَرْتَدّوا على أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبوا خاسِرين».

وما قلنا من قبل عن قوله: «وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين» نقوله هنا عن الأرض المقدسة التي كتبها اللّه لهم.

إن اليهود يعتبرون أن حقهم في الأرض المقدسة ـ فلسطين ـ حق دائم حتى قيام الساعة، وأنهم عندما يطالبون بها فإنما يطالبون بحقهم الذي قرره اللّه لهم. وأنهم عندما يعودون إليها يعودون إلى الأرض التي كتبها اللّه لهم، وأن عودتهم في هذا العصر إلى فلسطين واحتلالهم لها، وإقامة دولة لهم فيها، وإخراج أهلها منها، كل هذا ليس عدواناً ولا ظلماً ولا باطلًا، وإنما هو تحقيق لوعد اللّه الذي قطعه لهم.

إنهم يحاولون إقناع الآخرين في العالم بهذه الإشاعات، ويستشهدون أثناء ذلك بهذه الآية، ويقولون إن القرآن يقرر هذا، وها نحن نعود إليها، فلماذا ينكِر علينا العرب والمسلمون والآخرون العودة إلى أرضنا التي قررها القرآن لنا؟

ويصدِّق أناس بهذه الدعاية اليهودية، ويُخدع أناس بهذا التحريف وهذه المغالطة.

فلسطين أرض مباركة مقدسة. نعم. وكتبها اللّه لبني إسرائيل. نعم!.

لكن من هم بنو إسرائيل الذين كتب اللّه لهم الأرض المقدسة؟ وهل هذه الكتابة مستمرة دائمة؟ وهل هي لكل يهودي حتى قيام الساعة؟

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٧١.

إن الذين كتب اللّٰه لهم الأرض المقدسة هم بنو إسرائيل الذين آمنوا بموسى عليه السلام، وخرجوا معه من مصر، وهم بنو إسرائيل المؤمنون الذين جاءوا بعد موسى عليه السلام واتبعوا أنبياءهم وآمنوا بهم، مثل داود وسليمان عليهما السلام.

كتب اللّٰه لأولئك المؤمنين من بني إسرائيل الأرض المقدسة، لا لجنسهم ولا للونهم ولا لنسبهم، ولكن لدينهم وإيمانهم وعقيدتهم.

كانوا في ذلك الوقت مؤمنين وسط أقوام من الكافرين في مصر والأرض المقدسة، ومعلوم أن اللّٰه يفضل المؤمن على الكافر، ولذلك جعل اللّٰه الأرض المقدسة لبني إسرائيل المؤمنين، وكتبها لهم بسبب إيمانهم.

وبعد ذلك تغير اليهود، وكذبوا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، وكفروا بالدين الحق الذي جاء به، وبذلك اعتُبروا كافرين ظالمين باغين، ففقدوا أي حق لهم في الأرض المقدسة، إذ انتزعها اللّٰه منهم، وجعَلَها لعباده الصالحين المؤمنين، وهذا موافق لسنة اللّٰه التي لا تتبدل، في توريث اللّٰه الأرض لعباده الصالحين.

آيات صريحة تقرر هذه السنة، وتوضح هذه الحقيقة. منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ، فَأَتَمَّهُنَّ. قالَ: إِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً. قال: وَمِنْ ذُرِّيَّتي، قالَ: لا يَنالُ عَهْدي الظّالِمين﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحون﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسومُهُمْ

---

(١) سورة البقرة: آية ١٢٤.

(٢) سورة الأنبياء: آية ١٠٥.

سوءَ العَذاب. إنَّ رَبَّكَ لَسَريعُ العِقابِ، وَإِنَّهُ لَغَفورٌ رَحيم. وَقَطَّعْناهُمْ في الْأَرْضِ أُمَما﴾(١).

الأرض المقدسة كتبها اللّه لبني إسرائيل السابقين المؤمنين، وفق سنَّته في تفضيل المؤمنين على الكافرين. والأرض المقدسة انتزعها اللّه من أحفادهم اليهود الكافرين، وفق سنته سبحانه.

إن فيها قوماً جبارين:

لما طلب موسى عليه السلام من بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة، وضمن لهم انتصارهم على أعدائهم فيها. جبُنوا عن القتال، ورفضوا الدخول.

ردوا على طلب موسى عليه السلام بأنه لا قدرة لهم على دخولها، لأنه لا طاقة لهم بقتال أهلها: «قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين».

وقد ابتعد بعض المفسرين كثيراً، عندما صاروا يتخيلون صورة هؤلاء القوم الجبارين، وخرجوا بذلك عن المعقول إلى الخيالات الغريبة الخرافية الأسطورية، حيث تخيلوا لهم أشكالاً ضخمة غريبة ـ أوردنا بعضها عند كلامنا عن إسرائيليات القصة ـ.

ونرى أن هؤلاء الخرافيين قد خالفوا المنهج الصحيح، والبحث المعقول، وجاوزوا ما يوحي به القرآن، إلى خرافات وأساطير باطلة. وليتهم لم يُشغلوا أنفسهم بذلك، بل بقوا ضمن إيحاء النص.

إن جملة «قوماً جبارين» لا يلزم منها التجبر والجبروت عن طريق ضخامة الجسم وعظمة الصورة، فقد تجد جباراً متحكماً باغياً طاغية، ولكنه

(١) سورة الأعراف: آيتي ١٦٧ ـ ١٦٨.

ضئيل الجسم صغير الحجم نحيف البدن قصير القامة. وقد يكون الإنسان ضخماً طويلاً سميناً، ولكنه ضعيف عاجز.

فقد يكون القوم الجبارون سكان الأرض المقدسة طوالاً، وقد يكونون قصاراً، وقد يكونون ضخاماً سماناً، كما أنهم قد يكونون ضعافاً هزيلين، المهم أنهم قوم جبارون!.

ثم إن كونهم قوماً جبارين، هو وفق نظرة اليهود إليهم، وتقويمهم لقوتهم. ومن يدري هل اليهود صادقـون في هذا التقويم؟ وهل هذه هي الصورة الحقيقية التي عليها القوم؟

ألا يمكن أن يكونوا مبالِغين في التقويم؟ مضخِّمين لصورة الخصم؟ ليبدوا معذورين في عدم قتالهم! ألا يمكن أن يكون الدافع لهذه الجملة التي قالوها هو جبنهم وخوفهم ورعبهم، وهذا الخوف ضخَّم لهم صورة عدوهم وكبَّرها، بحيث بدت أكبر مما هي عليه.

إن خيال الجبان الضعيف، يُكبِّر له الأشياء، ليزداد منها خوفاً ورعباً. وصدق المتنبـي في تصويره جبن الجبان الهارب:

وضاقت الأرض حتى كان هاربُهم إذا رأى غيـر شيء ظنه رجــلاً

لن ندخلها حتى يخرجوا منها:

«قالوا يا موسى: إنَّ فيها قَوْماً جَبّارين. وَإنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّى يَخْرُجوا مِنْها، فَإنْ يَخْرُجوا مِنْها فَإنّا داخِلون».

جُبْن اليهود هو الذي ضخَّم لهم صورة أعدائهم. وجبن اليهود هو الذي حال بينهم وبين قتالهم. وجبن اليهود هو الذي منعهم من دخول الأرض المقدسة. وجبن اليهود هو الذي جعلهم يتصورون أن الجبارين يمكن أن يخرجوا من الأرض المقدسة بدون قتال. فجلسوا ينتظرون خروجهم من تلقاء

أنفسهم، ليدخلوها بعد ذلك. فقالوا: «إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون».

لن ندخلها: النفي التأبيدي الذي توحي به «لن» التأبيدية. لن ندخلها دخولاً ذاتياً، إننا لن نقاتل القوم الجبارين، ولن نحاربهم.

لن ندخلها حتى يَخرجوا منها: يعني سنبقى منتظرين خروجهم، فإذا خرجوا منها فسندخلها.

وأدعو إلى إمعان النظر في الفعل المضارع المكرر في قولهم: «حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها». إنه مبني للمعلوم، وفاعله واو الجماعة، وهي تعود على القوم الجبارين.

وبناء الفعل المضارع للمعلوم له دلالة ذات اعتبار: إن القوم الجبارين هم الذين يقومون بالخروج من الأرض المقدسة، هم الذين يخرجون خروجاً ذاتياً اختيارياً إرادياً، فلا يُكرههم أحد على الخروج.

هذه نظرة اليهود الجبناء للتمكين والنصر، إن الله وعدهم الأرض المقدسة، ولكنهم يريدونها بدون قتال. إنهم ينتظرون أن يخرج أصحابها منها، ليحلوا محلهم فيها.

وهذه نظرة كل كسول جبان ذليل، وما هكذا تحارَب الأقوام، ولا هكذا تحرَّر البلدان. فما عهدْنا قوماً منتصرين يتخلون عن انتصارهم طائعين، ويتركون الأرض التي فتحوها مختارين، ويخرجون منها منسحبين.

إن اليهود يريدون أرضاً بدون قتال، وينتظرون أن يخرج أصحابها منها ليدخلوها.

ومما يؤسَف له أن هذه النظرة الناتجة عن جبن اليهود وذلهم، هي نظرة قوم من العرب والمسلمين في هذا الزمان، الذي نجح فيه اليهود في احتلال

فلسطين ــ وبلاد عربية أخرى ــ وضَعُفَ العرب وجبنوا عن قتال اليهود، وتحرير الأرض المقدسة منهم. وأوحى لهم جبنهم وضعفهم بأمر خيالي لا يراه إلا الواهمون الحالمون الخياليون، إنهم ينتظرون أن يتكرم اليهود بالانسحاب من الأراضي التي احتلوها ــ بعد عام سبعة وستين وتسعمائة وألف ــ وأن يخرجوا منها طائعين مختارين، وأن يتركوها للعرب المظلومين.

لسان حال هؤلاء العرب الضعفاء يقول: «إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون».

ادخلوا عليهم الباب: والحرب الهجومية:

لما رفض الجبناء من بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة مجاهدين، وجلسوا ينتظرون خروج أهلها منها مختارين، وقف رجلان منهم يبيِّنان لهم طريقة الحرب والنصر:

«قالَ رَجُلانِ مِنَ الّذينَ يَخافون، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهما: ادْخُلوا عَلَيْهِمُ الباب، فَإِذا دَخَلْتُموهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبون، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوكَّلوا، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنين».

خرج رجلان من بين المجموع الخائف الجبان: «قال رجلان من الذين يخافون أنعم اللَّه عليهما».

أي قال رجلان من بين الذين يخافون. أنعم اللَّه عليهما بالشجاعة والجرأة والثبات، فسيطرا على الخوف، واستعليا على الجبن والضعف.

وإن الإنسان ليعجب لذلك المجموع الذليل الجبان. الذي لم يوجَد فيه إلا رجلان إثنان فقط، تمتعا بالشجاعة والقوة. ومَنْ هو ذلك المجموع. إنه مجموع بني إسرائيل الذين أنقذهم اللَّه من فرعون، وأوصلهم إلى مشارف الأرض المقدسة، ومع ذلك بقي الجبن والخوف مسيطراً عليهم. متمكناً من نفوسهم وقلوبهم.

«قـال رجلان». ووصْفُهم بالرجولة في هذا المقام له حكمة باهرة، فهما رجلان وسط مجموع لا رجولة فيهم. وفرْق بين الذكورة التي هي عكس الأنوثة، وبين الرجولة التي تعني القوة والشجاعة والعزة. فكل رجل ذكر، وليس كل ذكر رجلاً. وصدق اللّه القائل: ﴿مِنَ المُـؤْمِنينَ رِجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْه﴾[1].

ماذا قال الرجلان لباقي الجبناء الخائفين؟

قالا لهم: أُدخلوا عليهم الباب.

وعندما نمعن النظر في هذا القول الصائب، فسنجده يحوي إشارات وتوجيهات هامة في موضوع الجهاد والحرب والانتصار. منها:

١ ــ هـو يشير إلى نـظرية جهـادية هـامة، هي نـظريـة «الحـرب الهجومية»، التي قرر الخبراء العسكريون أنها طريق النصر، وأن من أراد أن يكسب المعركة فعليه أن يبدأ هو بالهجوم، وأن يغزو عدوه في بلاده، وأن يدخل عليه داره. «أدخلوا عليهم الباب».

ومما يصدق هذه النظرية القرآنية الجهادية الهجومية، قوله تعالى: ﴿يـا أَيُّها الّـذينَ آمَنوا: قَـاتِلوا الّذينَ يَلونَكُمْ مِنَ الكُفّـارِ، وَلْيَجِدوا فِيكُمْ غِلْظَة﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا في ابْتِغاءِ القَوْم. إنْ تَكونوا تَأْلَمونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمونَ كَما تَأْلَمون. وَتَرْجونَ مِنَ اللّهِ ما لا يَرْجون﴾[3].

وقد كانت مواقف الرسول الجهادية ــ عليه الصلاة والسلام ــ وفق هذه

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٢٣.

(٢) سورة التوبة: آية ١٢٣.

(٣) سورة النساء: آية ١٠٤.

النظرية القرآنية الهجومية، نظرية «أدخلوا عليهم الباب». فكان ـ غالباً ـ هو الذي يهاجم الأعداء ويغزو بلادهم، ويدخل عليهم الباب، ويباغتهم بالهجوم. وبخاصة جهاده لليهود في المدينة وحولها. هذا ما فعله عندما غزا يهود بني قينقاع، ويهود بني النضير، ويهود بني قريظة، ويهود خيبر، وهذا ما فعله عندما فتح مكة، وحارب هوازن وتوجه إلى تبوك، وأرسل الجيش إلى مؤتة، وجهَّز جيش أسامة!.

وقد وعى الصحابة الكرام من القرآن هذه الإشارة، وحفظوا من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم هذا الدرس، وكانت مواقفهم الجهادية وفق هذه النظرية القرآنية الهجومية، قال علي بن أبي طالب ـ رضي اللَّه عنه ـ: «ما غُزِيَ قوم في عُقر دارهم إلا ذُلّوا».

وفي عصرنا الحاضر وعى اليهود هذا الدرس القتالي، وطبَّقوا على العرب نظرية «أدخلوا عليهم الباب» فكانوا هم الذين يباغتون العرب، ويبدأون القتال، ويوجهون للعرب «الضربة الأولى» وكان العرب يواجهون هجوم اليهود بدفاع ضعيف كليل عاجز، ولهذا كان اليهود يكسبون الجولات، وكان العرب يخسرونها، لأن موقف المهاجم قوي، وموقف المدافع ضعيف.

ولما فكر العرب مرة بالقتال وفق نظرية الحرب الهجومية القرآنية، نظرية «أدخلوا عليهم الباب»، ووجهوا لليهود الضربة الأولى، باغتوا اليهود وأربكوهم وهزموهم ـ في بدايات الحرب ـ ولولا ما رافق تلك الحرب وسبقها وتلاها من ألاعيب ودسائس ومؤامرات وخيانات لتم تحرير البلاد والعباد.

كان هذا في حرب رمضان عام ٩٣هـ وفق أكتوبر ١٩٧٣. عندما حطم المقاتلون خط «بارليف» اليهودي المنيع على السويس، وتوغلوا في سيناء إلى مسافات بعيدة.

لن ندخلها أبداً ما داموا فيها:

ماذا فعل المجموع اليهودي الجبان بتشجيع الرجلين القويين؟ وما أَثَرُ نصيحتهما فيهم؟ وما هو موقفهم من نظراتهما الجهادية الهجومية؟

﴿قالوا: يا موسى، إِنّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً، ما داموا فيها. فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا. إِنّا هٰهُنا قاعِدون﴾.

طالبوا موسى عليه السلام أن يقطع الأمل منهم، وأن يتوقف عن تشجيعهم، وأن لا يُتعب نفسه في حثهم وترغيبهم.

﴿لن ندخلها أبداً ما داموا فيها﴾ حيث أكدوا كلامهم بكلمتين هما: «لن» التأبيدية. و «أبداً» التأبيدية.

وتأبيدهم مقيد ببقاء القوم الجبارين في الأرض المقدسة، فإذا خرجوا منها دخلها اليهود.

ويوحي جزمهم بعدم القتال وتأكيدهم عليه، بأنهم لا يريدون الخيار العسكري الجهادي، لا يريدون طريق الرجولة والعزة والشهادة والجنة، وإنما يريدون الذل والجبن والضعف.

إن جبن اليهود وخوفهم وذلهم هو الذي كرَّه إليهم القتال والجهاد، ورغَّبهم في القعود والاستسلام.

وهذا الجبن والخوف والوهن هو أساس الداء عند أية أمة تسلك ما سلكه أولئك اليهود، حيث ترفض طريق القتال والجهاد والاستشهاد، وتُؤثِر عليه طريق الذل والضعف والاستسلام، وخداع النفوس بأوهام وخيالات، تتوهم فيها الانتصار على الأعداء عن طريق الضغط السلمي أو المفاوضات المباشرة وغير المباشرة. أو تنتظر خروج أعدائها من البلاد، وانسحابهم من الميدان بكرم وأريحية، وتعتبر هذا المنطق هو قمة الوعي والفطنة والدهاء والواقعية والأعتدال!

أليس هذا ما عليه بعض العرب في هذا الزمان، في نظرتهم لصراعهم مع اليهود، وتصورهم لطريق إعادة الأراضي التي احتلها اليهود ــ بعد عام ١٩٦٧ طبعاً ــ

وبسبب هذه النظرة الكليلة والتصور القاصر والفهم الساذج، نرى قضية فلسطين تتراجع باستمرار، ويخسرها العرب أمام اليهود في كل المجالات والمواقع.

ولو أن هؤلاء اختاروا الطريق الآخر، طريق الحرب الهجومية «أدخلوا عليهم الباب» لأسرعوا في إنهاء المشكلة، وحل القضية، وهزيمة الأعداء، وتحرير الأوطان، إنه لا حل إلا بهذا الطريق. فهل العرب فاعلون؟ وفي الطريق الصحيح سائرون؟ وللباب داخلون؟ وللبلاد محررون؟ وعلى اليهود منتصرون؟

اذهب أنت وربك فقاتلا. إنا ههنا قاعدون:

أخبر اليهود نبيهم موسى عليه السلام برفضهم الخيار العسكري الجهادي. ويا ليتهم اكتفوا بهذه الجريمة الجبانة الذليلة.

لقد انتقلوا إلى جريمة أفظع، ومنكر أعظم، حيث قالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتلا. إِنّا هٰهُنا قاعِدون﴾.

وعندما ننظر في هذه العبارة فإننا نجد فيها بعض الأمور، منها:

١ ــ إن اليهود جبناء. وإن جبنهم حال بينهم وبين شرف الجهاد، لأن الذليل الجبان لا يحارب، مهما قُدم له من حوافز ومرغبات ومسوغات.

٢ ــ إنهم توقحوا على موسى ــ عليه السلام ــ وأساءوا الأدب معه، فقالوا له: إذهب أنت وربك فقاتلا.

إن الجبان لا يستحيي، وقد يجمع بين الجبن والوقاحة. فإذا ما أُحرِج

هذا الجبان، وأُوصِدت في وجهه الأبواب، وأُبطِلت له جميع الحلول والمعاذير الباطلة، وأُقيمت عليه الحجة العقلية الواضحة، ولم يَبق أمامه عذر، فإنه يتوقح ويسيء ويشتم.

٣ ـ تخلَّى اليهود الجبناء عن موسى ـ عليه السلام ـ نبيهم ومحررهم ومنقذهم، وتركوه يقاتل وحده. وهذا ما يفعله الجبناء دائماً بالمجاهدين الأشداء، حيث يتخلون عنهم، ويتركونهم وحدهم في الميدان، على اعتبار أنهم متطرفون مندفعون متهورون.

٤ ـ قالوا لموسى عليه السلام ﴿إذهب أنت وربك﴾ ربك: بالمفرد، وكأنه ربه وحده، وليس ربهم هم، وهذا فيه سوء أدب مع اللّٰه. وكأنهم لا يريدون هذا الرب الذي يطالبهم بالجهاد والقتال، فيجعلونه كأنه رب لموسى وحده.

إن الضعفاء الجبناء لا يريدون التكاليف ولا المشقات ولا التضحيات، ولهذا يكرهون هذه التكاليف، ويكرهون من يكلفهم بها.

كم من الضعفاء الجبناء في هذا الزمان، من يتصرفون مع الدعاة والمجاهدين وفق قول اليهود لموسى عليه السلام، ويقولون لهم: «إذهبوا أنتم وربكم فقاتلوا. إنا ههنا قاعدون. فإن كنتم صادقين في أن اليهود سيخرجون من فلسطين، وأنكم ستنتصرون عليهم، وأن اللّٰه معكم، فاذهبوا وقاتلوا اليهود مع ربكم، ولا تكلفونا ما لا نطيق.

٥ ـ إنا ههنا قاعدون. قعدوا رغم كل التشجيع والحشد والاقناع! فلماذا قعدوا؟ لقد قعدت بهم هممهم وعزائمهم، لقد ضعف الإيمان في قلوبهم، ولقد ضمرت معاني العزة والكرامة في قلوبهم، ولقد ماتت معاني الجهاد والرغبة في الاستشهاد في قلوبهم. ولقد آثروا أرخصَ التكاليف وأقل التضحيات، فوجدوها في القعود، فقعدوا أذلاء جبناء.

وهكذا كل القاعدين عن الجهاد، رغم قيام دواعيه!

لا أملك إلا نفسي وأخي :

بعد ما سمع موسى عليه السلام من قومه الجبناء التأكيد القاطع بعدم القتال، وبعد ما أساءوا الأدب معه ومع اللَّه، توجه إلى ربه، يشكو إليه قومه، وعصيانهم له، وأعلن أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه. «قال: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي».

أما تلك الجموع من بني إسرائيل، فإنه لا يملكها، ولا يقدر على تكليفها، لأنها تمردت عليه وعصت أوامره.

لماذا تمردوا عليه وعصوا أوامره؟ وما الذي طلبه منهم؟ ما الذي قادهم إلى التمرد والعصيان؟ لقد طلب منهم دخول الأرض المقدسة، والجهاد والقتال، وسلوك طريق العزة والنصر والتمكين. فهل هذا يمكن أن يوجِد التمرد والعصيان؟ إنه لا يفعل ذلك إلا الذليل الجبان!

متى نفض موسى عليه السلام يديه منهم، وتبرأ منهم؟ لقد كان ذلك بعد سنوات طويلة قضاها معهم في مصر وسيناء، وبعد جهود مضنية بذلها في تربيتهم وتقويمهم وبعد خبرة طويلة بهم وبنفسياتهم.

بعد ما تبرأ موسى ـ عليه السلام ـ منهم، طلب من ربه أن يفرق بينه وبينهم: ﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي. فافرُق بيني وبين القوم الفاسقين﴾. فما عادوا يستحقون صحبة موسى عليه السلام، وما عادوا أهلاً لأن يتشرفوا بمعيته. لأنهم فاسقون عصاة، أذلاء جبناء، ومن كان كذلك لا يستحق أن يكون مع الرجال المجاهدين.

إنها محرمة عليهم :

﴿قال: فإنها محرمة عليهم﴾.

بما أنهم جبُنوا الجهاد والقتال، فقد حرَّم اللَّه عليهم دخول الأرض المقدسة، وحَرَمَهم من شرف تحريرها والإقامة فيها.

الأرض المقدسة التي كتبها اللّٰه لهم، أصبحت محرمة عليهم! لماذا؟

لقد دلهم موسى عليه السلام على طريق تحرير الأرض المقدسة والتمكين فيها، فرفضوا ذلك الطريق الوحيد إليها. لقد كان موسى عليه السلام يريد لهم النفع والخير، ويريد لهم العزة والكرامة والنصر والتمكين، كان يريد لهم أن يكونوا سادة أساتذة للآخرين.

والطريق الوحيد لكل ذلك هو الجهاد والقتال. فلما رفضوه حُرِموا من كل ثماره الطيبة العظيمة.

لقد عزَّت عليهم أنفسهم وأعمارهم ودماؤهم، فلم يضحوا بها في سبيل اللّٰه، ولم يبذلوها ثمناً للنتيجة المضمونة العظيمة.

في الجهاد نجد التضحيات شاقة، والطريق صعبة طويلة قاسية، والنفسُ تكره كل ذلك في بداية الأمر ـ بنص القرآن ـ كل هذا صحيح لا يُنكر. ولكن نتيجة الجهاد عظيمة، وثمنه مرغوب مطلوب، وغايته سامية، وهذا كله يستحق كل ما يبذَل له، ويدفَع في سبيله. ولهذا تهون على المؤمنين المجاهدين نفوسهم ودماؤهم وأموالهم وكل ما يملكون، فيدفعونه عن رضى وإيمان وإخلاص.

منذ متى كان التمكين والنصر بدون تضحيات؟ ومنذ متى كانت الرجولة بدون ضريبة؟ ومنذ متى كانت الحياة بدون مشقات ومحن؟ ومنذ متى كانت الجنة بدون ثمن؟

واهمون حالمون أولئك الذين يريدون النصر والتحرير وهم قاعدون! وواهمون وحالمون أولئك الذين يريدون العزة والكرامة والسيادة وهم جبناء أذلاء! وواهمون وحالمون أولئك الذين يريدون جنة اللّٰه بدون جهاد واستشهاد!

وبما أن اليهود قد اختاروا القعود الذليل الجبان، فقد فشلوا في الاختيار، وسقطوا في الامتحان.

وبذلك حرِموا من شرف تحرير الأرض المقدسة، حرِموا من شرف السير في طريق العزة والرجولة والحرية والتمكين، وهي طريق تهفو إليها قلوب الرجال، وتتطلع إليها نفوسهم، وترنو إليها أبصارهم.

وفي هذا الزمان، احتل اليهود الكافرون الأرض المقدسة، وجبُن أناس من العرب والمسلمين عن قتالهم، ورفضوا طريق الرجولة والعزة والتحرير والنصر، طريق الجهاد، وآثروا طريق الضعف والذل والاستجداء، وصاروا يستجدون اليهود والآخرين، لكي يمنَّ عليهم اليهود بشيء من البلاد، ولو كان يسيراً. وأغمدوا سيوفهم وألْقوا أسلحتهم، ورفعوا أغصان الزيتون، وأطلقوا حمامة السلام، ولم يحصلوا على شيء. ولن يحصلوا على شيء!

لقد فقدوا ــ باختيارهم لذلك السراب الخادع ــ طريق الجهاد والاستشهاد وخسروا شرف التحرير، وآثروا حياة الذل والجبن والمسكنة. وبذلك حرمهم اللّٰه من شرف الجهاد والتحرير، وكأن هذه العبارة «إنها محرمة عليهم» تنطبق عليهم تماماً.

إن الجهاد والتحرير، واستعادة البلاد والمقدسات، شرف عظيم، ووسام رفيع، وفضل رباني كريم. ويأبى اللّٰه أن يجعل هذا لمن ليس أهلاً له. إن جيل الهزيمة لا يصنع النصر، وإن رموز الذل لا يقودون للعزة.

أربعين سنة يتهيون في الأرض:

حَرَم اللّٰه أولئك الجبناء اليهود من شرف الجهاد والتحرير، والتمكين في الأرض المقدسة. وكتب عليهم «التيه» في أرض سيناء. وقدَّر مدة التيه بأربعين سنة.

فلماذا الأربعون سنة؟

إن الأربعين سنة تشمل حياة جيلين! ولعل الحكمة من هذا التحديد،

هي أنْ ينتهي ذلك الجيل الجبان من بني إسرائيل، الذي لم ينفع معه شيء من الحوافز والبواعث والمنشطات. إنه جيل لا يُتوقع منه جهاد، لأنه لا همة له ولا عزيمة. فليُنتظر حتى يموت هذا الجيل، ويأتي بعده جيل جديد عنده القدرة على القتال والتحرير. والأربعون سنة مدة كافية لانقراض هذا الجيل.

ماذا يفعل هذا الجيل الجبان، وهو ينتظر دنو أجله؟ إنه التيه في الصحراء «أربعين سنة يتيهون في الأرض».

وتاهوا في سيناء، وعاشوا في الصحراء، وقاسوا مرارة الحياة وشظف العيش.

ويعجب الإنسان مما وقع لذلك الجيل الجبان!

لقد فتح اللَّه لهم طريق الرجولة والعزة فرفضوا السير فيه. ولقد دعاهم اللَّه إلى التنعم في الأرض المقدسة وخيراتها، بشرط دفع الثمن وهو الجهاد. فنكصوا، فأبدلهم اللَّه بذلك التيه في الصحراء.

التيه في الصحراء بدل الأرض المقدسة! كيف قبلوا هذا البدل؟ وكيف استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ ما الذي دفعهم إلى هذه الصفقة الخاسرة؟

إنه الجبن والذل والضعف والوهن. وإنه الحرص على الحياة. أليسوا في الصحراء أحياء؟ ألم يحتفظوا بأرواحهم ودمائهم؟ وطالما ضمنوها فلماذا يُعَرِّضون حياتهم للخطر في الطريق إلى الأرض المقدسة؟ فلْيتركوا الأرض المقدسة، ولْيقبلوا بالصحراء التي تحقق لهم الحياة. وصدق اللَّه عنهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النّاس عَلى حَياة﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: آية ٩٦.

وتبدو لنا بعض الحكم من التيه في الصحراء. منها:

١ ـ إن التيه بديل عن الأرض المقدسة. فهما طريقان لا ثالث لهما:

إما طريق العزة والكرامة والنصر والتمكين، وقتال الأعداء وتحرير البلاد.

وإما طريق الجبن والذل والحرص على الحياة الدنيا، والضَّنُّ بالأرواح والأموال. وهذا الطريق يوصل للضياع والضلال والتيه.

لقد اختار ذلك الجيل الطريق الثاني، فحقت عليهم النتيجة. وتاهوا في الأرض.

٢ ـ التيه نفسه هو الضياع والضلال، وهو ملازم لكل من لم يسلك طريق الجهاد، طريق الرجال المجاهدين الأبطال.

إن الذين لا يجاهدون في سبيل اللّه، ولا يقاتلون عدوهم، يتيهون ويضيعون ويخسرون. كم تخسر الأمة من حياتها ووجودها وطاقاتها عندما تتخلى عن طريق الجهاد!

إنه التيه الكامل والخسارة الشاملة. إنهم يضيِّعون أموالهم وأوقاتهم وأعمارهم ومواهبهم وقدراتهم وطاقاتهم وإمكاناتهم وجهودهم وشبابهم وأوطانهم وآمالهم وتاريخهم ووجودهم وسعادتهم. فكم يخسرون بترك الجهاد!

هذا ما نراه ونلمسه في هذه الأمة في هذا العصر، حيث رفضت طريق قتال اليهود، واختارت طريق السلام الصعب الذليل، فوقعت في تيه مطلق، وضياع شامل وخسارة عامة.

٣ ـ لقد كان التيه من أجل أن يموت ذلك الجيل الجبان. إن الذليل الجبان لا يستجيب لدعوة الجهاد مهما كانت صواباً وحقاً.

لذلك، إن أُريدَ للناس السير في طريق الجهاد، فلا بد أن يُترك الجيل الجبان، لأنه يُتعب الناس ولا يتجاوب معهم، يترَك ذلك الجيل ليموت وينشأ جيل جديد.

وحتى تثمر الجهود، لا بد أن توجَّه لجيل جديد، ينشأ على معاني وطرق وأساليب جديدة.

لماذا يبقى بعض الناس في زماننا يتعبون أنفسهم، ويضيِّعون جهودهم في مخاطبة أناس جبناء، ومطالبتهم بالجهاد والتحرير، ويقدمون لهم الخطط، ويعلقون عليهم الآمال؟

إنهم لا يفهمون هذه اللغة، ولا يسمعون هذا الصوت، ولا يستجيبون لهذا النداء:

إنــه لا حيـاة لمن تنــادي   ومــا لجــرح بميت إيــلام

وفِّروا جهودكم وأوقاتكم، ووجهوها لإيجاد جيل جديد، ينشأ على الرجولة، ويمقت الذل والجبن، ويرغب في الجهاد والاستشهاد، فهو الذي ينفع معه الكلام، وتنجح فيه التربية.

٤ ــ ومن حِكَم التيه في سيناء، أن سيناء صحراء، ذات بيئة قاسية، وظروف طبيعية صعبة، وحياة شاقة، اختارها اللّه مكاناً للجيل الجديد من بني إسرائيل، لينشأ فيها النشأة التربوية الجديدة. ويُعَد فيها الإعداد الخاص الذي يؤهله لدخول الأرض المقدسة، وتحريرها من الجبارين وهكذا كان! وهذا يقودنا إلى أهمية إيجاد الجيل الجهادي، والتركيز على توفير الأجواء المناسبة له، ليشب على هذه المعاني.

إنه لا بد من التخلي عن مظاهر الترف والبذخ والإسراف، والخروج من حياة اللهو والعبث والضياع. وترك الدلال والتنعم الفاجر والرفاه القاتل، وعدم العبودية للأهواء والكماليات.

لا بد أن يقلِّل جيل الجهاد من هذه المظاهر الاستهلاكية الكمالية، وأن ينشأ على الزهد في الدنيا، والاستعلاء على فتنها ومغرياتها وملذاتها وشهواتها حتى لا يكون أسيراً لها، حتى لا يفضلها عن الجهاد، وحتى لا يجبن عن مواجهة الأعداء طلباً لتلك المتع والأشياء.

فلا تأس على القوم الفاسقين:

﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ مواساة لموسى عليه السلام، بعدما فُجع في همة قومه. وتسلية لموسى عليه السلام. وتوجيه رباني له، بأن لا يأس على القوم الفاسقين، ولا يحزن عليهم.

إنه لم يقصِّر في تربيتهم وتشجيعهم، ولكنهم أبوا أن يتجاوبوا معه، أو أن يستجيبوا له، لأنهم فاسقون، فلماذا يأسى على قوم فاسقين.

وتدل هذه الجملة على السبب الذي حملهم على رفض أوامر موسى عليه السلام. إنه الفسق.

والفسق هو الخروج عن أوامر اللّه ـ من قولهم: فسقت الفأرة إذا خرجت من جُحرها ـ فهم فاسقون، خارجون عن الحدود التي رسمها اللّه لهم، عاصون للأوامر الصادرة إليهم.

وقد ذكرت كلمة «الفاسقين» مرتين في هذه القصة:

الأولى: عندما قال موسى عليه السلام «رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين».

والثانية: عندما قال اللّه له: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

هم فاسقون فتبرأ موسى منهم. وهم فاسقون فدعاه اللّه أن لا يأسى عليهم. وهكذا كل الفاسقين دائماً!.

تلخيص لأهم دروس القصة:

١ ـ تكشف القصة عن ما جُبلت عليه نفوس اليهود من الذل والجبن والضعف.

٢ ـ تدل القصة على تمرد بني إسرائيل على نبيهم موسى عليه السلام، ورفضهم تنفيذ أوامره.

٣ ـ تدل القصة على سوء أدبهم مع اللَّه سبحانه، ومع نبيهم موسى عليه السلام.

٤ ـ إن الأرض المقدسة ـ فلسطين ـ قد كتبها اللَّه لجيل خاص من اليهود، وهم المؤمنون الذين نشأوا في الصحراء نشأة رجولية إيمانية. أما أحفادهم الكافرون الذين كفروا بالحق وحاربوا، فلا حق لهم في تلك الأرض المقدسة.

٥ ـ إن تفضيل اللَّه لنبي إسرائيل على العالمين، وإعطائهم ما لم يُعطِ أحداً من العالمين، ليس عاماً شاملاً مطرداً، وإنما هو خاص بالمؤمنين منهم، الذين وُجدوا قبل رسالة محمد صلى اللَّه عليه وسلم.

٦ ـ إن خوف اليهود وجبنهم، دفعهم إلى التخلي عن الحل الجهادي، وإيثار الحل الخيالي، المتمثل في قعودهم وانتظارهم خروج أهلها الجبارين بطوعهم وإرادتهم.

٧ ـ لم يوجد من ذلك الجيل الجبان، إلا رجلان غير خائفين، بسبب قوة إيمانهما.

٨ ـ إن قصر الخوف على اللَّه، وعدم الخوف من غيره، نعمة غامرة، ينعِم اللَّه بها على من يشاء من عباده.

٩ ــ تشير القصة إلى أفضل وسائل الانتصار في المعركة، وهي الحرب الهجومية، أو نظرية «أدخلوا عليهم الباب» كما تصرح بذلك الآيات.

١٠ ــ إن صاحب الأرض لن يخرج منها بإرادته واختياره. وإن المنتصر لن يتخلى عن انتصاره ــ ولو كان معتدياً ظالماً مثل اليهود الآن في فلسطين ــ بطوعه وإرادته، ولن يخرج من تلك البلاد التي احتلها بتفضل وكرم.

١١ ــ إن الجبان الكسول يُؤْثِر القعود على العمل والجهاد.

١٢ ــ إن الجبان الضعيف الكسول، يحرَم من شرف الجهاد والتحرير والاستشهاد، ولذلك لا يطالَب بهذه الفضائل، لأنه غير مؤهَّل لها.

١٣ ــ إن جيل الهزيمة غير جيل التحرير، وإن من نشأ على الجبن والذل لا يُطلب منه الجهاد، ولذلك لا تعلق عليه الآمال.

١٤ ــ إن ترك الجهاد والقتال يقود إلى التيه والضياع، حيث تعيشه الأمة في كافة مجالات حياتها. ولا يجمعها، ولا يقضي على حيرتها، ولا يزيل تيهها، ولا يوحد كلمتها إلا الجهاد.

١٥ ــ وجوب إعداد أجيال الجهاد والاستشهاد، ورجال التحرير والإنقاذ، إعداداً جهادياً، في بيئة جهادية مناسبة، يتخلون فيها عن الترف والبذخ والميوعة، ويعيشون حياة الجد والرجولة، ويرغبون في الشهادة والجنة!

* * *

٥

قِصَّة بقرة بني إسْرَائيلَ

قِصَّة بقرة بني إسرائيل

القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ
﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ
قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ
فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ
بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ
قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ

ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

موجز القصة من خلال الآيات :

وقعت جريمة قتْل في بني إسرائيـل، زمن موسى عليـه السلام، ولم يُعرف القاتل، وتدافعوا في القتل، بحيث صار بعضهم يتهم الآخر بأنه هو القاتل. ورفعوا الأمر إلى موسى عليه السلام، ليحكم بينهم.

وأراد اللَّه أن يكشف لهم القاتل، بواسطة معجزة مادية محسوسة. فأوحـى إلى موسى عليه السلام أن يأمرهم بذبح بقرة! أية بقرة كانت، بدون تحديد لمواصفاتها. ولو أخذوا أية بقرة وذبحوها لنفذوا الأمر وقاموا بالواجب!.

ولكن طبيعة اليهود في الجدال والتلكؤ في التنفيذ تأبـى ذلك:

فسألوا موسى عليه السلام عن عمر البقرة، فقال إنها ليست صغيرة ولا كبيرة، بل متوسطة العمر.

ثم سألوه عن لونها، فقال صفراء فاقعة تسر الناظرين.

ثم سألوه عن عملها، فقال: إنها معززة عند أهلها، لا تعمل في الحرث ولا في السقي.

وأخيراً: ذبحوها. وما كادوا يفعلون!.

ثم أمرهم موسى عليه السلام أن يضربوا جسد القتيل الميت بجزء من البقرة المذبوحة، ففعلوا، فأحيا اللَّه القتيل، ودبت فيه الروح، وأخبر عن قاتله، وقال: قتلني فلان.

ثم مات. وسط دهشة بني إسرائيل، واستغرابهم مما يشاهدون.

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٦٧ ــ ٧٤.

إسرائيليات حول القصة :

قال الإخباريون الذين ينقلون عن الإسرائيليات:

كان شاب في بني إسرائيل، وكان له عم غني له مال كثير، وكانت له ابنة جميلة، وكان ابن أخيه ينتظر موته بلهفة، ليتزوج ابنته ويرث ماله. ولكنه امتد بذلك الرجل العمر. فتعجل الشاب موت عمه، فعمد إليه فقتله! وحتى تضيع الجريمة، ولا يتهمه أحد بقتله، ألقى جثته أمام أحد بيوتهم! وقعد على باب البيت يبكي، ويتهم أصحاب البيت بقتلهم لعمه، ويطالبهم بديته. فأقسموا أنهم ما قتلوه.

ولما رفعوا الأمر إلى موسى عليه السلام، أمرهم بذبح بقرة! فتعجبوا من هذا الأمر، وظنوا أنه لا صلة له بالقضية التي تُشغلهم، فاعترضوا على موسى عليه السلام، فأكد لهم الطلب. فسألوه عن عمرها وعن لونها وعن عملها، وأجابهم على ذلك، فضيقوا على أنفسهم.

أخذوا تلك المواصفات من موسى عليه السلام، وراحوا يبحثون عن بقرة تتصف بها.

بحثوا عند بني إسرائيل، فلم يجدوا إلا بقرة واحدة فقط تتصف بها، وكان لتلك البقرة قصة أخرى ـ إسرائيلية طبعاً ـ.

كانت تلك البقرة لشاب يتيم فقير. كان باراً بأبيه الذي مات، وباراً بأمه التي ما زالت تعيش.

فساوموه على بيعها لهم، فساومهم، وبقي يساومهم، ويرفع سعرها تدريجياً، وهم يراجعونه ويساومونه: رفع سعرها من مائة دينار. ثم إلى مائتين. ثم إلى أربعمائة. ثم إلى ثمانمائة. ثم طلب منهم أن يضعوها في الميزان، وأن يدفعوا له ثمنها ما يساوي وزنها ذهباً! فاضطروا إلى الموافقة

لعدم وجود بقرة غيرها. ودفعوا للشاب ما طلبه، فصار من كبار الأغنياء لبِرِّه بوالديه.

أخذوا البقرة وذبحوها، ثم أخـذوا جزءاً منهـا ــ وقد اختلف رواة الإسرائيليات اختلافاً كبيراً في تحديد ذلك الجزء: أهو يدها أم رجلها أم فخذها أم رأسها أم...؟ ــ وضربوا به جسد القتيل..

أحيا اللّٰه القتيل، وتكلم لهم قائلاً: لقد قتلني فلان ابنُ أخي. ثم مات.

فحُرِم الشاب القاتل من ميراث عمه، عقوبة له على جريمته ومنذ ذلك اليوم لم يُوَرَّث قاتل من ميراث المقتول(١).

هذه الروايات الإسرائيلية، منها ما ذكرته آيات القصة في سورة البقرة، فنأخذه ونلتزمه ونقول به. ومنها ما سكتت عنه الآيات. فنحن نسكت عنه ولا نقول به، ولا نجيز لأنفسنا ولا لغيرنا الذهاب إلى الأباطيل والأساطير والإسرائيليات، فنفسر بها كلام اللّٰه سبحانه.

الكلمات الغريبة فيها:

١ ــ أتتخذنا هزواً : أتتخذنا سخرية.
٢ ــ لا فارض ولا بكر : لا عجوز مسنَّة، ولا صغيرة فتية.
٣ ــ عوان بين ذلك : وسط في العمر بين العمرين.
٤ ــ فاقع لونها : أصفر شديد الصفرة.
٥ ــ لا ذلول : ليست هينة سهلة الانقياد.
٦ ــ تثير الأرض : تقلب الأرض للزراعة.
٧ ــ تسقي الحرث : تسقي الزرع.

(١) انظر هذه الروايات في الدر المنثور ١: ١٨٦ ــ ١٩٧.

٨ ـ مسلَّمـة : سالمة من العيوب.

٩ ـ لا شية فيها : لا علامة لها، ولا لون غير اللون الأصفر.

١٠ ـ أدارأتم فيها : تدافعتم وتخاصمتم في القاتل للنفس.

إن اللَّه يأمركم أن تذبحوا بقرة:

طلب موسى عليه السلام من قومه أن يذبحوا بقرة:

«إن اللَّه يأمركم» إنه أمر اللَّه سبحانه، وليس أمره هو. وأمر اللَّه يجب أن يقابَل بالقبول والتسليم والتنفيذ.

وكأن موسى عليه السلام يعلم طبيعة قومه، وتأخرهم في التنفيذ، وتحايلهم في الأوامر، وهو يريد لهم أن يسارعوا في التنفيذ، ولهذا أسند الأمر إلى اللَّه. فلو أسنده إلى نفسه لربما ناقشوه ورفضوا أمره ـ مع أن الالتزام بأمر الرسول صلى اللَّه عليه وسلم واجب، لأنه لا يأمر بشيء من عنده بل بأمر اللَّه، فطاعته هي طاعة للَّه ـ.

وأخبرهم بأن أمر اللَّه واضح محدد مفهوم: أن تذبحوا بقرة.

بقرة: بهذا التنكير المقصود. فالتنكير يفيد العموم. إذبحوا بقرة. أية بقرة كانت. لا يهم لونها ولا حجمها ولا عمرها ولا عملها ولا ثمنها. بقرة. أية بقرة من بين البقر.

ولا يمكن أن يشتبه الأمر على من يريد أن يلتزم به وينفذه، لوضوح العبارة!.

قالوا: أتتخذنا هزواً:

لم ينفذ اليهود الأمر فوراً، ولم يطيعوا اللَّه ورسوله، وأنّى لهم أن يفعلوا ذلك؟ إنهم لا يملكون القلوب المنفّذة!

إنهم بدل أن يوقِّروا نبيهم وينفذوا أمره، تَوقَّحوا عليه، وأساءوا الأدب معه، واعترضوا عليه قائلين: أتتخذنا هزواً؟

أتسخر منا وتستهزىء بنا عندما تطلب منا هذا الطلب؟ وما هي الصلة بين ذبح البقرة وبين الكشف عن هوية القاتل؟ نحن جئناك في حل قضيتنا، نريد أن نعرف القاتل، وبما أنك نبـي تعلم الغيب بإذن اللَّه، فعليك أن تخبرنا عن القاتل، إنك تطلب منا ذبح بقرة، بدل أن تكشف عن القاتل. وهذا طلب غريب، يدل على أنك تتخذنا هزواً!

وهذا الاعتراض منهم يكشف عن طبيعة اليهود وصِلَتهم بـأنبيائهم وموقفهم من أوامر ربهم:

١ ــ إنهم يعتبرون أمر اللَّه نوعاً من الهزء والسخرية.

٢ ــ إنهم يظنون أن موسى بهذا الطلب يريد أن يشغلهم عن قضيتهم الأساسية.

٣ ــ إنهم يظنون أن نبيهم الجاد، يستهزىء ويلعب ويسخر ويلهو من خلال الأوامر التي يوجهها لهم!

وهذا يذكرنا بمقالة قوم إبراهيم عليه السلام، عندما طلب منهم أن يعبدوا اللَّه وحده وأن يتركوا عبادة الأصنام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْل، وَكُنّا بِهِ عالمِين. إِذْ قالَ لِأَبيهِ وَقَوْمِه: ما هٰذِهِ التَّماثيلُ التي أَنْتُمْ لَها عاكِفون؟ قالوا: وَجَدْنَا آباءَنَا لَهاعابدين. قال: لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ في ضَلالٍ مُبين. قالوا: أَجِئْتَنا بِالحَقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاّعِبين؟ قالَ: بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ الّذي فَطَرَهُنّ، وَأَنا عَلى ذٰلِكُمْ مِنَ الشّاهِدين﴾[1].

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥١ ــ ٥٦.

قوم إبراهيم الكفار اعترضوا عليه قائلين: أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟

وقوم موسى الذين يزعمون الإيمان به، اعترضوا عليه قائلين: أتتخذنا هزواً؟

ما هو الفرق بين الاعتراضيْن؟ لا نكاد نرى فرقاً!.

رغم اختلاف القائلين: فقوم إبراهيم عليه السلام كفار عابدون للأصنام. وقوم موسى عليه السلام مؤمنون به. لكن بماذا تصف قوماً مؤمنين بنبيهم، يمكن أن يخطر ببالهم أن هذا النبي الذي يؤمنون به ويتبعونه، يمكن أن يكون ساخراً مستهزئاً بهم؟

قال أعوذ باللّٰه أن أكون من الجاهلين!

رد موسى عليه السلام على اعتراض قومه، بأن نفى عن نفسه الهزء والسخرية، عندما نفى عن نفسه الجهل «قال أعوذ باللّٰه أن أكون من الجاهلين».

وهذا يدل على أن السخرية والاستهزاء جهل، وبخاصة إذا كانت في الموضوعات الدينية والأحكام الشرعية.

جاهلون: أولئك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، والذين جعلوا كل شيء لهواً ولعباً، حتى دينهم وإسلامهم وأحكامهم.

جاهلون: أولئك الذين لا يحلو لهم إلا أن «ينكّتوا» على القيم الدينية، والتعاليم الشرعية، والتوجيهات الإسلامية.

جاهلون: أولئك الذين حوّلوا حياتهم وحياة الآخرين إلى ضحك دائم، وتنكيت متواصل، وكوميديا مستمرة.

إن المسلم الصادق جاد ملتزم. قد يمزح ولكنه لا يقول إلا حقاً. وقد

يضحك ولكن بأدب ووقار. أما أن يحوِّل حياته إلى سخرية وهزء ولعب ولهو، فهذا ما يتعارض مع رسالته وهدفه في الحياة، ولا يرضى هذا المسلم الجاد أن يكون من الجاهلين!.

قالوا: أدع لنا ربك:

تتضمن هذه العبارة وقاحة أخرى من وقاحات اليهود، وسوء أدبهم في مخاطبة نبيهم، وفي حديثهم عن اللّٰه رب العالمين.

أدع لنا ربك.. ربك، حيث أضافوا الرب إليه هو، ولم يضيفوه إليهم. وفرق بعيد بين قول «ربك» وبين قول «ربنا».

كأنه ربك أنت، وليس ربنا نحن. ربك الذي أمرنا بهذا الأمر. فادْعُهُ أن يبين لنا المطلوب، وأن يوضح لنا الأمر، وأن يزيل لنا الإشكال.

أين هذا الكلام الصادر عن اليهود الذي يكشف عن طبيعتهم، من قول الصحابة الكرام رضي اللّٰه عنهم. عندما كان كلامهم للرسول عليه الصلاة والسلام، ودعاؤهم اللّٰه سبحانه، كله أدب ووقار. وذلك كما في مثل قوله سبحانه عنهم: ﴿وَقالوا: سَمِعْنا وَأَطَعْنا. غُفْرانَكَ رَبَّنا، وَإِلَيْكَ المَصير. لا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها، لَها ما كَسَبَتْ، وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ. رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسينا أَوْ أَخْطَأْنا. رَبَّنا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلى الّذِينَ مِنْ قَبْلِنا، رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ، وَاعْفُ عَنّا، وَاغْفِرْ لَنا، وَارْحَمْنا. أَنْتَ مَوْلانا، فَانْصُرْنا عَلى الْقَوْمِ الكَافِرين﴾(1).

سؤالهم عن عمر البقرة:

«قالوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِي. قال: إِنَّهُ يَقول: إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْر، عَوانٌ بَيْنَ ذٰلِك».

(1) سورة البقرة: آيتي ٢٨٥ ــ ٢٨٦.

ظنوا أن الإبهام والحيرة من جهة عمر البقرة، وأروه أنه لو حدد عمرها لعرفوها، ولهذا سألوه عن عمرها قائلين: «ما هي؟».

أجابهم على سؤالهم بقوله: «إنه يقول» وإسناده القول إلى اللّه، لينفي أنه قوله هو، وليوجد في قلوبهم الحافز على الالتزام، والباعث على التنفيذ، إنه قول اللّه، وهذا يوجب عليكم المسارعة في تنفيذ قوله سبحانه.

عمرها وسط، فلا هي فارض مسنة كبيرة، ولا هي بكر صغيرة.

ولعل كونها عواناً وسطاً في عمرها يشير لنا إلى أن أطيب الحيوانات لحماً، وألذها طعماً، وأجودها أكلًا، هو ما كان وسطاً في عمره. فلحم الحيوان الصغير ما زال في بداية نموّه، وقد تقلّ بعض فوائده الغذائية. ولحم الحيوان الكبير يكون قد قسا ويبس، وفقد بعض فائدته الغذائية.

افعلوا ما تؤمرون:

عجب موسى عليه السلام من تلكؤ قومه في تنفيذ أمر اللّه، وأزعجتْه لجاجتهم وكثرة أسئلتهم، التي لا ضرورة لها، ولا فائدة منها. ولا تقود إلا إلى تضييع التكليف، والتخلف عن التنفيذ.

ولهذا وجّههم إلى التنفيذ قائلًا: «افعلوا ما تؤمرون».

وهو بهذا يدعوهم إلى أن يغيروا موقفهم من أوامر اللّه، وأن يكون هو المسارعة في الأداء والحرص على التنفيذ.

يجب أن يكون تلقيهم لأوامر اللّه للتنفيذ، وليس للاعتراض والمزاجية.

وفرْق بين هذا الموقف اليهودي، وبين موقف الصحابة رضوان اللّه عليهم من أوامر اللّه، حيث كان تلقيهم لها لتنفيذها وأدائها والالتزام بها. وقد ضربوا في ذلك أمثلة عالية، وقدموا نماذج سامية.

سؤالهم عن لون البقرة:

لم يفعلوا ما طلبه موسى عليه السلام منهم، ولم يسارعوا بذبح البقرة. وإنما قادتهم لجاجتهم إلى سؤال جديد.

لما أزال الإبهام عن عمر البقرة، أَرَوْه أن الإبهام في جانب آخر، إنه لونها، إنهم لا يعرفون لونها، ولو عرفوا لونها لذبحوها: «قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟». فأزال الإبهام بقوله: «إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين».

بين لهم أنها صفراءُ فاقعٌ لونها. بمعنى أنها خالصة الصفرة، لا اختلاط فيها ولا تشابه، وليس فيها شعرة غير صفراء فاقعة.

وهذا تشديد من اللّه عليهم، ووضعهم في ضيق بالغ عقوبة لهم. لأن البقر الأصفر قليل، والأصفر الفاقع نادر الوجود.

ثم هي «تسر الناظرين» وعندما ننظر في هذه الجملة نستخرج منها بعض اللفتات:

١ ـ إن البقرة الصفراء ذات الصفرة الفاقعة عزيزة عند أهلها، لأنها تسر الناظرين، ولهذا لن يبيعوها إلا بثمن مرتفع. وهذا من التضييق عليهم.

٢ ـ إن اللون الأصفر الفاقع لون جميل ومحبب للنفوس، يسر الناظرين.

٣ ـ إن الإنسان السوي الفطرة، مفطور على محبة الألوان الجميلة. وإن محبة الجمال لا تتعارض مع الدين، ولا تُنافي الالتزام به، بل إن الدين يحض عليه ويشير إليه. ويضع عليه القيود والضوابط حتى لا يتحول إلى شهوات إباحية، ونزوات حيوانية.

٤ ـ الأوْلى للمسلم عندما يختار شيئاً أو يشتري سلعة، أن يختارها جميلة

تسر الناظرين، سواء كانت حيواناً أو فاكهة أو طعاماً أو لباساً أو أثاثاً. فالحاسة الفنية هي أساس الاختيار.

٥ ـ إنها دعوة إلى «تجميل» حياة المسلم، وإدخال السرور عليه بما ينظر إليه، ولذلك يعيش حياته ويمارس وظيفته ويقوم بعمله، بسرور نفسي، وذوق فني، وحسٍ جمالي!

إن البقر تشابه علينا:

سألوا موسى عليه السلام السؤال الثالث، حيث أَرَوْه أن الإبهام الآن في طبيعة عمل البقرة وفي وظيفتها عند أهلها. «قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟».

وهنا فقط، أحسوا بلجاجتهم وتأخرهم وتكاسلهم، وبحثهم عن ما لا خير فيه، فاعتذروا لموسى عليه السلام عن أسئلتهم وعن تأخرهم، فقالوا: «إن البقر تشابه علينا. وإنا إن شاء اللّه لمهتدون».

تشابه البقر علينا واختلط الأمر فلا ندري أية بقرة هي المطلوبة من بين البقر!

تشابهَ البقر عليهم. نعم. لكن من هو السبب في هذا؟ إنهم هم أنفسهم. فلو لم يسألوا موسى أي سؤال، ولو استقبلوا أول أمر وجهه إليهم بالتنفيذ، ولو تناولوا أية بقرة من بين البقر وذبحوها، فلن يختلط الأمر عندهم، ولن يتشابه البقر عليهم، ولقاموا بالواجب ونفذوا المطلوب!

إن الاشتباه والالتباس والحيرة، ضريبة يدفعها كل من يترك التشريع الرباني الميسر، ويذهب إلى التشديد والتعقيد والبحث عما لا فائدة منه ولا خير فيه.

كم نرى في الحياة من نماذج لأناس رفضوا اليسر والخير والبيان في

التشريع الرباني، فوصلوا إلى التعقيد والعسر والضيق والحرج، والالتباس والاختلاط والاشتباه.

أجابهم موسى عليه السلام على سؤالهم بأن حدد لهم طبيعة عمل البقرة عند أصحابها فقال: «إِنَّهُ يَقولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلـولٌ تُثيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقي الحَرْث. مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فيهَا».

إنها ليست مذلَّلة للعمل، لا تحرث الأرض، ولا تسقي الزرع، ولكنها معززة مكرمة عند أصحابها، وهي «مسلَّمة» خالصة من العيوب والنقائص والآفات، سواء في جسمها ولحمها، أوفي لونها ومنظرها، أوفي عمرها وحياتها، أوفي عملها ووظيفتها.

وهي «لا شيةَ فيها» ليست فيها علامة فارقة، ولا فيها شعرة غير صفراء فاقعة..

هذه هي البقرة المطلوبة منهم! فأين سيجدونها؟ ومتى سيجدونها؟ وكم سيكون ثمنها؟

قالوا: الآن جئت بالحق:

بعدما قدم موسى عليه السلام لقومه هـذا البيان، وأجـابهم على أسئلتهم، قالوا له: «الآن جئت بالحق!».

ونتعرف من هذه العبارة على أخلاق اليهود المرذولة، ووقاحتهم البذيئة، وسوء أدبهم في كلامهم وتعبيرهم، وموقفهم من أنبيائهم.

قالوا لموسى عليه السلام ما قالوا! ومن هوموسى؟ إنه نبيهم الذي يزعمون أنهم به مؤمنون، والذي أنقذهم من الذل، وقادهم إلى الحرية والعزة.

قالوا: الآن جئت بالحق. الآن فقط، وكأنه قبل ذلك لم يأتهم بالحق،

وكأنه قبل ذلك كان يتكلم بالباطل. وكأن الحوار السابق بينه وبينهم كان بالباطل، وكأن موسى النبي الكريم يخوض فيه بالباطل.

كأنه جاء بالباطل عندما أمرهم بذبح البقرة، وعندما بين لهم عمرها ولونها وعملها.

كأنه جاء بالباطل عندما قال: «إن اللّٰه يأمركم» وعندما قال: «أعوذ باللّٰه أن أكون من الجاهلين» وعندما قال: «افعلوا ما تؤمرون».

كأن السابق كله باطل. والآن فقط جاءهم بالحق.
إنهم اليهود، وإنها طبيعة اليهود، وإنها أخلاق اليهود.

فذبحوها. وما كادوا يفعلون:

وأخيراً. نفذ اليهود الأمر، وذبحوا البقرة. ذبحوها بعد هذه اللجاجة والأسئلة والتكاسل والتأخير.

ذبحوها. وكأنهم لم يذبحوها!.
إنهم لو ذبحوها منذ صدور الأمر الأول إليهم لكانوا منفِّذين للأمر، مسارعين فيه، مأجورين. مثابين عليه!.

أما الآن، وبعد هذه الأسئلة والتأخير والتكاسل، فإنهم فقدوا عنصر المسارعة في التنفيذ، وصفة الجندية للّٰه، والرغبة في الالتزام بأوامره والحصول على رضوانه.
ولهذا قال: «فذبحوها وما كادوا يفعلون»!.

ما كادوا: تدل على حصول الفعل بعد عسر ومشقة. كما تدل على بُطْئهم في التنفيذ، ومراوغتهم فيه، بحيث لم ينفذوا إلا مضطرين مكرهين.

قال الإمام الراغب الأصفهاني عن «كاد»: «كاد الزَّنْد: إذا تباطأ بإخراج ناره. ووُضِع «كاد» لمقاربة الفعل. يقال: كاد يفعل، إذا لم يكن قد فعل.

وإذا كان معه حرف نفي يكون لما قد وقع، ويكون قريباً من أن لا يكون»[1].

إن الذي ينفذ الأمر مضطراً مكرهاً، كأنه لم ينفذه، لأن اللّٰه يريد من المأمور أن ينفذ الأمر بتفاعل وهمة وحيوية وشوق ولهفة، أن ينفذه برغبة ومحبة ورضى. يريد أن يشارك كيانُ الإنسان كله لـذةَ التنفيذ والالتزام والجندية، وهذا لا يتحقق إلا عند المسارعة في التنفيذ، والنشاط في الأداء.

إن الذي ينفذ الأمر متأخراً، ويسبق التنفيذَ التكاسلُ والتحايل والتفلت والتهرب، فإذا فشل في تلك المحاولات، نفذ مُضطراً مُكرَهاً مُرغَماً، كأنه لم ينفذ، لأنه لم يشارك كيانه لذة التنفيذ، بل نفذت أعضاؤه فقط، وبذلك لم تتحقق فيه الحكمة من الأمر والتكليف، فتنفيذه وعدمه سواء، من حيث البعد التربوي والتوجيهي!.

قال تعالى عن الأضاحي والهَدْي الذي يذبحه الحجاج في الحج: ﴿وَالبُدْنَ جَعَلْناها لَكُم مِنْ شَعائِرِ اللّٰه، لَكُم فيها خَيْر، فَاذْكُروا اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْها صَوَافّ، فَإِذا وَجَبَتْ جُنوبُها، فَكُلوا مِنْها، وَأَطْعِمُوا القانِعَ وَالمُعْتَرّ.

كَذٰلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرون. لَنْ يَنالَ اللّٰهَ لُحومُها وَلا دِماؤُها، وَلٰكِنْ يَنالُهُ التَّقوى مِنْكُمْ، كَذٰلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّروا اللّٰهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ المُحْسِنِين﴾[2].

الأوامر الربانية لا تُراد لذاتها ــ وإنْ وجب على المسلم القيام بها بالكيفية التي حددها الشرع ــ إنما تُراد لثمرتها وهدفها وأثرها في المسلم.

إن المسلم مطالب من خلال الأوامر الربانية بشيئين مرتبطين معاً:

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٤٤٣.

(٢) سورة الحج: آيتي ٣٦ ــ ٣٧.

تنفيذ الأمر بالكيفية التي بينها الإسلام.

وتحقيق الهدف من الأمر على حياته وكيانه وسلوكه.

أما اليهود الذين ذبحوا البقرة متأخرين. فإنهم لم يحققوا الحكمة من الأمر، لم يسارعوا بالتنفيذ، ولم يشارك كيانهم لذة الجندية والالتزام. ولأنهم فقدوا هذه الآثار العظيمة، والمعاني المقصودة، فكأنهم لم ينفذوا! ولهذا قال القرآن عنهم: ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾.

سبب ذبح البقرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فيها. وَاللَّهُ مُخْرِجُ ما كُنْتُمْ تَكْتُمون. فَقُلْنا: اضْرِبوهُ بِبَعْضِها﴾.

لقد أَخَّر القرآن ذكر سبب أمرهم بذبح البقرة، فالقارىء للقصة يقف أولاً على توجيه الأمر لهم بذبح البقرة، ثم يقف على تلكؤهم في التنفيذ. أما لماذا يذبحونها فلا يعرفه إلا في آخر السياق.

هذا أسلوب من أساليب العرض الفني في القرآن.

قال سيد قطب في الظلال: «وأخيراً نجيء إلى جمال الأداء وتناسقه مع السياق. هذه قصة قصيرة نبدؤها، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه. نحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر اللَّه بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا. وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم.

ثم تتابَع الحوار في عرض القصة بين موسى وقومه، فلا نرى الحوار ينقطع ،ليثبت ما دار بين موسى وربه، على حين أنهم كانوا في كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه، فكان يسأله، ثم يعود إليهم بالجواب. ولكن سياق القصة لا يقول: إنه سأل ربه، ولا إن ربه أجابه، إن هذا السكوت هو اللائق بعظمة اللَّه، التي لا يجوز أن تكون في طريق اللجاجة التي يزاولها بنو إسرائيل.!

ثم تنتهي إلى المباغتة في الخاتمة ـ كما بوغت بها بنو إسرائيل ـ انتفاض الميت مبعوثاً حياً، على ضربة من بعض جسده لبقرة بَكماء مذبوحة، ليس فيها حياة، ولا مادة حياة!.

ومن ثم يلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية في قصة قصيرة من القصص القرآني الجميل»(١).

ولعل الحكمة من تأخير بيان السبب، هو أن يقف السامع على صورة من رذائل اليهود، وسوء أخلاقهم، وموقفهم من أنبيائهم وأوامر ربهم.

إنهم هم الذين يحتاجون لذبح البقرة، وهم المستفيدون منه، ومع ذلك فعلوا ما فعلوه، فكيف لو لم يكونوا هم المستفيدون؟.

أراد اللَّه أن يخرج ما كانوا يكتمون، وأن يكشف عن القاتل الحقيقي.

وهكذا كان. فأخذوا جزءاً من جسد البَقرة وضربوا به جسد الإنسان الميت، فعادت إليه الروح، ودبت فيه الحياة، وتكلم عن قاتله. «فقلنا اضربوه ببعضها».

وقد اختلف السابقون في تحديد بعض البقرة الذي ضُرب القتيل به. ولا نجيز الاختلاف في ذلك. ولا الخوض فيه، ولا محاولة تحديده، لعدم وجود ما يشير إليه في المصادر الصحيحة، ولعدم حصول فائدة في معرفته والوقوف عليه.

قال الإمام الطبري ينكر على أولئك خلافاتهم: «والصواب عندنا من القول في تأويل قوله: «فقلنا اضربوه ببعضها» أن يقال: أمرهم اللَّه جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب. ولا دلالة في الآية، ولا في

---

(١) في ظلال القرآن ١ : ٨٠.

خبر تقوم به حجة، على أي أبعاضها التي أُمِر القوم أن يضربوا القتيل به. وجائز أن يكون الذي أمِروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائز أن يكون ذلك الذنب أو غضروف الكتف، وغير ذلك من أبعاضها. ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها، فأحياه اللَّه»[1].

كذلك يحيي اللَّه الموتى:

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا. كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

إن ذبح البقرة لا يُراد لِذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق هدف آخر. وهو إقامة الدليل العملي الواقعي على قدرة اللَّه على إحياء الموتى، ليزداد المؤمنون إيماناً، وينتقل الآخرون من موقع الشك إلى موقع الإيمان.

كذلك يحيي اللَّه الموتى. لقد شاهدتم أمام أعينكم معجزة ربانية باهرة: إنسان ميت، جسد لا روح فيه ولا حراك. وبقرة عجماء بكماء. ذبحتم أنتم البقرة، وتحولت إلى جسد لا روح فيه ولا حراك. وأخذتم أنتم جزءاً ميتاً من أجزاء البقرة الميتة، وضربتم به جسد الإنسان الميت. وفوجئتم بالمفاجأة المدهشة: دبت الحياة في الإنسان الميت ـ من تلك الضربة ـ وتحرك حركة الأحياء، وتكلم كما يتكلم الأحياء.

كذلك المشهد الذي شاهدتموه، يحيي اللَّه الموتى، ويبعثهم يوم القيامة، ويخرجون من قبورهم بكامل خصائص الحياة ومظاهرها وحقيقتها.

وتوظيف القرآن لقصة البقرة دليلاً على قدرة اللَّه المطلقة، وعلى إحياء الموتى يوم القيامة، يطلعنا على طريقة القرآن في تقرير حقائق الإيمان وأسس التصور الإسلامي، وعرض الأدلة عليها.

---

(١) تفسير الإمام الطبري بعناية محمود شاكر ٢: ٢٣١.

إن القرآن لا يعرض حقائق الإيمان مجردة مستقلة، وإنما يقرنها بالأدلة القوية، وهذه الأدلة منتزعة من عالم الواقع المشاهَد، مأخوذة مما يعيشه الناس ويدركونه ويتعاملون معه. وبهذا يكون للدليل القرآني سهولته ويسره، وقوته وفاعليته، وتأثيره وحيويته، ونجاحه في تقرير الحقائق التي يتحدث عنها.

وإن القرآن يتخذ من قصصه وسيلة لإقرار حقائق الإيمان، ويكون هذا السياق مجالاً لعرض تلك الحقائق والتأكيد عليها. وهذا دليل ما نقوله بأن قصص القرآن لا يُراد لذاته، ولا يُهدف منه إلى المتعة القصصية واللذة النفسية ـ فهذا متحقق فيه ـ ولكن القرآن يوظفه وسيلة إلى غاية شريفة، وهي إقرار حقائق الإيمان والتدليل عليها.

فذبح البقرة، وضرب القتيل بجزء منها، وانبعاث ذلك القتيل حياً، هدف منه القرآن إلى تحقيق عدة أهداف. منها:

١ ـ الكشف على القاتل الحقيقي، وتعريف اليهود عليه.

٢ ـ إقامة الدليل العملي على قدرة اللّه على إحياء الموتى.

٣ ـ تقديم آية من آيات اللّه، ومعجزة من معجزاته، التي تخرق سنن الطبيعة ونواميس الكون، فلم يحصل أن بُعِث ميت حياً بضربة من قطعة لحم ميت، إلا عن طريق معجزة ربانية باهرة.

٤ ـ تعريفنا على طبيعة اليهود، من خلال نظرتهم لأوامر اللّه، وتعاملهم مع أنبيائهم.

٥ ـ تحذير المؤمنين من أن يتخلقوا بأخلاق اليهود المرذولة.

ثم قسمت قلوبكم من بعد ذلك:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِك، فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَة﴾.

ماذا ترتب على ذبح البقرة وإحياء القَتيل بها عند اليهود؟ وما أثر هذا

على قلوبهم وحياتهم؟ لقد قست قلوبهم بعد ذلك، فأصبحت كالحجارة في قسوتها، بل هي أشد قسوة من الحجارة.

حقاً إن اليهود يهود، وإنهم يملكون قلوباً يهودية عجيبة!.

والإنسان يستغرب من تلك القلوب وقسوتها، التي أصبحت أشد قسوة من الحجارة القاسية.

ووجْه الاستغراب أن تكون تلك القلوب البشرية، مركز المشاعر والعواطف والانفعالات، أن تكون أقسى من الحجارة القاسية. أن تكون تلك القلوب أقسى وأجمد وأصلد من الحجارة الجامدة القاسية الصلدة التي لا تنفعل ولا تتأثر ولا تحب ولا تكره، ولا تغضب ولا ترضى.

وماذا يُرجى ممن يحمل قلباً أقسى من الحجارة؟ وماذا بقي من ذلك الحطام المادي الذي يسمونه «الإنسان اليهودي» ــ وكذلك كل من كان مثله ــ عندما يفقد قلبه؟ ماذا يبقى منه إذا فسدت تلك المضغة التي بفسادها يفسد الإنسان كله، وبصلاحها يصلح الإنسان؟ كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

لقد عرض القرآن قلوب اليهود كما هي. على حقيقتها وطبيعتها، وذلك ليتعرف المسلمون على أعدائهم اليهود، وليعرفوا كيف يتعاملون معهم.

وهناك فرْق بين من يساوي القلوب الجامدة الصلبة بالحجارة في قسوتها، وبين من يجعل هذه القلوب أقسى من الحجارة.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان (٢) باب فضل من استبرأ لدينه وعرضه رقم (٣٩).
ورواه مسلم في كتاب المساقاة رقم (٢٢) باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (٢٠)، عن النعمان بن بشير الأنصاري رضي اللّه عنه.

لقد شبّه أحمد شوقي قلوب الفرنسيين بالصخر، وجعلها مساوية للصخر في القسوة والصلادة، وذلك في قصيدته «دمشق» التي نظمها بمناسبة دخول الفرنسيين دمشق إبان الاستعمار الفرنسي لسوريا، وتخريبهم فيها. فقال:

سَلي مَنْ راع غِيدَكِ بَعْدَ وَهْن
أَبَيْنَ فُؤادِهِ والصَّخْرِ فَرْقٌ؟

أما القرآن فقد جعل قلوب اليهود أقسى من الحجارة، واعتبر الحجارة الصماء ألين من تلك القلوب! وهذا حق وصدق، لا مبالغة فيه ولا إفراط، وليس مجرد تصوير وتشبيه.

والتاريخ البشري يدل على مصداق هذه الحقيقة القرآنية، والتاريخ المعاصر أكبر شاهد على ذلك، حيث اكتوت البشرية بنار الحقد اليهودي، المنبعثة من قلوب هي أقسى من الحجارة.

وإن مما يؤسف له أن يقتدي أناس باليهود في قسوة القلوب، فيحملون بين جوانحهم قلوباً أقسى من الصخر، ويتعاملون مع الناس بهذه الحجارة الصلدة ـ أعني القلوب القاسية ـ فيظلمون ويبغون ويتجبرون ويؤذون ويحاربون بلا رحمة ولا إنسانية!.

وماذا بقي لمن يملك قلباً أقسى من الحجارة؟ وما هي آثار حكمه عندما يُبتلى به الناس؟.

نماذج لحجارة ألين من قلوب اليهود:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِك. فَهِيَ كَالحِجَارةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَة. وَإِنَّ مِنَ الحِجَارةِ لَما يَتَفجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارِ. وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء. وَإِنَّ مِنْهَا لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّه. وَما اللَّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلون﴾.

قلوب اليهود أقسى من الحجارة! نعم! والحجارة ألين من قلوب اليهود! نعم!

وللدلالة على هذه الحقيقة، أوردت الآية نماذج وأمثلة لهذه الحجارة اللينة الخاشعة، وهذه النماذج عملية واقعية، مأخوذة من حياة اليهود أنفسهم، إنها حوادث رآها اليهود، وشاهدوا فيها ليونة الحجارة.

«إن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار» وهذه الحقيقة لا تحتاج إلى تمثيل، لأنه يعرفها اليهود وغيرهم. فمن أين تنبع الأنهار وتتفجر؟ أليس من الجبال؟ لقد لان الصخر حتى تفجر منه النهر!.

«وإن منها لما يشَّقّق فيخرج منه الماء» وهذه الحادثة شاهدها اليهود بعيونهم! لقد عطشوا في الصحراء، فاستسقوا موسى عليه السلام، فاستسقى موسى عليه السلام ربه، فأمره اللَّه أن يضرب بعصاه الحجر، ففعل. فرأى اليهود اثنتي عَشْرَة عيناً تنبجس ـ أي تنز من بين الصخر كمرحلة أولى للتفجر ـ ثم تنفجر منه انفجاراً، تسيل فيه مياهها بغزارة. وفي ذلك يقول اللَّه: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِه، فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الحَجَر، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً. قَدْ عَلِمَ كُلُّ أناسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾(١).

«وإن منها لما يهبط من خشية اللَّه» وهذا نموذج عملي آخر، علم به اليهود عن طريق نبيهم موسى عليه السلام، إذ حصل معه شخصياً. فعندما ذهب عليه السلام لمناجاة ربه، طلب أن يراه، وأخبره اللَّه بأنه لن يراه في الدنيا، وتجلى ربه للجبل فجعله دكاً. لقد هبط الجبل من خشية اللَّه. قال تعالى: ﴿فَلَمّا جاءَ موسى لِميقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّه، قالَ رَبِّ أَرِني أَنْظُرْ إِلَيْك. قال: لَنْ تَراني. وَلٰكِن انْظُرْ إِلى الجَبَل، فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَراني. فَلَمّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً، وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً، فَلَمّا أفاقَ قالَ سُبْحانَكَ. . .﴾(٢).

(١) سورة البقرة: آية ٦٠.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

طبيعة اليهود وأخلاقهم من خلال قصة البقرة:

قلنا إن قصة البقرة تقدم لنا الطبيعة اليهودية مكشوفة، وتبين لنا الأخلاق اليهودية على حقيقتها.

وهذا بعض ما يمكن أن نأخذه منها:

١ ـ محاولتهم إخفاء الحقائق. فقد تدارءوا وتدافعوا في القاتل للنفس، وحاولوا أن يتهموا الأبرياء.

٢ ـ سوء أدبهم مع أنبيائهم، وعدم توقيرهم لهم. حيث سألوه عن البقرة أسئلة لا داعي لها ولا ثمرة منها، وكذلك عندما قالوا له: أتتخذنا هزواً. وأخيراً عندما قالوا له: الآن جئت بالحق.

٣ ـ عدم احترامهم لأوامر اللّٰه وأحكامه وتعاليمه، ومحاولة التهرب منها والتحايل عليها.

٤ ـ تأخرهم وتلكؤهم في تنفيذ أوامر اللّٰه، حيث لم ينفذوا الأمر إلا أخيراً وهم مضطرون مرغمون «فذبحوها وما كادوا يفعلون».

٥ ـ لجاجتهم وكثرة أسئلتهم فيما لا داعي له.

٦ ـ انشغالهم فيما لا ينفع، وبحثهم عما لا يجدي.

٧ ـ الاهتمام بالشكليات والفرعيات، والالتفات إلى الهامشيات والثانويات، على حساب الأصول والأساسيات.

٨ ـ وهم بهذه الطبيعة الرخوة، والنفسية المائعة، استحقوا أن يشدد اللّٰه عليهم، وأن يحرم عليهم طيبات أُحلت لهم.

٩ ـ وهم بذلك أيضاً استحقوا أن يعاقبهم اللّٰه عقوبة شديدة، وهي قسوة قلوبهم.

وصاحب القلب القاسي، ينال عقوبة شديدة، تهون أمامها كل العقوبات، لأنه إنْ ملك قلباً خاشعاً ليناً فإنه يقدر على أن يصحح المسار، ويسارع بالخير والتوبة. أما إذا ملك قلباً قاسياً فالمرض في الأساس، في الشجرة وليس في الثمرة.

١٠ ــ الحجارة والجمادات أصبحت أكثر ليونة وتأثراً وخشوعاً من قلوب اليهود، فماذا بقي لهؤلاء اليهود؟

قصة البقرة وطريقة اليهود في المفاوضات:

إن قصة البقرة تقدم لنا حقيقة قاطعة، نتعرف منها على طريقة اليهود في المفاوضات، حرِيٌّ بنا نحن مسلمي هذا الزمان، أن نقف أمامها، لنستخلص منها ما ينفعنا، وتُعرفنا على الطريقة الناجحة في مواجهة اليهود والتعامل معهم.

ها هم مع نبيهم موسى عليه السلام. كم مرة سألوه؟ وكم أعادوا عليه؟ وكم اعترضوا عليه؟ وهو نبيهم وقائدهم، فكيف يفاوضون أعداءهم؟ وكيف يتعاملون معهم؟.

ثم إن قضية البقرة بسيطة سهلة، وجزئية صغيرة، وهي تخصهم وتهمهم، وهم المستفيدون منها، ومع كل ذلك كم أخذت منهم ومن موسى عليه السلام وقتاً وجهداً؟ وكم حاولوا أن يتحايلوا وأن يتملصوا وأن يتخلصوا من التكليف؟

إن اليهود لا يملُّون ولا يضجرون ولا يسأمون من المفاوضات، لأنهم يتقنون فنَّ التهرب والتملص والتحايل فيها، وهم يتمتعون أثناءها بنفس طويل، وأعصاب باردة، وهم على استعداد لأن يضيعوا فيها الكثير من الجهود والأوقات، وأن يعودوا من حيث بدأوا مرات ومرات!.

إن قضية شكلية هامشية تأخذ من اليهود ـ ومن الطرف الآخر في المفاوضات ـ أوقاتاً طويلة، قد تستغرق شهوراً أو سنوات. وإن قضية صغيرة، يعيدون فيها ويزيدون ويقفون أمامها ما يشاءون، ويكتبون فيها الكتب والمذكرات، ويقومون فيها بالزيارات والرحلات، بدون ملل أو ضجر!.

ليس المهم عندهم حل المشكلة، بل هم حريصون على تعليقها وتأخير حلها، وليس المهم عندهم إظهار الحق، بل هم حريصون على تضييقه، وليس المهم عندهم الخروج بنتيجة معقولة، بل هم حريصون على إبقاء القضية في الغموض والضباب، وأن يُبقوا خصومهم في ضياع وفراغ.

هذا ما عرفناه عن اليهود من خلال قصة البقرة، وهذا ما عرفناه عنهم في تاريخهم كله، وأبرز ما تكون طريقتهم واضحة في هذا الزمان، من خلال المفاوضات ـ المباشرة وغير المباشرة ـ التي يُجرونها مع أعدائهم!.

لما احتل اليهود الضفة الغربية وغيرها عام سبعة وستين، اتخذ مجلس الأمن الدولي قراره رقم ٢٤٢ يطالب اليهود بالانسحاب من الأراضي العربية التي احتلت بعد ذلك العام، وصاغ القرار اللورد كارادون ـ مندوب بريطانيا في مجلس الأمن ـ.

ولكن اليهود تحايلوا على القرار، وفهموه فهماً يهودياً، وِفق طريقتهم في المفاوضات، وجرت معهم مفاوضات طويلة وشاقة ومضنية، عن طريق المبعوثين الدوليين ـ ابتداء من المبعوث جو ناريارنج ـ ولكن بدون جدوى.

قالوا: إن مجلس الأمن لا يطالبنا بالانسحاب من كل «الأراضي» المحتلة في الحرب، وإنما الانسحاب من «أراضٍ» محتلة، وتحديد هذه الأراضي وتعيينها يحتاج إلى مفاوضات مباشرة بيننا وبين العرب.

هل ينسحبون من الأراضي المحتلة ـ حسب المفهوم العربي ـ

أو ينسحبون من «أراضٍ محتلة» ـ حسب المفهوم اليهودي ـ أخذت هذه المسألة أكثر من عشرين سنة ـ حتى الآن ـ ولم تسفر عن نتيجة!.

ولما وقعت دولة عربية في الفخ الأميركي اليهودي ـ مصر ـ عقدت مع اليهود اتفاقية ـ كامب ديفيد ـ المعروفة، وانسحب اليهود من معظم سيناء مقابل إنهاء الحرب بين البلدين، وإنشاء علاقات دبلوماسية بينهما ـ وغير ذلك مما لم يظهر على الناس ـ ولكن اليهود أثاروا مشكلة عويصة. هي مشكلة «طابا». حيث رفضوا الانسحاب منها باعتبارها أرضاً يهودية. وطالبت مصر بالانسحاب منها، باعتبارها أيضاً مصرية.

قال اليهود: بيننا وبينكم المفاوضات، وهيئات التحكيم الدولية، والمبعوثون الدوليون، والخبراء والمحامون! وبدأوا مفاوضات طويلة، مضى عليها ـ حتى الآن ـ عشر سنوات، ولم تنته الأزمة، ولم يتم الانسحاب.

علماً بأن «طابا» مساحة من الأرض صغيرة، لا تتجاوز ملعباً لكرة القدم.

فإذا كان انسحابهم من قطعة أرض، بمساحة ملعب لكرة القدم، احتاج إلى أكثر من عشر سنوات! فكم هي المدة التي يقدرها العرب لانسحاب اليهود من الضفة الغربية والجولان وجنوب لبنان؟ وكم سينفق العرب في مفاوضاتهم مع اليهود للانسحاب، من أوقاتهم وأعمارهم وجهودهم وأموالهم وأعصابهم؟ ولن يحصلوا بعد ذلك من اليهود على شيء إلا الفتات!.

يا قوم: إن اليهود يجيدون فن المراوغات والتحايل في المفاوضات. وإنهم لن يستجيبوا إلا لصوت واحد هو صوت القوة، ولن يُخرجهم من فلسطين إلا أسلوب واحد هو أسلوب الجهاد والقتال!

أهم الدروس من قصة البقرة:

نوجز فيما يلي أهم الدروس والعبر والدلالات التي تؤخذ من قصة البقرة.

١ ـ وجوب تلقي أوامر اللَّه وأحكام الشريعة لتنفيذها وأدائها والالتزام الكامل بها. وهذا يعني مسارعة المأمورين بالأداء والتنفيذ.

٢ ـ عدم التحايل على أوامر اللَّه أو التملص والتهرب منها.

٣ ـ إن العامل المباشر في الالتزام أو عدمه هو القلب، فإذا امتلأ القلب بالإيمان باللَّه وتعظيمه واحترام أوامره، وجدت عنده الرغبة في الأداء، والمسارعة في التنفيذ، فيُصدر القلب أمره للكيان الإنساني، فتلبي أجهزته فوراً.

وإذا كان القلب لا يوقر اللَّه، ولا يحترم أوامره، ولا يريد أداءها، حاول التعلل والتهرب والاعتذار، وكأنه يُصدر أوامره للكيان، فتضعف أجهزته عن الأداء.

فإذا ما رأينا إنساناً نشيطاً، مسارعاً في الطاعات، سبّاقاً إلى الخيرات، جاداً في الالتزام والتنفيذ، علمنا أن قلبه سليم جاد مؤمن باللَّه معظِّم له.

وإذا ما رأينا إنساناً على العكس من ذلك، كسولاً ضعيفاً عاجزاً، متحايلاً على أحكام اللَّه، متهرباً منها، عرفنا أن العلة في قلبه، وعندما يُعرَف مكمن الداء، يصدُق تشخيص المرض، يسهل السير نحو العلاج، وتنجح التربية.

٤ ـ عدم الانشغال بالأمور الثانوية. والمسائل الهامشية، لأن البحث فيها لا يجدي ولا ينفع، ولأنها مضيعة للوقت والجهد، ولأنها تعيق عن التنفيذ.

٥ ـ أوامر اللَّه تؤخَذ كما أمر اللَّه، ولا داعي للزيادة عليها والانقاص منها، ولا داعي للإكثار من المسائل والتفصيلات والفرعيات التي لا حاجة لنا بها.

٦ ـ التشديد والتعقيد ضريبة تصيب كل الذين لم يكتفوا بالبيان الرباني، ونتيجة محقَّقة، تقع بالذين تنكبوا طريق الوضوح واليسر إلى التفصيلات الفرعية، التي لا داعي لها، ولا ثمرة منها.

فها هم اليهود قد شددوا على أنفسهم، فشدد اللَّه عليهم. ولو ذبحوا أية بقرة جاز.

ولهذا نهى اللَّه المؤمنين عن التفصيلات التي لا داعي لها، والأسئلة التي لا فائدة منها:

﴿يا أَيُّهَا الّذينَ آمَنوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ، وَإِنْ تَسْأَلوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ القُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ. عَفا اللَّهُ عَنْها، وَاللَّهُ غَفورٌ حَليم. قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحوا بِها كافِرين﴾(١).

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال:

خطبَنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: أيها الناس! قد فرض اللَّه عليكم الحج فحجوا.

فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول اللَّه؟ فسكت. حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم:

لو قلت: نعم. لو جبت. ولما استطعتم. ثم قال: ذروني ما تركتكم. فإنما هلكَ من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»(٢).

---

(١) سورة المائدة: آية ١٠١.

(٢) مسلم. كتاب الحج ١٥، باب فرض الحج مرة في العمر ٧٣، حديث رقم ١٣٣٧.

وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم:

«أعظم المسلمين في المسلمين جُرماً، من سأل عن شيء لم يحرَّم، فحرِّم على الناس من أجل مسألته»[1].

٧ ـ وجوب احترام الأنبياء والمرسلين، والعلماء العاملين، والأدب في الحديث معهم وعنهم.

٨ ـ على العالم والداعية أن يخاطب قلوب المسلمين، وأن يلمس أوتارها، وذلك ليتم التأثر والانفعال، وإذا ما وجد عندهم تلكؤاً أو تكاسلاً، عالج هذا بحكمة.

٩ ـ إن الالتزام بالأوامر الربانية وأداءها، يقود إلى خشوع القلب وصلاح النفس، وإصلاح الحياة،وإن عدم الالتزام والتنفيذ يقود إلى أقسى عقوبة وهي قسوة القلب.

١٠ ـ يريد الإسلام من المسلم أن ينفذ أوامر اللَّه بحيوية ولذة ونشاط واندفاع، وأن يشارك كيانه كله لذة التفاعل والرضى والتنفيذ، مثل الشعور والعقل والخيال والنفس والحواس والأعضاء.

وهذا لا يتحقق إلا عند المسارعة في الأداء، والمباشرة في التنفيذ.

أما إذا حاول المسلم التهرب والتملص والتحايل، فإن الرغبة عنده تفتر، والهمة تضعف، والرضى والقبول يزول، والحواس تفقد لذة المشاركة، فإذا ما اضطر للتنفيذ كان تنفيذاً بارداً ميتاً، وأداء آلياً جامداً. «فذبحوها. وما كادوا يفعلون»!.

* * *

(١) مسلم: كتاب الفضائل ٤٣، باب توقيره صلى اللَّه عليه وسلم ٣٧، حديث رقم ٢٣٥٨.

٦

قِصَّةُ أَصْحَابِ السَّبْتِ

قِصَّة أَصْحَاب السَّبْتِ

القصة في العرض القرآني:

قال الله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾(١).

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٦٣ ـ ١٦٨.

موجز القصة:

تتحدث هذه الآيات عن قصة قرية من قرى اليهود، تقع على شاطىء البحر، هي قرية من بين تلك القرى التي كانوا يسكنون فيها، تقع على شاطىء بحر من تلك البحار!

وقد أُمِر اليهود سكان القرية بعدم صيد الحيتان والأسماك يوم السبت وأبيح لهم الصيد في باقي أيام الأسبوع.

وقد ابتلاهم اللَّه في هذا التكليف، حيث كانت الأسماك تبتعد عنهم في أيام الصيد، بينما كانت تأتيهم يوم السبت «شرّعاً».

ووسوس الشيطان في نفوس طائفة من أهل القرية، وزين لهم اصطياد الأسماك. ولكن كيف يتحايلون على أمر اللَّه؟ هداهم شيطانهم إلى حيلة شيطانية ماكرة. وأرشدهم إلى طريقة اصطادوا فيها الأسماك يوم السبت!

انقسم أهل القرية إزاء تصرف الفريق المعتدي إلى فريقين:

الفريق الأول: هم الصالحون الدعاة، قاموا بواجبهم في الدعوة، وأنكروا على المتحايلين على أوامر اللَّه تحايلهم وعدوانهم وصيدهم يوم السبت.

الفريق الثاني: هم الساكتون، سكتوا عن عدوان المعتدين. وتوجهوا باللوم والإنكار على الصالحين الدعاة، بحجة أنه لا فائدة من نصح ووعظ قوم هالكين معذَّبين.

أجاب المصلحون اللائمين الساكتين، بأنهم يهدفون من الإنكار: الإعذار أمام اللَّه وأداءً الواجب، ثم لعل القوم المعتدين يتقون.

ولما وقع بالمعتدين عذاب اللَّه، مسخهم اللَّه قردة خاسئين، وكان المسخ حقيقياً، ولم يتناسل القردة الممسوخون، ولم يعيشوا بعد ذلك إلا قليلاً.

وأنجى اللّٰه فريق المصلحين الدعاة. وسكت القرآن عن مصير فريق الساكتين. سكت عنهم لهوانهم على اللّٰه. وبما أنهم لم يُذكَروا مع الناجين، فيبدو أنهم كانوا مع الهالكين الممسوخين ـ واللّٰه أعلم! ـ

إسرائيليات في القصة:

أضاف رواة الإسرائيليات ومروِّجوها إضافات على ما عرضه القرآن منها.

حدّد بعضهم اسم القرية، فقالوا هي: «أيلة» أو «إيلات» أو «العقبة» على خليج العقبة. وقال آخرون بأنها «طبرية» الواقعة على بحيرة طبرية.

قالوا: وكان في القرية صَنَمان على ساحل البحر، يقال لأحدهما «لقيم» ويقال للآخر «لقمانة» فأوحى اللّٰه إلى السمك أن يحج إلى الصنمين يوم السبت. وطالب اللّٰه اليهود بأن لا يصيدوا السمك يوم السبت لقدومه للحج.

وكانت الأسماك تأتي يوم السبت بكثرة، وكأنها أشرعة تسير على وجه الماء، وكانت تبتعد عن الساحل في الأيام الأخرى.

فقال بعض اليهود: إنما نُهينا عن الصيد يوم السبت. فتعالوا نعمل للسمك البِرك والحياض ليسقط فيها يوم السبت، فنأخذه ونأكله فيما بعد. وقام المعتدون بجريمتهم وعدوانهم.

قام فريق من أهل القرية ينهون المعتدين عن السوء والعدوان. ولامهم فريق من الساكتين.

قال الآخرون: لا نبيت معكم الليلة في القرية. فخرجوا منها، وباتوا على مشارفها. وفي الصباح: نظروا إلى أهل القرية المعتدين والساكتين، فلم يخرج منهم أحد، ولم يُفتح لهم بيت، فتعجبوا. وبعثوا رجلاً منهم يستطلع الخبر. فنظر في دار فإذا أهلها قردة، ونظر في دار أخرى فإذا جميع أهلها قردة. وهكذا باقي البيوت!

فرجع إلى جماعته فأخبرهم، فجاءوا وفتحوا الأبواب، وإذا جميع أهلها قردة! فجعل الرجل منهم يومىء إلى القرد: أأنت فلان؟ فيومىء القرد برأسه: أن نعم، وهو يبكي. فقالوا لهم: لقد حذرناكم!

وفتحوا لهم الأبواب، فخرجوا. وانطلقوا إلى البرية، وماتوا[1].

الكلمات الغريبة فيها:

١ ــ حاضرة البحر : على ساحل البحر.
٢ ــ يعْدون في السبت: يعتدون فيه بمخالفة أمر اللَّه.
٣ ــ السبت : أصل السبت القطع. وسمي يوم السبت: لأن اللَّه خلق السموات والأرض في ستة أيام، من يوم الأحد ليوم الجمعة.
٤ ــ يوم سبتهم : يوم انقطاعهم عن العمل يوم السبت.
٥ ــ شرَّعاً : تسير على وجه الماء، ظاهرة بارزة كأنها شراع.
٦ ــ نبلوهم : نمتحنهم ونختبرهم.
٧ ــ عذاب بئيس: عذاب شديد مؤلم موجع.
٨ ــ عتوا : تمردوا وتجبروا وتكبروا.
٩ ــ خاسئين : أذلاء مهانين، معذبين.

القرية حاضرة البحر:

﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾.

يأمر اللَّه رسوله عليه الصلاة والسلام أن يواجِه اليهود بهذه القصة التي وقعت لفريق من أسلافهم، الذين كانوا يسكنون مدينة ساحلية على شاطىء البحر.

---

(١) أنظر الدر المنثور للسيوطي ٣: ٥٨٧ ــ ٥٩٢.

وهذا يدل على أن هذه الآيات مدنية، وضِعت في سورة الأعراف المكية ـ ومعروف أن ترتيب الآيات في السور توقيفي، وليس اجتهادياً من قبل الصحابة ـ ولهذا قال العلماء بأن الآيات من ١٦٣ ـ ١٧٠ من سورة الأعراف مدنية، لأنها تتحدث عن أصحاب السبت، وتأمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يواجههم بها، وأن يسألهم عنها، واليهود كانوا في المدينة، ولم تكن مواجهة بينهم وبين رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قبل الهجرة في مكة!

وليس المراد بسؤال اليهود عن ما جرى لأسلافهم المعتدين، أن يتعلم منهم تلك القصة، ولا أن يأخذ الرسول عليه السلام من اليهود معلومات تاريخية ـ فقد نُهِي عليه السلام عن أن يأخذ عنهم وأن يتعلم منهم وأن يستفتيهم، لأنهم حرَّفوا الأحداث وزوروا التاريخ، فلا يؤتَمنون على علم أو معرفة ـ .

إنه سؤال تبكيت واستهزاء وإحراج، فعندما يعلمون أنه يعلم عن مسخ فريق من أجدادهم قردة وخنازير، فسوف يقعون في خزي وخجل وذلة ومهانة.

القرية التي كانت حاضرة البحر ـ والتي جرت فيها أحداث القصة ـ لا يفصِّل القرآن عنها شيئاً. لم يبين اسم القرية أو موقعها، ولم يبين زمان القصة أو تفصيلاتها.

ويمكن أن تكون هذه القرية «أيلة» أو «إيلات» أو «العقبة» أو «طبرية». وقد تكون غيرها. وقد تكون القصة زمن موسى أو داود أو سليمان أو غيرهم من أنبياء بني إسرائيل ـ عليهم السلام ـ .

لا نملك أداة يقينية، ولا وسيلة علمية، نحدد فيها أحد الممكنات، أو نرجح أحد الاحتمالات، كما أن هذا التحديد والترجيح لا يقدم فائدة، فهذه من «مبهمات القرآن» وهذه المبهمات لا تحدَّد إلا من القرآن أو الحديث

الصحيح، فإن لم يتم التحديد منها فيجب أن تبقى مبهمة! فهذا هو منهجنا في التعامل مع قصص السابقين في القرآن!

اليهود والسبت:

قال الإمام الراغب في المفردات: «أصل السَّبْت: القطع. يقال: سَبَتَ السيرَ: أي قطعه. وسبت شعره: أي قطعه.

وقيل سمي يوم السبت: لأن اللّه ابتدأ خلق السموات والأرض يوم الأحد، فخلقها في ستة أيام، فقطع عمله يوم السبت، فسمي بذلك الأسم.

وسُمي النوم سباتاً: لأن النائم ينقطع عن العمل أثناء النوم»[1].

ويوم السبت مقرون باليهود، وهو مناسب لهم من حيث اسمه ومعناه.

وقد ذُكر «السبت» ومشتقاته في القرآن سبع مرات، ووردت المرات السبع كلها في سياق واحد، وهو الحديث عن اليهود.

في هذه القصة ذكرت كلمة السبت ومشتقاتها ثلاث مرات: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التي كانَتْ حاضِرة البَحْر، إذْ يَعْدونَ في السَّبْت، إذْ تَأْتِيهِمْ حيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً، وَيَوْمَ لا يَسْبِتونَ لا تَأْتيهِم﴾.

وقال تعالى: ﴿إنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلى الذِينَ اخْتَلَفوا فِيه، وَإنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فيما كانُوا فيهِ يَخْتَلِفون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يا أَيُّها الذينَ أُوتوا الكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجوهاً، فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها، أَوْ نَلْعَنُهمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ﴾[3].

---

(١) المفردات للراغب: ٢٢٠ بتصرف.
(٢) سورة النحل: آية ١٢٤.
(٣) سورة النساء: آية ٤٧.

وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثَاقِهِمْ، وَقُلْنا لَهُمُ ادْخُلوا البابَ سُجَّدا، وَقُلْنا لَهُمْ لا تَعْدوا في السَّبْت، وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِثاقاً غَلِيظاً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ في السَّبْت، فَقُلْنا لَهُمْ: كونوا قِرِدَةً خاسِئين﴾[2].

فالسبت لليهود، حيث طلب اللّه منهم الانقطاع عن العمل فيه، وعدم القيام بأي عمل. حيث قال لهم: ﴿لا تعدو في السبت﴾.

لكن اليهود الذين نشأوا على المخالفة وارتكاب المحظور، عصوا ربهم، وخالفوا أمره، فاعتدوا في السبت، وقاموا بالأعمال المحظورة، فحقت عليهم لعنة اللّه ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْت﴾. وعذبهم اللّه بأن مسخهم قردة وخنازير: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ في السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كونوا قِرَدَةً خاسِئين﴾.

وقد أخبرنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، أن اللّه فرض على اليهود يوم الجمعة، فأضلهم اللّه إلى يوم السبت. وهدانا نحن ليوم الجمعة.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وسلم: «نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة. بيْدَ أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا،وأوتيناه من بعدهم. ثم هذا اليوم الذي كتبه اللّه علينا، هدانا اللّه له. فالناس لنا فيه تبع. اليهود غداً، والنصارى بعد غد».

وفي رواية أخرى لمسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «نحن الآخرون، الأولون يوم القيامة. ونحن أول

---

(١) سورة النساء: آية ١٥٤.

(٢) سورة البقرة: آية ٦٥.

من يدخل الجنة. بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم. فاختلفوا، فهدانا اللّه لما اختلفوا فيه من الحق. فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه. هدانا اللّه ليوم الجمعة، فاليوم لنا، وغداً لليهود، وبعد غد للنصارى»[1].

وروى مسلم عن حذيفة بن اليمان وأبي هريرة ــ رضي اللّه عنهما ــ قالا: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أضل اللّه عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد. فجاء اللّه بنا. فهدانا اللّه ليوم الجمعة. فجعل الجمعة والسبت والأحد. وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة. نحن الآخِرون من أهل الدنيا. والأولون يوم القيامة، المقضِيُّ لهم قبل الخلائق»[2].

ورفْض اليهود ليوم الجمعة، واختيارهم ليوم السبت، دليل على مزاجيتهم البغيضة في تلقي أوامر اللّه. وفرق بين التلقي المزاجي اليهودي لتلك الأوامر، وبين التلقي للتنفيذ والالتزام الذي قام به الصحابة.

إبتلاء اللّه لسكان القرية اليهود:

إبتلى اللّه اليهود سكان تلك القرية، حيث نهاهم عن صيد الأسماك يوم السبت. وفي ذلك يقول: ﴿كَذٰلِك نَبْلوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقون﴾.

الابتلاء هنا هو الامتحان والاختبار. فالتكليف ابتلاء وامتحان، وللّه حِكَم بالغة من الابتلاء بالتكليف.

إن الإِنسان غير المكلف بتكاليف ربانية لا يسير في طريق المجاهدة، ولا ينجح في ضبط نفسه وتربيتها، واللّه يريد من الإِنسان أن يجاهد نفسه،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة رقم (٧) باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة رقم (٦) حديث رقم: ٨٥٥.

(٢) رواه مسلم في الكتاب والباب السابق حديث رقم: ٨٥٦.

وأن يربيها ويضبطها، ويكبح اندفاعها، ويفطمها عن شهواتها ومغرياتها. فيستعلي على شهواته، وينتصر على ضعفه، وينمي معاني الخير في نفسه، ويكون أهلاً لتكريم اللَّه ودخول جنته.

فلو لم تكن تكاليف لما عُرف المجاهد من الغافل، ولا الصالح من الطالح، ولا القوي من الضعيف، ولا الجاد من الهازل، ولا الناجح من الخاسر.

قال تعالى: ﴿وَنَبْلوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَة. وإِلَيْنا تُرْجَعون﴾[1].

وقالى تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجاهِدينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرين، وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿الذي خَلَقَ المَوْتَ والحَياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[3].

إبتلاء اللَّه لليهود إعدادٌ لهم للاستعلاء على شهواتهم، والانتصار على ضعفهم، إن الانتصار على الشهوات والنفوس طريق للانتصار على الأعداء.

لكن أنّى لليهود أن ينجحوا في الامتحان؟

بين ابتلاء اليهود وابتلاء المسلمين:

رأينا من إبتلاء اللَّه لليهود كيف أن فريقاً منهم تحايلوا وارتكبوا المحظور. وأن فريقاً منهم سكتوا عن النصح والإنكار.

معظم اليهود ـ قبل الإسلام ـ لا ينجحون في الامتحان ولا يثبتون في الابتلاء..

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٣٥.

(٢) سورة محمد: آية ٣١.

(٣) سورة تبارك: آية ٢.

أما المسلمون: فإنهم يلتزمون بأوامر اللّٰه، وينجحون في الابتلاء.

ابتلاهم اللّٰه بالتحول عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام في الصلاة، وجَعَل القبلة الجديدة هي الكعبة. وبيَّن القرآن حكمة هذا التحويل بقوله: ﴿وما جَعَلْنا القِبْلَةَ الّتي كُنْتَ عَلَيْها إلّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْه، وَإنْ كانَتْ لَكبيرَةً إلّا عَلى الّذين هدَى اللّٰه. وَمَا كانَ اللّٰهُ لِيُضيعَ إيمانَكُمْ﴾(١).

ونجح المؤمنون في الابتلاء، ونفذوا التكليف الرباني بالتزام فوري دقيق.

وفي موضوع الحج والصيد والاحرام، نهى اللّٰه المسلمين عن الصيد في الحرم وهم مُحرمون، وبيَّن لهم الحكمة من هذا التكليف. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الّذينَ آمَنوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّٰهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْديكُمْ وَرِماحُكُمْ، لِيَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ يَخافُهُ بِالغَيْب. فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ، فَلَهُ عَذابٌ أَليم﴾(٢).

لا يجوز للمسلمين وهم محرِمون بالحج أو العمرة أن يصطادوا، ولو كان هذا الصيد قريباً جداً منهم، تناله أيديهم ورماحهم.

أما لماذا هذا التكليف؟ ولماذا الابتلاء به؟ ليعلم اللّٰه من يخافه بالغيب! إن اللّٰه يعلم من يخافه بالغيب ومن لا يخافه قبل التكليف. لأن علم اللّٰه شامل للكليات والجزئيات قبل وقوعها. ولكن ليظهر علمه على الناس، فيرى الناس من يخاف اللّٰه ومن لا يخافه. ولتتم محاسبة الناس على ما عملوا وليس على ما عمله اللّٰه منهم!

---

(١) سورة البقرة: آية ١٤٣.

(٢) سورة المائدة: آية ٩٤.

ومعنى «من يخافه بالغيب»: من يراقب اللّه، ويمتلىء قلبه إيماناً به، وخوفاً منه، ورجاء في ثوابه. فيلتزم بالأوامر والتكاليف، سواء كان حاضراً مع الناس، أو كان غائباً عنهم، لأنه يعلم أن اللّه لا يغيب عنه، وأنه لا تخفى عليه خافية.

ابتلى اللّه اليهود بمنعهم من الصيد يوم السبت، فتحايلوا على الأمر وارتكبوا المحظور! وابتلى اللّه المؤمنين بمنعهم من صيد البر وهم محْرِمون بالحج أو العمرة ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً﴾[1]، فالتزموا وأطاعوا.

شتان بين الموقفين: تحايل اليهود، والتزام المؤمنين.

الاغراء بالمخالفة قائم في الحالتين:

فعند اليهود ﴿تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم، شرعاً. ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾.

وعند المسلمين، الصيد قريب جداً منهم وفي متناول أيديهم ورماحهم ﴿بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم﴾.

لكن سقط اليهود في الامتحان، بينما نجح فيه المسلمون!

السبب في سقوط اليهود هو فسقهم وتمردهم على أوامر اللّه: ﴿كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾.

والسبب في نجاح المؤمنين هو أنهم يخافون اللّه بالغيب: ﴿ليعلم اللّه من يخافه بالغيب﴾.

---

(١) سورة المائدة: آية ٩٦.

الحيتان تغري اليهود وتداورهم:

قال تعالى: ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾.

في هذه الآية ثلاثة ابتلاءات:

الأول: نهيهم عن الصيد يوم السبت.

الثاني: مجيء الحيتان إلى اليهود يوم السبت «شرَّعاً» كأنها أشرعة على وجه الماء بحيث تكون قريبة منهم، تغريهم بصيدها.

الثالث: ذهاب الحيتان يوم لا يسبتون، واختفاؤها عندما يتوجهون لصيدها في الأيام الأخرى.

أما اختفاء الحيتان أيام الصيد، فهذا أمر طبيعي ومنطقي. إذ كيف تسلّم نفسها للصائدين، وتكون طعماً لشباكهم؟

وأما مجيئها يوم سبتهم إليهم، شرَّعاً على وجه الماء، فهذا هو الابتلاء والامتحان: إنهم يبحثون عنها في الأيام الأخرى فلا يجدونها، وها هي تأتيهم يوم السبت، لتثير في نفوسهم عوامل صيدها، وتوقظ عندهم الرغبة القوية في تناولها. إنها تأتيهم وتغريهم بأخذها. إنها تحاورهم وتداورهم، وتهيِّج فيهم مطامعهم وشهواتهم.

فهل يصمد الشهوانيون أمام هذا الاغراء؟ هل يستعْلون بعزائمهم على هذه الرغبات؟ هل يوقظون عوامل المجاهدة والصبر والمصابرة على الأمر؟ هل يُسكتون أصوات الاعتداء والتحايل والمخالفة التي تنبعث من نفوسهم؟

لعل هذه هي الحكمة من هذه المحاورة والمداورة والاغراء من الحيتان.

لكن الشهوانيين المعتدين منهم لم يصمدوا ولم يصبروا ولم ينتصروا! بل تحايلوا.

تحايل اليهود على الأمر الرباني:

لم يصمد فريق من سكان القرية أمام إغراء الحيتان لهم، فتحايلوا على أمر اللَّه لهم، واصطادوها في اليوم الذي نُهوا فيه عن صيدها.

ويذكر بعض المفسرين تفصيلات لذلك التحايل، أخذوها من الإسرائيليات: قالوا: إن المتحايلين من اليهود، قد حفروا البِرك والحياض بجانب البحر، فكان الماء يغمرها في حالة المد، حيث يقع السمك فيها. وعندما ينحسر ماء البحر في حالة الجزر، يبقى الماء والسمك في البرك والحياض. فإذا كان يوم الأحد يأتون إليها فيصطادون السمك منها. ويقولون: نحن ملتزمون بالأمر الرباني، فنحن لم نصطدها يوم السبت، وإنما اصطدناها يوم الأحد.

وهذه التفصيلات لم ترد في حديث صحيح، ولهذا لا نقول بها ولا بغيرها، فمن المحتمل أنهم فعلوا ذلك، ومن المحتمل أنهم فعلوا غيره. إننا لم نعرف كيف تحايلوا واصطادوا، ولا يهمنا أن نعرف، ولا يضرنا أننا لم نعرف، ومعرفتنا بذلك لا نحصل منها على علم أو فائدة!

وبدل أن نخوض في الإسرائيليات، ونضيع أوقاتنا فيما لا يفيد، علينا أن نتوقف أمام تصرفهم لنتساءل: لماذا تحايل المعتدون على أمر اللَّه؟

إنه لا يتحايل على أوامر اللَّه قلب متصل باللَّه، ممتلىء إيماناً باللَّه، معظِّم للَّه، راغب في نعيم اللَّه. إن القلب المؤمن يستقيم على صراط اللَّه، ويلتزم بأوامر اللَّه، ويبقى على هذه الحالة في ليله ونهاره.

إنه لا يتحايل إلا القلب البعيد عن اللَّه، إن القلب عندما يفسق عن منهج اللَّه، ويلتوي عن صراط اللَّه، يتعامل مع الأوامر بتحايل وتفلت والتواء!

إن الشريعة والأوامر والتكاليف لا يحرسها إلا القلب المؤمن المتقي

للَّه، وإن القلوب الأخرى تُكثر من التحايل على الأوامر والتكاليف، مثل ما فعل اليهود.

وهذا هو سر نجاح الإسلام في تشريعاته ونصوصه، حيث أحيا قلوب المؤمنين، وربطها باللَّه، فالتزمت القلوب بالنصوص والتشريعات.

وهذا هو سر فشل الأنظمة والمناهج والتشريعات الأرضية، لأنها تغفل التعامل مع القلوب، فلا يكون عندئذ إلا النصوص والقضاة والشرطة والحرس، وما أسهل أن يتفلت الإنسان من هؤلاء، فيخرج من الالتزام إلى التحايل والانحراف!.

أصحاب القرية ثلاث أمم:

إنقسم أهل القرية إزاء مخالفة المعتدين إلى ثلاث فرق ـ أو أمم بتعبير أدق حسب نص القرآن ـ

١ ـ الأمة المعتدية الباغية التي صادت السمك يوم السبت.
٢ ـ الأمة الواعظة الصالحة، التي وعظت المخالفين.
٣ ـ الأمة الساكتة عن الإنكار، التي توجهت باللوم على الواعظين، بدل أن تتوجه به على المُنكِرين!

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ، لِمَ تَعِظون قَوْماً، اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾

ويستوقفنا التعبير بكلمة «أمة» في الآية!

أهل القرية ثلاث أمم ـ كما أسلفنا ـ.

فكيف انقسموا إلى ثلاث أمم؟ وهم من جنس واحد وأصل واحد، ويسكنون قرية واحدة، وبينهم روابط عرقية وقومية واجتماعية وحياتية واحدة؟

إن هذا يدلنا على أن الأمة في المفهوم القرآني والتصور الإسلامي، لها معنى غير معناها في المفهوم الجاهلي.

الأمة في المفهوم الجاهلي الأرضي هي: جماعة من الناس، يعيشون في إقليم واحد، ويجمعهم تاريخ واحد ولغة واحدة.

أما الأمة في المفهوم القرآني، فقد قال عنها الراغب في المفردات: «الأمة: جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إما دين واحد، أوزمان واحد، أومكان واحد، سواء كان ذلك الجامع تسخيراً أو اختياراً»(١).

وقال سيد قطب عن معنى الأمة في التعريف الإسلامي: «الأمة في التعريف الإسلامي هي: مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد، وتدين لقيادة واحدة وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث: مجموعة من الناس التي تسكن في إقليم واحد من الأرض، تحكمها دولة واحدة».

وعن إنقسام أهل القرية ثلاث أمم، قال سيد قطب: «وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم: أمة عاصية محتالة. وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة. وأمة تدَع المنكر وأهله، وتقف موقف الإنكار السلبـي، ولا تدفعه بعمل إيجابـي.

وهي طرائق متعددة من التصور والحركة، تجعل الفرق الثلاث أمماً ثلاثاً»(٢).

وهذا يدل على أن الإسلام والإيمان، يقسم الأمة الواحدة إلى قسمين وأمتين. وهذا التقسيم يكون على أساس إيماني إسلامي، وليس على أساس من أسس التصنيف والتقسيم الجاهلية.

---

(١) المفردات: ٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣: ١٣٨٥.

كل مجتمع فيه مؤمنون وكافرون، ينقسم إلى أمتين:

١ ـ الأمة الأولى: أمة المؤمنين المسلمين، وهم الذين جمع بينهم هذا الدين، فوحد كلمتهم، ونسق بينهم، وربط قلوبهم عليه.

٢ ـ الأمة الثانية: أمة الكافرين: وهم الذين جمعهم الكفر بهذا الدين، ومحاربة أهله.

لم تعظون قوماً؟

﴿وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُم: لِمَ تَعِظونَ قَوْمَاً، اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُم عَذاباً شَديداً؟﴾.

هذا هو منطق الأمة الساكتة عن المنكر. وهو منطق كل ساكتين عن المنكر، قاعدين عن النصيحة والتذكير، في أي زمان ومكان.

ويتلخص منطق هؤلاء بما يلي:

١ ـ ترك المنكر ينتشر. وترك أهله يزاولونه. واعتزال المجتمع الممارس للمنكرات.

٢ ـ القعود عن العمل الإيجابي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ الاكتفاء بالإنكار السلبي، المتمثل في إنكار القلب.

٤ ـ التوجه باللوم والتأنيب للمصلحين الناصحين.

٥ ـ الحكم على أهل المنكر بأن اللّه مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً. ولذلك لا فائدة من نصحهم وتذكيرهم.

قالوا: معذرة إلى ربكم:

أجاب المصلحون الناصحون الساكتين اللائمين «مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ. وَلَعَلَّهُمْ يَتّقون» حيث بينوا لهم أن هناك دافعين يدفعانهم للنصح والتذكير وإنكار المنكر.

الدافع الأول: «معذرة إلى ربكم».

كأنهم يقولون لهم: إننا نريد أن نقدم العذر لأنفسنا أمام اللَّه، حتى ننجو من المحاسبة والعقاب.

إننا عندما ننكر المنكر، إنما نحرص على أن نحقق ما يلي:

١ ــ أن نقوم بالواجب الذي كلفنا اللَّه به، في كثير من الآيات والأحاديث، لأننا إن لم نقم بالواجب فسوف نكون عرضة للعذاب.

٢ ــ أن نقدم الاعتذار إلى اللَّه، وأن نعذر أنفسنا أمامه ــ سبحانه ــ فقد بذلنا جهدنا واستطاعتنا، وقمنا بالمطلوب منا.

وإن من رحمة اللَّه بنا أنه لم يطالبنا بالنتائج، وإنما طالبنا ببذل الجهد. ولم يحاسبنا على الثمرة والنتيجة. فنحن قائمون بالواجب عندما نذكِّر وننصح وننكر المنكر، ولو لم يستجب لنا الناس. ولقد قال اللَّه لرسوله صلى اللَّه عليه وسلم: ﴿فَذَكِّرْ. إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرْ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِر. إِلّا مَنْ تَوَلّى وَكَفَر. فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَذابَ الأَكْبَر﴾(١).

وتقديمنا للمعذرة ينجينا مِن العذاب الدنيوي عندما يقع بأهل المنكر: ﴿وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ، وَأَهْلُها مُصْلِحون﴾(٢).

٣ ــ أن نقيم الحجة على أصحاب المنكر. لأن لهم علينا حق النصح والتذكير، وهو حق مقرر في القرآن والحديث.

فالتذكير قد ينفع، والنصيحة قد تنفع، والإنكار قد ينفع، فيقلع هؤلاء عن منكراتهم. فإذا لم تفلح معهم النصيحة، ولم ينفع عندهم التذكير، ولم يقتربوا من الاستقامة أو الإصلاح، نكون قد أقمنا الحجة عليهم. وأقمنا عليهم شاهداً من أنفسهم!.

---

(١) سورة الغاشية: الآيات ٢١ ــ ٢٤.

(٢) سورة هود: آية ١١٧.

ولعلهم يتقون:

الدافع الثاني هو «ولعلهم يتقون».

أي لعل وعظهم وتذكيرهم، يوجِد عندهم التقوى والطاعة والالتزام.

إن قيام الدعاة المصلحين بواجب النصح والبيان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد يوجد عند الناس تقوى وعبادة، وإيماناً والتزاماً.

قد يعترض بعضهم على الدعاة المصلحين، ويُرُونَهم أن جهودهم الإصلاحية الوعظية ضائعة، لا ثمرة لها ولا نتيجة. لأن بضاعتهم مجرد كلام، والكلمة ليست نافعة ولا مثمرة، والناس لا يلتزمون من الكلام، بل هم قد شبعوا من الكلام، فعلى المصلحين توفير جهدهم، والاحتفاظ بأصواتهم وحناجرهم وكلامهم!.

إن كلامهم هذا مرفوض، واعتراضهم باطل، وفيه أخطاء ومغالطات، وقائله إما مغرض حاقد معاد للدعاة، وإما غافل عن الدعوة، جاهل بقوة الكلمة وأثرها!.

للكلمة قوة ملحوظة في عالم الأفكار والمبادىء والدعوات، حيث قامت هذه الدعوات والمبادىء على الكلمة.

لقد اعتمد الأنبياء والمرسلون على الكلمة والدعوة والتذكير والوعظ، في دعوة أقوامهم إلى الدين. وكل منهم كان يطلب من قومه طلباً أساسياً محدَّداً ﴿اعْبُدوا اللَّهَ مَا لكُمْ مِنْ إلـهٍ غَيْرُه﴾(١).

وديننا يقوم على الكلمة. وأول كلمة نزلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الّذي خَلَق﴾(٢).

---

(١) سورة هود: آية ٥٠.

(٢) سورة العلق: آية ١.

والقرآن يطالب المسلمين بأن يبلِّغوا الكافرين القرآن، ويُسمِعوهم كلام اللّه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ، فَأَجِرْهُ، حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللّه. ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَه﴾[1].

وما هذا إلا إدراكٌ لقوة الكلمة، وإيمان بأثرها في نفس السامع المدعو.

على أن الكلمة والوعظ لا يستمدان قيمتهما، ولا يؤديان دورهما، ولا تظهر قوتهما، إلا من خلال: الإيمان الجاد بما يقوله الداعية، ثم الالتزام العملي بما يدعو إليه، ثم تقديم كلامه للناس ممزوجاً بالقوة والصراحة والجرأة وحسن الأسلوب وصدق المعاناة. بحيث يدرك السامع أن هذا الكلام خارج من القلب، قد اقتات دم قائله، وعاش في قلبه، وملأ عليه وجوده وعقله وحياته. لأنها ليست النائحة كالثكلى!.

فإذا تم النصح والوعظ وفق هذه الأسس، فإن الكلمة ستكون قوية حية نافعة مؤثرة، وستدخل قلوب السامعين، وتُحدث فيهم تأثيراً واستجابة، وصلاحاً واستقامة، والتزاماً وتقوى. «ولعلهم يتقون».

نسيان الأحكام مقدمة للعذاب:

قال تعالى: ﴿فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّروا بِه، أَنْجَيْنا الّذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السّوء﴾.

نلاحظ أن الآية رتبت العذاب على النسيان ﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾.

ونأخذ من هذا الترتيب أمراً هاماً، وهو وجوب تذكر أوامر اللّه وأحكامه، وتذكير الأمة بها، واستمرار استحضار الواجبات والمنهيات في تصور وشعور

(١) سورة التوبة: آية ٦.

وفكر كل فرد في الأمة. لأن هذا كفيل بأن يُبقي هؤلاء الأفراد عند حدودهم، ملتزمين بها، مبتعدين عن مخالفتها والعدوان عليها.

كما نأخذ من هذا الترتيب أمراً هاماً آخر، وهو خطورة نسيان الواجبات والتوجيهات من قبل أفراد الأمة، إذ أن نسيانها والغفلة عنها، يوجِد عند الناس حالة من الاستخفاف بها واللامبالاة لما فيها، وهذا يقود إلى العدوان عليها ومخالفتها.

فإذا أغرق هؤلاء الأفراد في الغفلة والنسيان، نسوا الحقائق الدينية، والسنن الربانية، والأحكام الشرعية، وبذلك يخرجونها من دائرة الفكر والتصور والشعور، بعدما أخرجوها من دائرة التذكر والاهتمام والالتزام والعمل.

وإذا وصل أفراد الأمة إلى هذه الدرجة من النسيان والغفلة، فقدوا أية صلة باللَّه أو الدين أو الشريعة، وعندها يحق عليهم عذاب اللَّه.

هذا كله نأخذه من ترتيب التعذيب للمعتدين على نسيانهم ما ذكِّروا به ﴿فلَمّا نَسُوا ما ذُكِّروا بِهِ أَنْجَيْنا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السّوء، وَأَخَذْنَا الّذينَ ظَلَموا بِعَذابٍ بَئيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقون﴾.

وقد وردت آيات أخرى تقرر هذه الحقيقة، وتشير إلى هذه السنة الربانية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَم مِنْ قَبْلِكَ، فَأَخَذْناهُمْ بِالبَأْساءِ وَالضَّرّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتضَرَّعون. فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعوا. وَلكِنْ قَسَتْ قُلوبُهُمْ، وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلون. فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّروا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْء. حَتَّى إذا فَرِحوا بما أُوتوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسون. فَقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الّذين ظَلَموا. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: الآيات ٤٢ ـ ٤٥.

وقال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنَا في قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إلاّ أَخَذْنَا أَهْلَها بِالبَأْساءِ، وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعون. ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةِ حَتّى عَفَوْا. وَقالوا قَدْ مَسَّ آباءَنا الضَّرّاءُ وَالسَّرّاءُ، فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرون﴾[1].

وقد قرر القرآن أن التذكر الحي واليقظة المستمرة سبيل للالتزام بالأحكام.

وبها الانتصار على وساوس الشيطان: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَميعٌ عَليم. إِنَّ الّذين اتَّقوْا إِذَا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّروا، فَإِذا هُمْ مُبْصِرون﴾[2].

تذكرُ الأحكام الربانية سبيل للالتزام بها، وطريق لرفع العذاب.

ونسيان الأحكام الربانية سبيل للعدوان عليها، وطريق لوقوع العذاب.

وهناك أناس في الأمة حريصون على أن ينسوا أوامر اللَّه، وحريصون على أن يُنْسوا الآخرين أوامر اللَّه.

إنهم يوقعونهم في الغفلة والنسيان، ليُبعِدوا هذه الأحكام عن الذاكرة والشعور، بعدما أبعدوها عن الواقع والممارسة والمعايشة.

ولذلك يجب على الدعاة المصلحين أن يستمروا في نصح الأمة ووعظها وإرشادها وتذكيرها، لتبقى ذاكرة الأمة مستحضرة للتوجيهات والأحكام، وليبقى التفكير في الحلال والحرام والممنوع والمسموح به، حياً في شعور الأمة.

ويجب على الأمة أن تدرك خطورة النسيان للتعاليم الربانية، لأنه سبيل العذاب والدمار.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) سورة الأعراف: آيتي ٢٠٠ ـ ٢٠١

ويجب على الدعاة الحريصين. أن يعملوا على أن تبقى الأمة متذكرة للتعاليم الربانية، فيستمرون في تذكيرها ونصحها ووعظها، ليقودوها إلى دائرة الالتزام وبر الأمان.

نجـــاة الدعاة:

﴿فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الّذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السّوءِ﴾.

لما حلّ عذاب اللَّه بأهل القرية، أنجا اللَّه الذين ينهون عن السوء، وهم فريق الدعاة الناصحين المصلحين.

وهذا يوحي لنا بوجوب الدعوة إلى اللَّه، ونصح الأمة وتذكيرها. فالقيام بهذا الواجب هو وحده طريق نجاة الدعاة من العذاب عندما يحل بالعصاة.

ويصدِّق هذا قول اللَّه تعالى: ﴿فَلَوْلا كانَ مِنَ القُرونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أولو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَن الفَساد في الْأَرْض، إلّا قَليلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ. وَاتَّبَعَ الّذينَ ظَلَموا ما أُتْرِفوا فيهِ، وَكانوا مُجْرِمين، وَمَا كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحون﴾[1].

عندما تعم المعاصي والمنكرات الأمة، يجب على الدعاة أن يقوموا بواجب النصح والتذكير، والنهي عن المنكر والفساد لينجوا من عذاب اللَّه، فهو وحده سبيل النجاة والفوز.

لماذا مسْـخ المعتدين قردة؟

قال تعالى: ﴿فَلَمّـا عَتَوْا عَنْ مـا نُهُوا عَنْـه: قُلْنَا لَهُمْ كـونوا قِـرَدَةً خاسِئين﴾.

ظلم المعتدون أنفسهم، وعتوا عن ما نهوا عنه، وتمردوا على دين اللَّه،

---

(١) سورة هود: آيتي ١١٦ ــ ١١٧.

ورفضوا الالتزام بشرعه، وطغوا وبغوا، ولجوا في طغيانهم، واستمروا في عدوانهم.

وهم بذلك قد استحقوا عذاب اللَّه، واستقدموا نقمته، واستعجلوا عقوبته.

لقد حقت عليهم سنة اللَّه، ووقع بهم عذابه، وكان عذاب اللَّه لأولئك المعتدين شديداً أليماً بئيساً ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾. كما كان عذاب اللَّه لهم فريداً متميزاً، حيث مسخهم قردة خاسئين، وحوّلهم من صورتهم البشرية إلى صورة حيوانية حقيقية، فصاروا قردة حقيقيين.

إن اللَّه عادل عندما مسخهم قردة أذلاء صاغرين. لأنهم اعتدوا على أحكام اللَّه، وتمردوا على أوامره، ومن العدالة الربانية أن يجزي المحسن بإحسانه، وأن يجازي المسيء بإساءته، ويعاقب المعتدي بعدوانه.

وإن اللَّه حكيم بمسخهم قردة!.

ولعل الحكمة من هذا المسخ، هي: إن اللَّه يريد لهم أن يكونوا بشراً آدميين، وأن يعيشوا أناساً حقيقيين، وأن يمارسوا إنسانيتهم على أحسن ما تكون. ولكنهم عندما تمردوا على أحكام اللَّه، رفضوا هذا التكريم الرباني، وبذلك تنازلوا عن إنسانيتهم وكرامتهم، فصاروا إلى الصورة الحيوانية المعنوية، فمسخهم اللَّه قردة، وحوّلهم إلى حيوانات حقيقية. وهذا من باب التناسق والتنسيق بين الصورة المعنوية والصورة الحسية!.

إن اللَّه يريد للبشر أن يكونوا بشراً مكرَّمين، وأن يعيشوا إنسانيتهم وآدميتهم، وأن يتميزوا على الحيوانات والبهائم. فكلفهم بالتكاليف الشرعية، وطلب منهم الالتزام بأمانة التكليف ﴿إِنَّا عَرَضْنا الأَمانَةَ عَلَى السَّمواتِ

وَالْأَرْضِ وَالجِبال. فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها، وَحَمَلَها الإنْسان. إِنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولاً﴾(١).

إن الشريعة الربانية مظهر من مظاهر تكريم اللَّه للبشرية، وارتفاع لها بإنسانيتها، وإن الالتزام بالشريعة الربانية مظهر من مظاهر تحقيق المعاني الإنسانية الكريمة عند الإنسان، وإعلاء للقيم الإنسانية فيه.

أما الاعتداء على شريعة اللَّه، والتمرد على أحكامه، فإنه طمس للمعاني الإنسانية عنده وقضاء عليها. وفي هذا يتراجع الإنسان إلى مرحلة دنيا لا تليق به، وينحط عن المنزلة السامية التي طالبه اللَّه أن يرتفع إليها، إلى المنزلة الحيوانية الهابطة التي لا تليق به.

فإذا ما وجدنا إنساناً معتدياً ظالماً فاسقاً، فإنه متنازل عن المعاني الإنسانية إلى المعاني الحيوانية. ويكون هذا الإنسان حيواني النفس والشعور والأخلاق، وإن كان بشري الملامح والسمات والمظاهر!.

والمعوَّل عليه عند الإنسان ليس المظاهر والأشكال والصور، وإنما القيم والمعاني والأخلاق، والأعمال التي تنبثق من التصورات والأفكار والعقائد.

هذا ما قرره رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. حيث روى مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٢).

لقد كان المعتدون المتمردون من أصحاب القرية، قردة من الناحية المعنوية والشعورية، كانوا قردة بنفوسهم وتصوراتهم وأخلاقهم، وليس لهم من البشرية إلا الملامح الخارجية في الأجساد والحواس والأصوات!.

فجاء مسخ اللَّه لهم قردة تنسيقاً بين الحقيقة والصورة! ـ واللَّه أعلم ـ.

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب رقم ٤٥، باب تحريم ظلم المسلم، رقم ١٠، حديث رقم ٢٥٦٤.

كان المسخ حقيقياً:

ظاهر القرآن على أن المعتدين في السبت، مسخهم اللّه قردة، وأن المسخ كان مسخاً حقيقياً ﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾.

والأصل أن نأخذ الآية على ظاهرها، وأن لا نعْدل عن الظاهر إلا لضرورة ملجئة.

لا يوجد ما يمنع من المسخ الحقيقي، إذ لا يستحيل عقلاً أن يحوِّل اللّه إنساناً من صورته البشرية إلى صورة حيوانية، فيكون قرداً حقيقياً، لأن اللّه يفعل ما شاء، وهو على كل شيء قدير، فالذي خلق الإنسان على هذه الصورة الإنسانية قادرة على أن ينقله عنها إلى صورة حيوانية قردية!.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن مسخهم كان مسخاً معنوياً وليس حقيقياً، حيث كانوا قردة بأرواحهم وقلوبهم وعقولهم فقط!.

قال مجاهد رحمه اللّه: «مُسِخَتْ قلوبهم، ولم يمسخوا قردة: إنما هو مثل ضربه اللّه لهم، مثلما ضرب مثل الحمار يحمل أسفاراً»[1].

وقال سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ الّذينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ في السَّبْت، فَقُلْنا لَهُمْ كُونوا قِرَدَةً خاسِئين﴾[2]. . «وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات، تؤثر في السحنة، وتُلقي ظلها العميق»[3].

---

(١) تفسير الطبري، تحقيق محمود شاكر ٢ : ١٧٢.
(٢) سورة البقرة: آية ٦٥.
(٣) في ظلال القرآن ١ : ٧٧.

ولكن سيد قطب تراجع عن هذا الرأي عندما فسر قصة أصحاب السبت في سورة الأعراف، فقال في ذلك الموضع عن مسخهم: «كان ذلك العذاب البئيس هو المسخ عن الصورة الآدمية إلى الصورة القردية. وقال: «قلنا لهم كونوا قردة خاسئين» فكانوا قردة مهينين، كما جرى القول الذي لا راد له، ولا يعجز قائله عن شيء سبحانه»[1].

ويعجبني تعقيب الإمام الطبري على رأي مجاهد الذي أوردناه، حيث قال مستدركاً عليه: «القول الذي ذكره مجاهد، قول لظاهر ما دل عليه القرآن مخالف، وذلك أن اللّه أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. ومن أنكر شيئاً من ذلك، وأقر بآخر منه، سُئل البرهان على قوله، وعورض فيما أنكر من ذلك بما أقر به، ثم يُسأل الفرق من أثر صحيح أو خبر مستفيض.

هذا مع خلاف قول مجاهد قولَ جميع الحجة التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلَتْه، مجمعة عليه. وكفى دليلاً على فساد قول، إجماعُها على تخطئته»[2].

ولعل هذا الموقف من مجاهد، واستدراك الطبري عليه ـ رضي اللّه عنهما ـ يدعونا إلى أن نقف عند ظاهر النص القرآني لا نتعداه، وأن نفهم من القرآن ما يقرره لنا.

ففي موضوع المسخ، قد يقف بعضهم ليتساءل: كيف مسخوا قردة؟ ويحاول أن يقحم عقله في هذه الأخبار الغيبية، التي لا يملك العقل أداة للخوض فيها، فيذهب بعضهم إلى الإسرائيليات ليتعرف منها على تفصيلات ذلك المسخ.

---

(١) في ظلال القرآن: ٣: ١٣٨٥.

(٢) تفسير الطبري ٢: ١٧٣.

وخروجاً من هذه المحاذير والأخطاء، ولعدم ترتب فائدة علمية على معرفة تلك التفصيلات غير الثابتة. لا نقف أمامها، ونردد مع سيد قطب قوله: «أمّا كيف صاروا قردة؟ وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قردة؟ هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج عن جنسه؟ أم تناسلوا وهم قردة؟.. إلى آخر هذه المسائل التي تتعدد فيها روايات التفسير. فهذا كله مسكوت عنه في القرآن الكريم. وليس وراءه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شيء. فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه»[1].

السكوت عن الساكتين:

نص القرآن على نجاة الدعاة المصلحين من أهل القرية، تكريماً لهم.

كما نص على تعذيب المعتدين من أهل القرية، عقوبة لهم.

أما الفريق الثالث ــ أو الأمة الثالثة ــ من أهل القرية، فقد سكت القرآن عن مصيرهم، تهويناً لهم!.

وقد اختلف المفسرون في بيان مصيرهم:

فذهب بعضهم إلى أنهم عُذبوا مع المعذبين، ومسخوا قردة خاسئين، بسبب سكوتهم عن إنكار المنكر.

وذهب بعضهم إلى أنهم كانوا مع الناجين.

ولا يعنينا الخلاف حول مصيرهم، ولا نملك ترجيح القول فيما جرى لهم، فلا ندري هل عُذبوا مع المعذبين؟ أو نجوا مع الناجين؟ ومن الاحترام لعقولنا أن لا نخوض فيما لا علم لنا به. ومن الاحترام للعلم أن لا نقول فيه فيما لا علم لنا به، ومن الاحترام لكلام اللّه أن لا نفسره بما لا علم لنا به!.

---

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٣٨٥.

وبدلاً من ذلك، نقف أمام سكوت القرآن عن الساكتين، لنحاول أن نستخرج منه بعض الإيحاءات واللفتات.

قال سيد قطب: «فأما الفرقة الثالثة ــ أو الأمة الثالثة ــ فقد سكت عنها النص. ربما تهويناً لشأنها ــ وإن كانت لم تؤخَذ بالعذاب ــ إذ أنها قعدت عن الإنكار الإيجابي، ووقفت عند حدود الإنكار السلبي. فاستحقت الإهمال، وإن لم تستحق العذاب»(١).

نأخذ من سكوت القرآن عن الساكتين تهويناً لهم: إن الساكت عن الحق، القاعد عن الإنكار، الجبان عن النصح والتذكير، الخائف من المواجهة، يستحق التهوين والإهمال والنسيان!.

إن الذي يستحق الذكر والمدح والثناء، والذي يخلَّد ذكره في التاريخ، والذي يبقى في سجل الوجود، وذاكرة الأحياء، إنما هو ذلك الرجل الشجاع الجريء المقدام.

ولعل القرآن يدل الذين يريدون أن يُعَرفوا ويُذكَروا ويَخلُدوا، على الطريق الموصِلة لهذا. إنها طريقة الدعوة والنصح والتذكير، طريق المجاهدة والجهاد!.

أناس كثيرون، يعيش الرجل منهم على هامش الحياة، نكرةً مهملاً منسياً لا يسمع به أحد. ويموت نكرة مهملاً منسياً لا يشعر به أحد. ينساه الناس في حياته، قبل أن ينسوه بعد موته، لقد أغفل التاريخ ذكر هؤلاء المنسيين المجهولين، لأن التاريخ لا يذكر التافهين الفارغين!.

وهناك رجال يعيشون عظماء، ويموتون عظماء، يكونون ملء سمع

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٣٨٥.

الناس وبصرهم، يملأون وجودهم وحياتهم وهم يعيشون بينهم، ويكونون في ذاكرتهم وعقولهم وقلوبهم وتاريخهم بعد موتهم!.

إنهم الرجال المؤمنون الثابتون المجاهدون، الذين خلدهم التاريخ، لأن التاريخ لا يعرف إلا العاملين، ولا يذكر إلا المجاهدين!.

هذا هو طريق الذكر والخلود، فأين السائرون فيه؟.

أهم دروس القصة:

١ ـ إن تلك القرية مثال لأية قرية أو مدينة، في موقف أهلها من أوامر اللَّه، حيث ينقسمون أمامها، فيعتدي عليها فريق. ويقف في وجوههم فريق. ويسكت عن الإنكار والنصح فريق.

٢ ـ إن اللَّه يبتلي الناس ويمتحنهم بالتكليف، فمنهم من يجاهد نفسه فيلتزم فينجح، ومنهم من يتبع هواه فيعتدي فيسقط في الامتحان.

٣ ـ الفرق بين نفسية اليهود الذين لم يلتزموا بالتوجيهات الربانية، وبين الصحابة والمسلمين الذين جاهدوا أنفسهم واستعلوا على شهواتهم.

٤ ـ الأسماك والحيتان التي توجهت لمراودة وإغراء أهل القرية، كانت جنوداً للَّه، أمرها اللَّه أن تقترب منهم يوم السبت، وأن تبتعد في باقي الأيام. فالتزمت ونفذت. ولا يعلم جنود ربك إلا هو، سبحانه.

٥ ـ انقسام أهل القرية إلى ثلاث أمم: معتدون. ودعاة. وساكتون. يدل على المفهوم الصحيح للأمة ـ في المفهوم القرآني ـ باعتبارها: هي المجموعة من الناس التي يجمعها دين واحد والتزام واحد ونظام واحد.

٦ ـ إنكار المصلحين للمنكرات، هو قيام بواجب شرعي أوجبه اللّه عليهم، وليس تدخلاً في خصوصيات الآخرين، أو اعتداء على حرياتهم واختياراتهم.

٧ ـ لا اعتبار للحريات الشخصية والأمزجة الفردية، إذا تعارضت مع مصلحة المجموع، فحرية الفرد تنتهي من حيث تبدأ مصلحة المجموع، فلا يحق لأي فرد أن يعمل شيئاً يضر بالمجموع ويعرضهم للعذاب.

٨ ـ ارتكاب المنكر، وفعل المحظور، نذير شؤم، وطريق لغضب اللّه، واستقدام لعذابه وسخطه!.

٩ ـ ينطلق الدعاة في الدعوة والوعظ والنصح من باعثَيْن أساسيَّيْن: باعث الإعذار أمام اللّه من خلال القيام بالواجب. وباعث الرغبة في نصح الآخرين لعلهم يتقون.

١٠ ـ إن المدعوين قد يتعظون ويتذكرون ويتقون، وذلك إذا سلك الدعاة الناصحون معهم الطريق القرآني في النصح والوعظ والتذكير.

١١ ـ الداعية مطالب بالدعوة والنصح، فإن لم يفعل عرّض نفسه للمسؤولية والعذاب. وهو ليس مطالباً بهداية الآخرين وتحقيق الاستجابة والإنقياد عندهم. لأن هذا بيد اللّه.

١٢ ـ إن الكلمة لها قوة وقيمة وأثر، فلا يجوز أن نزهد فيها أو نتركها، فما قامت الدعوات إلا على الكلمات. المهم أن تخرج الكلمة من القلب لتصل إلى القلب.

١٣ ـ قيام الدعاة بإنكار المنكر دليل على قوة الإيمان في قلوبهم، ووجود الغيرة على أحكام اللّه عندهم، وتوفر الحرص على الآخرين والرغبة

في تقديم الخير لهم، وبمقدار قوة هذه المعاني عندهم، تتضاعف جهودهم في الدعوة والتذكير والنصح والإنكار.

١٤ ــ هناك أفراد في الأمة يكتفون بالإنكار السلبي، ويـؤْثِرون السلبية والانعزال. والهروب من ميدان النصح والدعوة والتذكير.

١٥ ــ السلبيون لا يكتفون بالسكوت عن إنكار المنكر، بل يُضيفون إليه جريمة أخرى، حيث يتوجهـون إلى المؤمنين المصلحين، باللوم والتعنيف لقيامهم بالدعوة والتبليـغ.

١٦ ــ عند انتشار المعاصي بين الناس، يجب على الدعاة استمرار النصح والتذكير، حتى لا ينسى الناس الحقائق الشرعية، فيتحول الحلال إلى حرام والحرام إلى حلال.

١٧ ــ إن نسيان الأحكام الشرعية مصيبة عظمى، قد تفوق مخالفتها، وإن هذا النسيان مقدمة لوقوع العذاب.

١٨ ــ عند وقوع العذاب لا سبيل للنجاة إلا لمن قام بواجبه في الدعوة إلى اللَّه، فهي وحدها سفينة النجاة. وهذا من سنة اللَّه أن يجـازي المحسن بإحسانه.

١٩ ــ المعاصي تنتج المصائب، وارتكابها نذير للعذاب واستقدام للدمار والهلاك.

٢٠ ــ كان مسخ المعتدين من أهل القرية قردة خاسئين، وكان المسخ حقيقياً، ولم يعيشوا بعدها ولم يتناسلوا، وهذه آية يقدمها اللَّه للعصاة ليتعظوا.

٢١ ــ وجوب الوقوف عند ظاهر النص القرآني، وعدم مخالفته أو تحريفه، كما في مسخ المعتدين.

٢٢ ــ لا تتحقق إنسانية الإنسان إلا بطاعته للّه، وهذا أساس تكريمه عند اللّه. فإذا عصى وبغى وكفر، فقد انحطّ عن منزلته، وتنازل عن إنسانيته إلى حيوانية ذميمة.

٢٣ ــ الساكتون عن الحق يستحقون الإهمال والإغفال والنسيان، لهوانهم على اللّه وعلى الناس.

٢٤ ــ طريق الذكر والشهرة والخلود هو العمل والجهد والمجاهدة والجهاد. والناس لا يتذكرون إلا المخلصين العاملين. والتاريخ لا يذكر إلا هؤلاء. وشتان بين من يعيش نكرة ويموت نكرة، وبين من يكون ملء السمع والبصر والذاكرة في حياته وبعد مماته.

* * *

٧

قِصَّة طَالُوت

قِصَّة طَالُوت

القصة في العرض القرآني :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ

إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ

قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ

قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ

قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ

قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ

وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ

سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ
مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ

فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ

فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ
بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ

قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ
فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥٢.

موجز القصة من خلال العرض القرآني:

تشير آيات القرآن إلى قصة وقعت لبني إسرائيل، في فترة من فترات حياتهم في الأرض المقدسة، كانوا مضطَّهَدين مهزومين أمام أعدائهم، وقد سلب أعداؤهم منهم «التابوت» الذي فيه سكينة من اللَّه، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

وقد شعر القوم بالذل ومرارة الهزيمة والهوان، وكان هذا الشعور عند الجميع، العامة والملأ المالكون فيهم. فأرادوا أن يغيِّروا واقعهم الذليل، وأن يبدلوا ذلهم عزة وهزيمتهم نصراً. وعلموا أن السبيل الوحيد لذلك هو الجهاد والقتال.

لذلك لجأ الملأ الحاكمون فيهم إلى نبيهم، وفزعوا إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم ملكاً يتولى أمورهم، ويقودهم إلى العزة والنصرة، ويقاتل بهم أعداءهم، في سبيل اللَّه.

ويبدو أن ذلك النبي كان يعلم طبيعتهم المائعة وهمتهم الرخوة، وأنهم عندما يؤمَرون بالقتال، فسوف ينكصون عنه، ويقعدون عن خوضه، فقال لهم: هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألّا تقاتلوا؟ يعني: هل تقاتلون أم تتخلفون عندما نطالبكم بالقتال؟ إنني أعلم أنكم ستتخلفون!.

فطمأنوه بأنهم سوف يقاتلون ولا يتخلفون، وأن الذي يمنعهم من القتال هو عدم وجود ملك لهم يقودهم، وأنه إن جاءهم بالملك فسيسارعون في القتال معه. وبيَّنوا له الباعث القوي الذي يدفعهم للقتال، إنه الذل الذي يعيشونه، وإخراجهم من ديارهم، وهزيمتهم أمام أعدائهم. وإنهم حريصون على هزيمة الأعداء وتحرير الديار، فلماذا لا يقاتلون؟

لمّا سمع نبيهم كلامهم، ولاحظ حماستهم واندفاعهم، سأل ربه،

فأوحى اللّه إليه أن «طالوت» هو ملكهم الذي يقودهم إلى النصر والعزة والتحرير.

فوجئوا بذلك، إذ كانوا يتوقعون الملك قادماً من بيت الملك وعائلة الملوك، وطالوت ليس من هذا البيت، ثم إنه فقير لا يملك المال الكافي الذي يؤهله للملك، فاعترضوا على نبيهم قائلين: أنّى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه، ولم يُؤتَ سعة من المال!

عجب النبي من موقف القوم، الذين كانوا يريدون أي ملك، فلما اختار اللّه لهم طالوت ملكاً اعترضوا. فبين لهم النبي المواصفات التي تؤهله للملك، وأنه هو أنسب الناس للملك حسب الميزان الرباني الإيماني: إن اللّه اصطفاه عليكم، واللّه حكيم خبير. وإن اللّه زاده بسطة في العلم وتمكناً منه، وأن اللّه زاده بسطة وقوة في الجسم تعينه على النهوض بأعباء الملك ومشقات القيادة. ثم لماذا يعترضون عليه؟. إن اللّه يؤتي ملكه من يشاء، واللّه واسع عليم، وطالما أن اللّه آتى طالوت الملك فهو الملك المؤهل له.

وأراد نبيهم أن يزيل ما في عقولهم ومشاعرهم من اعتراض على طالوت، فبين لهم آية وعلامة يأتيهم بها اللّه، ومجيئها يدل على أن اللّه هو الذي رضي لهم طالوت ملكاً. وقال لهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت، فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، تحمله الملائكة: إن في ذلك لآية لكم، إن كنتم مؤمنين.

يأتيهم التابوت الذي كان لهم، يأتيهم وحيداً بدون قتال ولا حرب، ولا انتصار على أعدائهم الذين سلبوه منهم، إن الملائكة هي التي ستحمل هذا التابوت، وتوصله إليهم.

وحمْل الملائكة للتابوت وتوصيله إليهم دليل على أن اللّه رضي لهم طالوت، والملائكة رضيت لهم طالوت.

وهذا التابوت كان يحوي سكينةً من ربهم، والسكينة هي الطمأنينة والراحة والرضى واليقين، كما كان يحوي بقيةً مما ترك آل موسى وآل هارون. ولعل هذه البقية شيء مادي ورثوه عن آل موسى وآل هارون.

وتحققت الآية التي وعدهم بها نبيهم، وحملت لهم الملائكة التابوت، وأوصلتْه إليهم، فوافقوا على تملك طالوت عليهم مُكرَهين!.

تسلم طالوت الملك والسلطان، وعبأ قومه للقتال، وجهزهم لمحاربة أعدائهم الكافرين.

ولما خرج بهم للمعركة الفاصلة، تصرف معهم بحزم وحنكة وذكاء وعلم، وحقق ما وصفه به نبيهم من أن اللّه زاده بسطة في العلم والجسم.

إنه يعلم أن قومه متحمسون للقتال مندفعون إليه، ويعلم أنها «فَوْرَة» عارمة سرعان ما تزول، ويعلم أن الوعود والأماني ليست مثل التجربة العملية، ويعلم أن كثيراً من الاندفاع والحماس يتبدد عند الامتحان العملي، وأن كثيراً من الوعود والأماني ينقضها أصحابها عند التطبيق الواقعي، ولهذا اختبرهم ليرى ما هم عليه.

خرج من بلادهم إلى أعدائهم، ولما فصل بهم وغادر العمران والديار، قال: إن اللّه مبتليكم بنهر، فعندما تمرون عليه لا تشربوا منه، فمن خالف أمري وشرب منه فليس من جيشي، فلا يتبعني، لأنه ليس جندياً منضبطاً مطيعاً. أما من لم يشرب من النهر والتزم الأمر وأطاع فإنه مني.

وكمظهر من حنكته وفطنته، أجاز لهم أن يغترف الرجل منهم من النهر غرفة واحدة بيده، يبل بها فمه ويخفف عطشه. وإذا أردت أن تطاع، فاطلب ما يستطاع!

فلما وصلوا النهر عصوا طالوت، وشربوا منه، إلا قليلاً منهم التزموا الأمر وأطاعوا القائد.

ترك طالوت جموع العصاة المخالفين، وسار بالقلة المؤمنة المطيعة، حتى وصل بها أرض المعركةِ الفاصلة.

نظر جنوده إلى جنود الأعداء، فخافوا قتالهم، وجبنوا عن مواجهتهم. وكان أعداؤهم الكفار بقيادة «جالوت» وكانوا أكثر منهم عدداً.

فخاطب كثير من تلك القلة طالوتَ، وقالوا له: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، ولا قدرة لنا على حربهم، ولهذا لن نحاربهم.

تركت جموع الخائفين الجيش، وجبنوا عن المعركة، وبقي الملك طالوت مع قلة قليلة من جيشه، وهم الذين يظنون أنهم ملاقو اللّه، والراغبون في جنته ونعيمه.

وعلَّم هؤلاء الرجال القلائل، الجموع الخائفة أسس النصر ومقوماته، فقالوا لهم: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه. واللَّه مع الصابرين.

دخل طالوت المعركة مع الرجال القلائل المؤمنين الصابرين، ولما بدأت المعركة، طلبوا النصر من مالكه سبحانه، فاستغاثوا به، وتضرعوا إليه، وقالوا: ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

وحقق اللَّه لهم وعده، وأنزل عليهم نصره، طالما أنهم صدقوا اللّه ما وعدوه، فهزموهم بإذن اللّه.

وكان من بين هؤلاء الرجال الصابرين، داود عليه السلام ـ ولم يكن نبياً ولا ملكاً في ذلك الوقت، حيث نُبِّىءَ ومَلَك بعد ذلك واللَّه أعلم ـ فتوجه داود إلى جالوت وقتله. ومنَّ اللَّه على داود بعدها بالملك والحكمة، وعلَّمه مما يشاء.

عاد طالوت بالقلة المؤمنة المنتصرة إلى مملكته. بعدما حرر الديار، واسترد التابوت، وهزم الأعداء، ومكَّن لقومه.

عاد بعد أن اكتشف حقيقة بني إسرائيل، وكشف لنا الكثير من خفاياهم وطبيعتهم.

عاد بعد أن عرف حقيقة مطالب الجماهير، وعرف كيف يتعامل مع الجماهير، وعرف من هم المجاهدون الثابتون، وأنهم دائماً قلائل وسط الجماهير والجموع.

وبعد طالوت، حكَم بني إسرائيل داوودُ ـ النبـي الملك الخليفة عليه السلام ـ.

قصة طالوت في الإسرائيليات:

قصة طالوت معروفة عند بني إسرائيل، وهي مذكورة بتفصيل واسع في العهد القديم، وكتب بني إسرائيل.

لقد فصلت كتب بني إسرائيل الحديث عن واقع بني إسرائيل قبل طالوت. كما فصلت الحديث عن بداية أمر طالوت، وتوجهه لمحاربة الأعداء وظهور داود، وما جرى بينه وبين طالوت بعد قتل جالوت.

امتلأت صفحات بهذه الإسرائيليات المفصَّلة. وتناقلها رواة الإسرائيليات، وقاموا بروايتها للمسلمين، وأُعجب بعض الإخباريين من المسلمين بتلك الإسرائيليات، ووردت في بعض كتب الأخبار والتاريخ والقصص والتفسير. وفسِّرت آيات القرآن الكريم بتلك الإسرائيليات!.

ونرى أن لا نورد هذه الإسرائيليات في حديثنا عن قصة طالوت، ولو من باب التحذير منها ـ كما فعلنا في القصص السابقة من هذا الكتاب ـ لأنها طويلة، وإنْ أوردناها ستأخذ منا عدة صفحات.

ولهذا سنشير إليها إشارات لنحذر منها وننبه عليها.

قالوا إن بني إسرائيل دخلوا فلسطين، وانتصروا بقيادة فتى موسى

ـ عليه السلام ـ يوشع بن نون، على سكان البلاد. واضطروهم للإقامة في الساحل الجنوبي لفلسطين ـ في غزة وعسقلان ـ بينما أقام بنو إسرائيل في الشمال والوسط.

وبقي الملك والقوة والنصر لبني إسرائيل أربعمائة وستين سنة، لأنهم كانوا عابدين للّه.

ولكن بني إسرائيل بعد ذلك كفروا وطغوا وبغوا. فسلّط اللّه عليهم أعداءهم الفلسطينيين، فهزموهم وأسروا أبناء ملوكهم وأخذوا تابوتهم.

قالوا: ولد لهم غلام بعد قصة عجيبة، وهذا الغلام اسمه صمويل ـ أو شمويل أو شمعون ـ وكان عندهم كاهن اسمه «عيلي» وكان منافقاً كاذباً، فاختار اللّه شمويل نبياً عليهم، ومات الكاهن «عيلي».

قالوا: جاء الملأ من بني إسرائيل إلى نبيهم «شمويل» وطلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل اللّه. فأخذ عليهم العهود والمواثيق على الطاعة.

ثم أخذ عصا وقَرْن فيه دهن مقدّس، وقال لهم إن الملك المختار عليكم، هو الذي طوله طول العصا.

قالوا: مر بالنبي رجل اسمه «شاول» وهو الذي سماه القرآن طالوت. وكان من عامة الشعب، وكان يدبغ الجلود، وضاع حماره فقام يبحث عنه. ولما دخل على شمويل قاس طوله فعرف أنه الملك، فقال لهم: إن اللّه قد بعث لكم طالوت ملكاً. فاعترض قومه على ذلك لأنه لم يكن من سبط يهوذا سَبط الملوك ـ ولا من سبط لاوي ـ سبط الأنبياء ـ فكان علامة ملكه مجيء التابوت إليهم.

قالوا: وكان التابوت قد هبط مع آدم من الجنة، وبقي الأنبياء يتوارثونه

حتى وصل إلى أنبياء بني إسرائيل. حيث وضعوا فيه السكينة. والسكينة حيوان بحجم الهر، كان يصرخ في أعدائهم عند الحرب فينهزمون.

ولما هَزم الفلسطينيون اليهود وأخذوا التابوت إلى بلادهم، تحول إلى لعنة عليهم ونزل بهم بسببه العذاب، وكلَّما وضعوه في موضع نزل به وبأهله العذاب، فاتفقوا على أن يعيدوه إلى بني إسرائيل، فجعلوه على عجلة، ثم وضعوا أمامها ثورين، فجرّاها إلى بني إسرائيل. فلما رأوا التابوت قادماً إليهم، خضعوا لطالوت.

وجهز طالوت جيشه وسار لحرب جالوت ـ أو جوليات كما يسميه اليهود ـ ومر بهم على نهر الأردن ـ الشريعة ـ وكان عددهم أربعة آلاف، فنهاهم عن الشرب منه، إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً التزموا وأطاعوا. فسار بهم وحدهم لحرب جالوت.

وكان معه في الجيش فتى صغير مغمور، هو داود ـ عليه السلام ـ وكان معه مقلاع عجيب، ما ضرب به شيئاً إلا أصابه، ولا ضرب به إنساناً ولا حيواناً إلا قتله.

فخرج من جيش الأعداء جالوت، وكان عملاقاً ضخماً، وطلب المبارزة، فخاف جيش طالوت، ولم يخرج أحد منهم.

فأوحى اللَّه إلى نبيهم شمويل أن في الجيش راعي غنم صغير هو «داود بن إيشا» وهو الذي يقتل جالوت، ويعطيه اللَّه الملك والخلافة.

وبعد بحث شاق وجده، وجرى حوار بينه وبين طالوت، ثم توجه إلى مبارزة جالوت. ومر في الطريق بأحجار ثلاثة، فخاطَبْتْهُ وطلبَتْ منه أن يحملها، لأنه بها يقتل جالوت، فحملها في مقلاعه.

فلما رآه جالوت استصغره ورده. ولكن داود أصر على المبارزة والمصارعة، وجعل الحجارة الثلاثة في مقلاعه، وسمّى اللَّه، فصارت الثلاثة

حجراً واحداً، ثم رمى به جالوت. فكسر البيضة التي على رأسه، ودخل رأسه، وفتَّت دماغه، وخرج من الخلف وأصاب الذين وراءه فقتل ثلاثين رجلاً منهم. ثم تفتت الحجر، وأصابت كل قطعة منه جندياً في جيش جالوت فقتلته!!

وبذلك انتصر طالوت وجيشه. بفضل داود وقوته، بل بفضل مقلاعه وحجارته.

فعظمت منزلة داود عند بني إسرائيل، وأحبوه وتعلقوا به، فحقد عليه طالوت، وكان قد زوَّجه لأنه قتل جالوت.

وقام طالوت بعدة محاولات لقتل داود، ولكنها فشلت كلها، وقدِر عليه داود عدة مرات ولم يقتله. واستمر الصراع حاداً بين طالوت وداود.

ولكن داود آثر الهرب، فترك طالوت، وجلس في رأس جبل مع عابدين يعبد اللَّه، وصار علماء بني إسرائيل يلومون طالوت على موقفه من داود، ولكن طالوت طغى وبغى، فكان يقتل كل من لامه، حتى قتل منهم آلافاً.

ثم تاب طالوت وندم على ما فعل، وبكى كثيراً، فرحمه الناس، وأراد أن يكفر عن أفعاله، فدلوه على امرأة منهم كانت تعرف اسم اللَّه الأعظم. فسارت معه إلى قبر النبي شمويل، ودعت اللَّه، فأحياه اللَّه لها، وخرج من قبره حياً، فسأله طالوت هل له من توبة، فقال: أن تقاتل الأعداء فتُقْتَل أنت وأولادك العشرة، فقاتل طالوت هو وأولاده، وقُتِلوا.

ثم ملكهم داود ـ عليه السلام ـ فكان نبياً ملكاً!.

وكانت الفترة من قتْل داود لجالوت إلى أن صار داود هو الملك، سبع سنوات[1]!

(١) انظر هذه الإسرائيليات عند الطبري في تفسيره ٥: ٢٩١ ـ ٣٧٨؛ والسيوطي في الدر المنثور ١: ٧٤٩ ـ ٧٦٤؛ والثعلبي في عرائس المجالس، ٢٣٢ ـ ٢٤٤، على سبيل المثال.

هذه خلاصة قصة طالوت وجالوت وداود، كما وردت في الإسرائيليات، وكما نقلْتها عنهم بعض كتب التاريخ والتفسير.

أوردناها بإيجاز، لنحذِّر منها وننبه عليها، ونشير إلى تركها وإهمالها وإغفالها.

لقد تعب العلماء السابقون الذين أوردوا هذه الإسرائيليات في كتبهم، حيث وصلت عندهم حجماً كبيراً، وسوَّدت عشرات الصفحات ـ بلغت عند الطبري أكثر من ثمانين صفحة ـ.

ولقد أتعب هؤلاء القارئين عندما قدموا لهم هذه الإسرائيليات، فضيعوا فيها أوقاتهم، وحجبَتْهم عن تدبر آيات القصة، والالتفات إلى دلالاتها ودروسها.

أوردنا تلك الإسرائيليات بإيجاز لننبه عليها، ولا نجيز لأحد أن يرويها عنا ـ أو غيرنا ـ إلا ليحذر منها وينبه عليها. أما إذا أوردها راضياً بها معتمداً لها، أو رواها ساكتاً عنها، فنرى أنه مخالف للمنهج الصحيح، وبذلك يعرض نفسه للمسؤولية أمام الله.

من مبهمات القرآن في القصة:

مبهمات القرآن: هي تلك التفصيلات التي لم يبيّنها القرآن في قصص السابقين، والتي تتعلق بزمان القصة أو مكانها أو أشخاصها أو أحداثها.

فإذا أبهمها القرآن، وأبهمها الحديث، فلا يمكننا أن نبينها أو نحددها أو نعرفها، ولا يقبل كلام أي إنسان في بيانها ما لم يذكر دليله الذي أخذ منه، عندها ننظر في دليله، فإن كان آية صريحة أو حديثاً صحيحاً، أخذنا به، وإلا رددنا ذلك الكلام، ورفضنا ذلك البيان.

وفي قصة طالوت نرى المبهمات كثيرة. منها:

١ ــ الزمان الذي وقعت فيه قصة طالوت. فكل ما يؤخذ من الآيات أنها وقعت لبني إسرائيل من بعد موسى، يعني بعد إقامتهم في فلسطين. أما تحديد السنة أو الفترة أو الحالة التي عليها بنو إسرائيل، فهذا لا يمكن تحديده.

٢ ــ اسم النبي الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً. فقد يكون شمعون أو شمويل أو صمويل وقد يكون غيره. فلا نجعل أحداً مع الأنبياء إلا بنص صريح، لاحتمال أن لا يكون نبياً. وبذلك نؤمن بنبوة غير النبي! وهذا لا يجوز.

٣ ــ السبب الذي دفعهم ليطلبوا من نبيهم ذلك الطلب.

٤ ــ نسب طالوت، وبداية أمره، وتفصيلات حياته قبل تملكه عليهم.

٥ ــ تفصيلات بسطة طالوت في العلم والجسم.

٦ ــ تفصيلات تملك طالوت عليهم.

٧ ــ التابوت وقصته وتاريخه عندهم ومقاساته، وتفصيلات السكينة والبقية التي فيه، التي تركها آل موسى وآل هارون.

٨ ــ كيف كانت تحمله الملائكة، وتفصيلات قدوم التابوت إليهم.

٩ ــ عدد بني إسرائيل عندما خرج بهم طالوت لقتال الأعداء.

١٠ ــ اسم النهر الذي مر به طالوت ومنعهم من الشرب منه، وهل هو نهر الأردن الذي يفصل بين الأردن وفلسطين، أو نهر اخر يفصل بين شمال فلسطين وجنوبها.

١١ ــ عدد الذين خالفوا وشربوا من النهر.

١٢ ــ من هو جالوت، وما هي قوته وصورته وحجمه وشكله؟

١٣ ــ تفصيلات أعداء بني إسرائيل، وعددهم، ومكانهم، وديارهم.

١٤ ــ مكان المعركة الفاصلة بين طالوت وجالوت.

١٥ ــ تفصيلات بداية أمر داود وطفولته ونسبه.

١٦ ــ تفصيلات المعركة بين الجيشين.

١٧ ــ كيفية قتل داود لجالوت.

١٨ ــ ماذا جرى لداود بعد قتل جالوت، وقصته مع طالوت.

١٩ ــ نهاية طالوت وكيف كانت.

٢٠ ــ كيف انتقل الملك من طالوت إلى داود.

والعجيب أن بعض المفسرين والمؤرخين والكاتبين والمتحدثين، لم يقفوا عند هذا البيان القرآني والنبوي، فذهبوا إلى الإسرائيليات، وطلبوا منها حل تلك المبهمات، وتفصيل تلك الأحداث، ولم يقدموا لنا علماً ولا فائدة ولا عبرة!.

القصة مليئة بالدروس والعبر:

لا ندري لماذا يذهب بعض المسلمين إلى الإسرائيليات يأخذون منها تفصيل الأحداث وبيان المبهمات التي في القصة، ويغفلون عن الوقوف أمام عرض القرآن لها، ولا يأخذون منها بعض ما فيها من دروس ودلالات وعبر.

إن القصة مليئة بالدروس والدلالات والعبر والعظات، وإن المسلم مأمور بالوقوف أمامها، وتدبرها، وإدراك بعض ما فيها.

فيها دروس للدعاة في التعامل مع الآخرين، ودروس للمصلحين الذين يريدون تغيير الواقع السيىء الذي تعيشه الأمة. ودروس للمجاهدين الذين يعملون على تبديل الذل إلى عزّة، والهزيمة إلى نصر. ودروس للذين

يعتمدون على الجماهير، ويصدِّقون اندفاعهم وحماستهم، ويضعون على أساسها خططهم وبرامجهم، فتتخلى عنهم الجماهير وقت الحاجة. ودروس في التربية الفردية والجماعية. ودروس في الضبط والحزم والامتحان. ودروس في الجهاد والقتال وخوض المعركة، والتوجه إلى اللَّه والاستنصار به، وعدم الرعب والهلع من قوة الأعداء. وفيها دروس في أسس اختيار الحكام والمسؤولين، ومواصفات الحاكم المناسب.

وبهذا نرى أنه يستفيد من القصة كل داعية ومصلح وحاكم وقائد ومجاهد ومسؤول.

وأنها تضم إشارات وإيحاءات في الإيمان والعقيدة، والدعوةوالجهاد، والإصلاح والتغيير،والتربية والتوجيه، والسياسة والولاية، والحكم والسيادة.

وبهذا نعرف كم أغفل أولئك الذين تجاوزوا هذه الكنوز من الدروس والدلالات، وذهبوا إلى «تيه» الإسرائيليات والخرافات والأساطير.

ولئن جاز للسابقين الذهاب إلى الإسرائيليات ـ وهو غير جائز ـ في فترة الترف الفكري والعلمي التي عاشوها، فلا يجوز لنا نحن في هذا العصر أن نفعل فعلهم، لأننا مطالبون بالإصلاح والدعوة والتغيير. وعلينا مسؤوليات عظيمة، لنغير واقع الأمة من الحضيض التي هي فيه إلى قمة العزة والتمكين التي يريدها اللَّه لها. فلا وقت لدينا لتلك الخرافات والإسرائيليات. وإن أعمارنا وأوقاتنا وأوراقنا وأعصابنا وأفكارنا أثمن من أن نضيعها فيما لا خير فيه، وسوف يسألنا اللَّه عنها، وعن ما عملناه فيها.

وهناك مفسرون صادقون، منّ اللَّه عليهم بصواب المنهج، ودقة النظرة، وحسن الاستنباط، فتجاوزوا الإسرائيليات والمبهمات إلى تقديم ما فيه خير ونفع للقراء.

وفي مقدمة هؤلاء المفسرين، الإمامان «محمد رشيد رضا» في تفسير المنار، و«سيد قطب» في «الظلال».

ومن خلال تعاملنا مع المفسرين السابقين، وجدنا أن هذين الإمامين يقفان في مقدمة المفسرين، وأن اللّٰه وهبهما علماً وحكمة وفطنة، كانا بذلك، أعمق نظراً، وأنفذ بصراً، وأصوب منهجاً، وأدق استنباطاً، وأصدق لهجة، وأقوم أسلوباً.

وإن تفسيريهما ـ المنار والظلال ـ يحويان كنوزاً وافرة من الدروس والعبر والدلالات ومعلومات نافعة في التفسير وعلوم القرآن.

رضي اللّٰه عن الإمامين الجليلين ـ وعن علماء التفسير الآخرين ـ وتقبل اللّٰه جهودهما وجهادهما، وأجزل لهما الأجر والثواب!.

مع الأستاذ الإمام سيد قطب في تقديمه للقصة:

نورد فيما يلي تلخيصاً لما أورده سيد قطب من دروس ودلالات في تقديمه لقصة طالوت.

قال في التعريف بالدرس الذي ضم آيات القصة:

«ندرك قيمة هذا الدرس. وما يتضمنه من تجارب الجماعات السابقة، والأمم الغابرة. حين نستحضر في أنفسنا: أن القرآن هو كتاب هذه الأمة الحي، ورائدها الناصح، وأنه هو مدرستها التي تلقت فيها دروس حياتها. وأن اللّٰه ـ سبحانه ـ كان يربي به الجماعة المسلمة الأولى، التي قسم لها إقامة منهجه الرباني في الأرض، وناط بها هذا الدور العظيم، بعد أن أعدها له بهذا القرآن الكريم. وأنه ـ تعالى ـ أراد بهذا القرآن أن يكون هو الرائد الحي ـ الباقي بعد وفاة الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم ـ لقيادة أجيال هذه الأمة، وتربيتها، وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذي وعدها به، كلما اهتدت بهديه،

واستمسكت بعهدها معه، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن، واستعزَّت به واستعلت على جميع المناهج الأرضية. وهي بصفتها هذه، مناهج الجاهلية!.

إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يُتلى، ولكنه دستور شامل. دستور للتربية، كما أنه دستور للحياة العملية، ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التي جاء لينشئها ويربيها. وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية في الأرض، من لدن آدم ـ عليه السلام ـ وقدمها زاداً للأمة المسلمة في جميع أجيالها: تجاربها في الأنفس، وتجاربها في واقع الحياة. كي تكون الأمة المسلمة على بيِّنة من طريقها، وهي تتزود لها بذلك الزاد الضخم، وذلك الرصيد المتنوع.

ومن ثم جاء القصص في القرآن بهذه الوفرة، وبهذا التنوع، وبهذا الإيحاء.

وقصص بني إسرائيل هو أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم لأسباب عدة، ذكرنا بعضها في الجزء الأول من الظلال، عند استقبالنا أحداث بني إسرائيل، وذكرنا بعضها في هذا الجزء في مناسبات شتى ـ وبخاصة في أوله ـ.

ونضيف إليها هنا ما نرجحه. وهو: أن اللَّه ـ سبحانه ـ علم أن أجيالاً من هذه الأمة، ستمر بأدوار كالتي مر فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل، فعرض عليها مزالق الطريق، مصوَّرة في تاريخ بني إسرائيل، لتكون لها عظة وعبرة، ولترى صورتها في هذه المرآة المرفوعة لها بيد اللَّه ـ سبحانه ـ قبل الوقوع في تلك المزالق، أو اللجاج فيها على مدار الطريق.

إن هذا القرآن ينبغي أن يُقرأ، وأن يُتلقى من أجيال الأمة المسلمة

بوعي. وينبغي أن يُتدبر على أنه توجيهات حية، تتنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل. لا على أنه مجرد كلام جميل يرتَّل، أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود!.

ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة.

وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد. وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي! سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية، تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق، وتقول لنا: هذا فافعلوه. وهذا لا تفعلوه. وتقول لنا: هذا عدو لكم وهذا صديق. وتقول لنا: كذا فاتخذوا من الحيطة، وكذا فاتخذوا من العدة، وتقول لنا: حديثاً طويلاً مفصلاً دقيقاً في كل ما يعرض لنا من الشؤون.

وسنجد عندئذ في القرآن متاعاً وحياة. وسندرك معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا اسْتَجيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسولِ إذا دَعاكُمْ لِما يُحييكُمْ﴾[1]. فهي دعوة للحياة. للحياة الدائمة المتجددة. لا لحياة تاريخية محدودة، في صفحة غابرة من صفحات التاريخ»[2].

ولقد أشار سيد قطب إلى أهم ما يؤخذ من القصة، في تقديمه لها. فقال:

«والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها، هي أن هذه الانتفاضة ــ انتفاضة العقيدة ــ على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من

---

(١) سورة الأنفال: آية ٢٤.

(٢) في ظلال القرآن ١: ٢٦٠ ــ ٢٦١.

نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق ـ على الرغم من هذا كله، فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جداً. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل، والذل تحت أقدام المتسلطين.

ومن خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية، كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين:

من ذلك:

١ ـ إن الحماسة الجماعية، قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها، فيجب أن يضعوها على محك التجربة، قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.

فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل ـ من ذوي المكانة والرأي فيهم ـ إلى نبيهم، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكاً يقودهم إلى المعركة مع أعدائهم. فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال، وقال لهم: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟ استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماستهم إلى الذروة. ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتهاوت على مراحل الطريق.

ومع أن لبني إسرائيل طابعاً خاصاً، في النكول عن العهد، والنكوص عن الوعد، والتفرق في منتصف الطريق إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال، في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغاً عالياً من التدريب.

وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل. فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل.

٢ ـ ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الغائر في نفـوس الجماعات، ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول:

(أ) فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولَّوا بمجرد أن كُتب عليهم القتال استجابـة لطلبهم، ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعدها مع نبيهم. وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت.

(ب) ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى. وضعفوا أمام الامتحان الأول. وشربوا من النهر. ولم يجاوز معه إلا عدد قليل.

(ج) وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية، فأمام الهول الحي، أمام كثرة الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائم، وزلزلت القلوب.

(د) وأمام هذا التخاذل ثبتت القلة القليلة المختارة، اعتصمت باللَّه، ووثقت بـوعده، وهي التي رجحت الكفـة، وتلقت النصْـر، واستحقت العز والتمكين.

لقد تمت تصفية بني إسرائيل ثلاث مرات. وخلاصة خلاصة الخلاصة، هم الذين صدقوا اللَّه في الجهاد فصدَقهم اللَّه وعده، وأنزل عليهم نصره.

٣ ـ وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت، تبرز فيها:

(أ) خبرته بالنفوس.
(ب) وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة.
(ج) وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى.
(د) ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة.

(هـ) وفصْله للذين ضعفوا، وترْكهم وراءه.

(و) ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله، وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة.

٤ ـ والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة.. أن القلب الذي يتصل بالله، تتغير موازينه وتصوراته: لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود.

فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها، ما يراه الآخرون الذين قالوا: «لا طاقة لنا بجالوت وجنوده». ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف. إنما حكمت حكماً آخر، فقالت: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين». ثم اتجهت لربها تدعوه: «ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين». وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد الله وحده. فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه.

وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقاً، وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح. وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون!.

ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة.

فالنصوص القرآنية ـ كما علمتْنا التجربة ـ تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه.

ويبقى لها رصيدها المذخور، تتفتح به على القلوب، في شتى المواقف، على قدر مقسوم»[1].

مع الأستاذ الإمام رشيد رضا في تعقيبه على القصة:

كانت وقفة سيد قطب أمام آيات القصة وقفة حركية دعوية، استخلص منها دروساً في الإيمان والدعوة والحركة والتربية والجهاد.

أما وقفة رشيد رضا أمام آيات القصة فقد كانت وقفة سُنَنِيَّة اجتماعية، استخلص فيها أهم السنن الاجتماعية في حياة الأمم والمجتمعات.

ونحن نلخص فيما يلي أهم السنن التي أوردها.

قال تحت عنوان «السنن الاجتماعية في القرآن والأمم والاستقلال».

«أذكر ما يظهر لي من السنن والأحكام الاجتماعية في آيات هذه القصة، مفصلة معدودة لعلها تُوعىٰ، وتُحْفَظ فلا تُنسىٰ إن شاء اللّه تعالى.

السُّنَّة الأولى: إن الأمم إذا اعتُدِي على استقلالها، وأوقع الأعداء بها، فهضموا حقوقها، تتنبه مشاعرها لدفع الضيم، فتسعى للوحدة التي يمثلها الزعيم العادل، فتتوجه إلى طلبه، كما وقع من بني إسرائيل، بعد تنكيل أهل فلسطين بهم.

السُّنة الثانية: إن شعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها وصيانة استقلالها، يكون موجوداً عند خاصتها وأهل الفكر والرأي فيها. فالملأ من بني إسرائيل، هم الذين طلبوا الملك.

السُّنة الثالثة: متى عظم الشعور بوجوب حفظ حقوق الأمة ومحاربة أعدائها عند خواص الأمة، فإنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها، حتى إذا

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٢٦٠ ـ ٢٦٣ بتصرف واختصار.

خرجت من طور الفكر والشعور إلى طور العمل والظهور، انكشف عجز الأدعياء، ولم ينفع إلا صدق الصادقين.

السُّنة الرابعة: من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الرئيس، والاختلاف مدعاة للتفرق، فلا بد من مرجِّح ترضى به الأمة، كما طلبت بنو إسرائيل من نبيهم اختيار ملك لهم، فكان هو المرجح. والمرجح عند المسلمين هم أهل الحل والعقد منهم.

السُّنة الخامسة: إن الناس لا يتفقون على التقليد أو الاتباع فيما يرونه مخالفاً لمصلحتهم الاجتماعية، ولذلك اختلف بنو إسرائيل على نبيهم في جعْل طالوت ملكاً عليهم، واحتجوا على ذلك بما لا ينهض حجة إلا في ظن المنكرين. ومن عجيب أمر الناس أن كلاً منهم يحسب أنه على الصواب في السياسة ونظام الاجتماع في الأمم والدول.

السُّنة السادسة: إن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالمُلك والزعامة أصحاب الثروة الواسعة، كما في قول المنكرين على طالوت «أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤتَ سعة من المال؟» فهذا الاعتقاد من السنن العامة في الأمم الجاهلية.

السُّنة السابعة: إن الشروط التي تُعتبر في اختيار الرجل في الملك هي في رد النبـي على اعتراض قومه على ملك طالوت: «إن اللّه اصطفاه عليكم، وزاده بسطة في العلم والجسم، واللّه يؤتي ملكه من يشـاء واللّه واسع عليهم».

ويؤخذ من هذا الرد شروط أربعة:

(أ) الاستعداد الفطري للشخص «إن اللّه اصطفاه عليكم».

(ب) السَّعة في العلم الذي يكون به التدبير «وزاده بسطة في العلم».

(ج) بسطة الجسم المعبَّر بها عن صحته، وكمال قواه المستلزم ذلك صحة الفكر «. . . والجسم».

(د) توفيق اللَّه تعالى الأسباب له، وهو المعبَّر عنه بقوله: «واللَّه يؤتي ملكه من يشاء».

السُّنة الثامنة: هي ما أفاده قوله تعالى: ﴿واللَّه يؤتي ملكه من يشاء﴾ فمشيئة اللَّه سبحانه، إنما تنفذ بمقتضى سننه العامة في تغيير أحوال الأمم، بتغييرهم ما في أنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين وإيراث الأرض للصالحين. وتأويل هذه الآيات وأمثالها مشاهَد في كل زمان، وأين المبصرون؟

السُّنة التاسعة: إن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهي عنه، شرط في الظفر واستقامة الأمر. وقوانين الجندية في هذا الزمان حتى عند الغربيين مبنية على طاعة الجيش لقواده في المنشط والمكره والمعقول وغير المعقول.

السُّنة العاشرة: إن الفئة القليلة قد تغلب بالصبر والثبات وطاعة القواد، الفئة الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد، مع طاعة القواد، لأن النصر مع الصابرين، أي جرت سنته بأن يكون النصر إلِّاً للثبات والصبر، وإن أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم، وهذا مشاهد في كل زمان.

السُّنة الحادية عشرة: إن الإيمان باللَّه، والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجِلاد والقتال.

السُّنة الثانية عشرة: إن التوجه إلى اللَّه بالدعاء مفيد في القتال، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فهزموهم بإذن اللَّه﴾ إذ عطفها بالفاء على آية الدعاء، وذلك معقول المعنى، فإن الدعاء هو آية الإيمان باللَّه والتصديق بلقائه.

السُّنة الثالثة عشرة: دفْعُ اللَّه الناس بعضهم ببعض من السنن العامة، وهو ما يعبِّر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون إن الحرب طبيعية في البشر لأنها من فروع سنَّة تنازع البقاء العامة. وأنت ترى في قوله تعالى: ﴿ولولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ ليس نصاً فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو عام لكل نـوع من أنواع التنازع بين الناس، الذي يقتضي المدافعة والمغالبة.

ويظن بعض المتطفلين على علم السنن في الاجتماع البشري، أن تنازع البقاء الذي يقولون إنه سنة عامة هو من أثرة الماديين في هذا العصر، وأنه جور وظلم، هم الواضعون له والحاكمون به، وأنه مخالف لهدى الدين. ولو عرف من يقولون هذا، معنى الإنسان، أو لو عرفوا أنفسهم، أو لو فهموا هذه الآية، لما قالوا ما قالوا.

السُّنة الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لفسدت الأرض﴾ يؤيد السنة التي يعبِّر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعي، أو بقاء الأمثل، ووجْهُ ذلك جعْلُ هذا من لوازم ما قبله، فإنه تعالى يقول إن ما فُطر عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضاً، عن الحق والمصلحة، هو المانـع من فساد الأرض. أي هو سبب بقاء الحق وبقاء الصلاح.

ويعزز ذلك قوله تعالى في بيان حكمة الإذن للمسلمين بالقتال في سورة الحج:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِموا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدير. الَّذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقّ، إلَّا أَنْ يَقولوا: رَبُّنا اللَّهِ. وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، لَهُدِّمَتْ صَوامِعَ وَبِيَعٌ وَصَلواتٌ وَمساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللَّهِ كَثيراً. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُه. إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزيز. الَّذينَ إِنْ مَكَّنّاهُمْ في

الْأَرْضِ أَقاموا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَر، وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمور﴾[1].

فهذا إرشاد إلى تنازع البقاء، والدفاع عن الحق، وأنه ينتهي ببقاء الأمثل، وحفظ الأفضل»[2].

بعض لفتات ولطائف الآيات:

نقف فيما يلي وقفة سريعة نشير فيها إلى بعض لفتات ولطائف الآيات، التي عرضت قصة طالوت.

ونحاول أن لا نكرر ما ذكره الإمامان رشيد رضا وسيد قطب. وإنما نضيف إلى ما أوردناه من نظراتهما ودلالاتهما، هذه النظرات والدلالات.

١ ـ في قوله: ﴿ألم تر﴾ الرؤية علمية لا عينية، بمعنى: ألم تعلم قصة أولئك الملأ من بني إسرائيل. وهذا الاستفهام يدل على الحث على التعلم والدعوة إليه، فكأنه يقول له: تعلَّم قصة أولئك الملأ.

٢ ـ في قوله: «الملأ من بني إسرائيل». هم سادتهم وكبراؤهم والمقدمون فيهم.

قال الراغب: «الملأ جماعة يجتمعون على رأي، فيملئون العيون رَواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً»[3].

وقال الإمام الرازي «الملأ: الأشراف من الناس. وأصلها من المَلأ. وهم الذين يملئون العيون هيبة ورواءً. وقيل: هم الذين يملئون المكان

(١) سورة الحج: الآيات ٣٩ ـ ٤١.
(٢) تفسير المنار ٢: ٤٩٢ ـ ٤٩٨ بتصرف واختصار.
(٣) المفردات في غريب القرآن، ٤٧٢.

إذا حضروا. وقال الزجاج: الملأ الرؤساء، سموا بذلك لأنهم يملئون القلوب بما تحتاج إليه»[1].

وما من قوم من الأقوام، ولا أمة من الأمم، إلا كان بينهم «الملأ» من الأشراف والرؤساء والقادة. فوجود «الملأ» ظاهرة طبيعية بين الأقوام.

وغالب استخدام القرآن للكلمة «الملأ» في إطلاقها على القادة والرؤساء الكافرين الذين يقودون أقوامهم في مواجهة دعوات الأنبياء والمصلحين. فما من نبي إلا واجه «الملأ» من قومه، الذين حاربوه وآذوه، فيهلكهم اللّه بسبب ذلك.

أطلق القرآن كلمة «الملأ» على الكافرين ثماني عشرة مرة، من إثنتين وعشرين مرة هي مجموع ورود هذه الكلمة فيه!.

٣ ــ في قوله «إذ قالوا»:

إذ: أداة تستعمل للزمان الماضي. فهي ظرف لما مضى من الزمان.

أما إذا: فهي ظرف لما يُستقبل من الزمان.

ولذلك يستخدم القرآن «إذ» أداة للتعبير عن الأحداث الماضية في قصص السابقين. فإذا قرأها القارىء أيقن أن ما بعدها رواية لأحداث ماضية.

بينما يستخدم القرآن «إذا» أداة للتعبير عن الأحداث المستقبلية، التي لم تكن قد وقعت عند نزول الآية التي وردت فيها الأداة.

وقد وردت «إذ» في القرآن: مائتين وتسعاً وثلاثين مرة[2].

بينما وردت «إذا» في القرآن: أربعمائة وثلاثاً وعشرين مرة[3].

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٦: ١٧٠.

(٢) معجم الأدوات والضمائر في القرآن للدكتور إسماعيل عمايرة، ١١ ــ ١٦.

(٣) المرجع السابق، ١٧ ــ ٢٦.

٤ ـ التنكير في قوله «لنبي لهم» مقصود، وفيه إيحاء لطيف للناظرين في قصة طالوت. وكأنه يطلب منهم أن لا يخوضوا في اسم ذلك النبي، وأن لا يحاولوا معرفته، وكأن القرآن يقول لهم: لقد تعمدنا إغفال اسمه، وتنكير صفته، ولو أردنا أن نحدده لحددناه، ولو علمنا أن في بيانه خيراً لكم لبيناه، فعليكم الاكتفاء بما أوردناه.

٥ ـ يؤخذ من قولهم «ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل اللّٰه» أهمية وجود القائد الذي يقود الأمة، ويوجهها للجهاد. ووجوب تعيين أمير للقتال والغزو.

قال السيوطي في الإكليل: «فيه أن البعوث والسرايا لا بد لهم من أمير يُوَلَّى عليهم، يرجعون إليه، ويقتدون به»[1].

٦ ـ كان نبيهم ذكياً وحكيماً عندما قال لهم: «هل عسيتم أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟» وهذا يدل على أنه كان عالماً بصفاتهم، خبيراً بطبائعهم، مطَّلعاً على تمكن صفات الجبن والتراجع ونقض العهد والتولي عن القتال والقعود عن الواجب منهم. وهذه النقائص متأصلة في طبيعة اليهود ونفوسهم، وأخلاقهم وتصرفاتهم.

٧ ـ صدقت فراسة نبيهم، وتحقَّق علمه بهم، عندما تولوا عن القتال بعد حماستهم له. كما قال تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا، إلا قليلاً منهم﴾.

ويؤخذ من هذا ـ بالإضافة إلى ما ذكره رشيد رضا وسيد قطب فيما سبق ـ اختلاف الوعود والأمنيات عن العمل والتنفيذ، فكثيرون هم الذين يعدون ويتمنون ويتحمسون، لكن كثيراً من تلك الوعود والتمنيات والأمنيات يتبدد على أرض التجربة وميدان التطبيق.

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي: ٤٥.

قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «وهذا شأن الأمم المتنعِّمة، المائلة إلى الدَّعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة، فإذا حضرت الحرب كَعَّتْ وانقادت لطبعها»[1].

ولقد عتب القرآن على بعض المسلمين الذين كانوا يتمنون الجهاد ويتحمسون للقتال، ويطالبون به، فلما أوجب اللّه عليهم ما تمنوه وطالبوا به، كأنهم جبنوا وتخاذلوا. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الّذينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاة، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتال، إذا فَريقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ، أَوْ أَشَدَّ خَشْيَة، وَقَالوا: رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنا القِتال؟ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيب! قُلْ مَتَاعُ الدُّنيا قَليل، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى﴾[2].

ونظراً لهذه الطبيعة في النفس الإنسانية، فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، يدعونا إلى أن لا نكثر من الوعود والأمنيات الجهادية، وأن لا نسرف في إظهار الرغبة في القتال، بل نتواضع في ذلك قبل وقوعه، ونتمنى أن لا تقع المواجهة مع الأعداء، وأن تكتب لنا العافية. لكن إذا وقعت الواقعة وتمت المواجهة ونشبت المعركة، فعند ذلك يكون الصدق والثبات والصبر.

روى مسلم عن عبداللّه بن أبي أوفى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، ينتظر، حتى إذا مالت الشمس، قام فيهم خطيباً فقال: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا اللّه العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣: ٢٤٥.

(٢) سورة النساء: آية ٧٧.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير رقم ٣٢ باب كراهة تمني العدو رقم ٦ حديث رقم ١٧٤٢.

٨ ـ ملكهم الذي اختاره اللّه لهم، اسمه في القرآن «طالوت» بينما اسمه في أخبار بني إسرائيل ـ والكتب التي نقلت عنهم ـ «شاول» وملك الأعداء اسمه في القرآن «جالوت» واسمه في أخبار بني إسرائيل ومن نقل عنهم «جوليات».

وقد شكك بعض الإخباريين والمؤرخين في تسمية القرآن لهما، وطعن في صحتها أو رفضها لأنها لا تتفق مع تسمية بني إسرائيل لهما. فقدم تسميتهم على تسمية القرآن، ورجحها على القرآن!

وهذا هو الضلال البعيد العريض!

فعندما يتعارض ما ورد في القرآن مع ما ورد في أخبار بني إسرائيل، يقدَّم الصحيح اليقيني الثابت، على ما كان مظنَّة التغيير والتحريف والتزوير.

والمؤرخون والباحثون على أن أخبار بني إسرائيل ليست موثوقة ولا صادقة، وأن التوراة والعهد القديم والأسفار والتلمود، دخلها ما دخلها من صياغة اليهود وكلامهم وفكرهم، ومزجوا كلام اللّه فيها بكلامهم، والحقَّ الرباني فيها بأكاذيبهم وزيفهم وضلالهم، أما القرآن فإن اللّه قد تكفل بحفظه سبحانه.

لذلك يجب اعتماد ما ورد في القرآن من قصص السابقين، ومن أسماءٍ لأحداث وأشخاص تلك القصص، عندما يتعارض ذلك مع ما ورد في أخبار السابقين، فالمعتمَد هو ما ورد في القرآن، فنحن نجزم بأن اسم ملكهم هو «طالوت» واسم ملك أعدائهم هو «جالوت».

وبهذه المناسبة نرفض تنطع بعض الباحثين حول اسم «طالوت» حيث ذهبوا إلى أنه اسم عربي مشتق من الطول. وأن الواو والتاء فيه تفيد المبالغة، مثل «طاغوت» و «ملكوت» و «جبروت»، وليدللوا على صحة ادعائهم، افترضوا خرافات أسطورية عن طول «طالوت».

نرفض ذلك كله لأن اسم «طالوت» أعجمي وليس عربياً، والأسماء الأعجمية كلها جامدة وليست مشتقة، لأنها ليست عربية، فكيف نبحث لها عن مادة اشتقاق في اللغة العربية، طالما أنها مستعملة قبل العرب، ومتداولة بين أقوام من غير العرب.

إن أسماء «آدم» و «إبليس» و «نوح» و «إبراهيم» و «يعقوب» و «لوط» و «طالوت» و «جالوت» و «داود»، وغيرها كثير، أعجمية جامدةوليست عربية مشتقة!.

٩ ــ بنوا اعتراضهم على ملك طالوت على أمرين «نحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال».

فكانت نظرتهم للملك والإمامة والولاية والسلطان تقوم على الوراثة والنسب، وبما أنه لم يكن أحد من آباء طالوت ملكاً فلا حق له في الملك.

وهذه هي نظرة المادية الجاهلية للملك والإمامة والولاية والسلطان.

١٠ ــ رد نبيهم اعتراضهم على طالوت بأن بين لهم مواصفات الملك والحاكم الأساسية المقبولة: «إن اللّه اصطفاه عليكم، وزاده بسطة في العلم والجسم».

وقد استنبط العلماء من هذا القول بطلان نظرية الوراثة في الملك والحكم والسلطان.

قال الإمام الرازي «هذه الآية تدل على بطلان قول من يقول: إن الإمامة موروثة»(١).

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٦: ١٧٣.

وقال السيوطي: «فيه أن الإمامة ليست وراثة متعلقة بأهل بيت النبوة والملك. وإنما تستحق بالعلم والقوة دون المال. وأن النسب مع فضائل النفس والعلم لا عبرة به، بل هي مقدَّمة عليه»[(١)].

١١ ـ تقديم الزيادة في العلم على الزيادة في الجسم، لحكمة لطيفة، ذكرها الرازي قائلاً: «وهذا منه تنبيه على أن الفضائل النفسية، أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية»[(٢)].

١٢ ـ ذهب بعضهم إلى أن المراد بالبسطة في الجسم التي منحها اللَّه لطالوت، البسطة المادية، من حيث طولُ القامة وامتلاءُ الجسم وجماله. وهذا لا حرج فيه.

لكن بعض العلماء رجح أن المراد بالبسطة هنا، البسطة المعنوية، من حيث زيادة معاني القوة والخير والشجاعة فيه.

قال الرازي: «وقيل: المراد بها القوة. وهذا القول عندي أصح، لأن المنتفعَ به دفع الأعداء هو القوة والشدة، لا الطول والجمال.»[(٣)]

وقال القرطبي: «وقيل: زيادة الجسم كانت: بكثرة معاني الخير والشجاعة، ولم يُرد عِظَم الجسم.

ألم تر إلى قول الشاعر:

تَرى الرجل النحيفَ فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هَصورُ
ويعجبُك الطّريرَ، فَتبتليه ... فَيُخْلِف ظنك الرجلُ الطّريرُ
وقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ ... فلم يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البعيرُ[(٤)]

---

(١) الإكليل للسيوطي: ٤٥.
(٢) التفسير الكبير: ١٧٤.
(٣) المرجع السابق ٦: ١٧٤.
(٤) تفسير القرطبي ٣: ٢٤٦.

وهذه الأبيات للشاعر العباس بن مرداس.

١٣ ـ في مجيء التابوت إلى بني إسرائيل، تحمله الملائكة التي لا يرونها، معجزة من معجزات اللّه، وآية من آياته. وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وتم هذا الأمر الرباني الخارق كمعجزة لذلك النبي الذي بلّغهم اختيار اللّه لطالوت ليكون ملكاً عليهم. كما أن هذا الأمر يعتبر كرامة من اللّه لذلك الملك الصالح المجاهد «طالوت».

وتأييد اللّه له عن طريق هذه الآية البينة، يدل على أن اللّه ينصر أولياءه وجنوده، ويدافع عنهم، ويقدم لهم من الآيات والكرامات ما يجعل الناس ـ أحياناً ـ يؤيدونهم.

١٤ ـ منْعُ طالوت لقومه من الشرب من النهر الذي مروا به. مع أن الشراب أساساً مباح، يدل على أنه يجوز للأمير أو الحاكم أحياناً أن يقيد المباح، وأن يمنع رعيته ـ أو بعض أفرادها ـ من استعمال ذلك المباح.

وهو بذلك التصرف لا يحرِّم المباح، لأن التحريم والتحليل حق للّه وحده، ولا يملك أحد من البشر حق التحليل والتحريم والتشريع.

ولكنه يملك تقييد المباح أحياناً، والمنع من استعماله أحياناً، تنظيماً للحياة، وتربيةً للنفوس، وتُعتبر طاعة الأمير في هذا المنع أو التقييد واجبة شرعاً، ومخالفته محرمة شرعاً، لورود النصوص بذلك.

١٥ ـ هناك دلالة تؤخذ من منع طالوت لجيشه أن يشربوا من النهر، وسماحه للرجل منهم أن يغترف منه غرفة بيده. فهو لم يكلفهم بما لا يطاق، وإنما كلفهم بما في وسعهم.

ثم هو لم يشتط في التكليف، ولم يغلق عليهم كل الوسائل والسبل،

وإنما منعهم من شيء، وأباح لهم شيئاً آخر. وتبدو في هذا التكليف حنكته وكياسته، وخبرته بالنفوس، ومعرفته بكيفية تربية الآخرين وقيادتهم.

فهو قد منعهم من الشرب من النهر، والشرب هو أن يَغُب الإنسان من النهر غَباً، ويَكْرَع منه كرعاً، بدون وسيلة، وإنما بالفم مباشرة.

وأباح للرجل منهم أن يغترف من النهر غرفة بيده. غرفة واحدة، يقتل بها عطشه، ويروي بها ظمأه.

١٦ ــ هناك لفتة لطيفة تؤخذ من قوله: «ومن لم يطعمه فإنه مني».

فما هو سر التعبير عن الشرب بالطَّعْم؟ ولماذا عدل عن الشرب إلى الطعم؟

قال الراغب عن معنى الطَّعْم: «الطَّعْم تناول الطعام. ويسمى ما يُتناول منه: طعم وطعام.

وقد يستعمل طعمت في الشراب كقوله: «ومن لم يطعمه فإنه مني»[1]. وكقوله: ﴿لَيْسَ عَلى الّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فيما طَعِموا، إذا ما اتَّقَوْا وَآمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحات..﴾[2].

وهذه الآية نزلت بخصوص الصحابة الذين كانوا يشربون الخمر قبل تحريمها، فماتوا. فتساءل إخوانهم عن مصيرهم بعد التحريم. فقالوا: «ماذا يفعل اللّه بإخواننا الذين ماتوا قبل تحريم الخمر، وهي في بطونهم؟ وهل هم معذبون؟»

فرفعت الآية الجُناح والإثم عنهم: لا إثم عليهم فيما طعموه ــ أي

---

(١) المفردات: ٣٠٤.

(٢) سورة المائدة: آية ٩٣.

شربوه ــ من الخمر قبل تحريمها[1].

والمراد بالطعم هو الذوق. أي: ومن لم يذقه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده.

أما لماذا عدل عن التعبير بالشرب إلى الطعم؟

قال القرطبي: «ولم يقل: ومن لم يشربه. لأن من عادة العرب إذا كرروا شيئاً أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللغات»[2].

أما الرازي فله في هذا تعليلان لطيفان.

«أحدهما: أن الإنسان إذا عطش جداً، ثم شرب الماء. وأراد وصف ذلك الماء بالطيب واللذة، قال: إن هذا الماء كأنه عسل، فيصفه بالطعوم اللذيذة. فقوله: «ومن لم يطعمه» معناه: أنه وإن بلغ به العطش إلى حيث يكون ذلك الماء في فمه كالموصوف بهذه الطعوم الطيبة، فإنه يجب عليه الاحتراز منه.

الثاني: أن من جعل الماء في فمه وتمضمض به ثم أخرجه من الفم، فإنه يصدق عليه أنه ذاقه وطعمه، ولا يصدق عليه أنه شربه. فلما قال: ومن لم يطعمه، كان المنع من الشرب ومن المضمضة. ومعلوم أن هذا التكليف أشق، لأن الممنوع من شرب الماء إذا تمضمض به وجد نوع خفة وراحة»[3].

وعند الراغب الأصفهاني تعليل آخر. «إنما قال: ومن لم يطعمه، تنبيهاً: أنه محظور أن يتناول منه، إلا غرفة مع طعام. كما أنه محظور عليه أن يشربه إلا غرفة. فإن الماء قد يُطعَم إذا كان مع شيء يُمضغ.

---

(١) أنظر ــ على سبيل المثال ــ الدر المنثور ٣: ١٧٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٥٢.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٦: ١٨١.

ولو قال: ومن لم يشربه، لكان يقتضي أن يجوز تناوله إذا كان في الطعام، فلما قال: ومن لم يطعمه، بين أنه لا يجوز تناوله على كل حال، إلا قدر المستثنى، وهو الغرفة باليد»[1].

الماء قد يكون مطعوماً، وقد يغني صاحبه عن الطعام ـ إلى حين ـ إذا لم يجد أمامه إلا الماء. فيسد الماء مسد الشراب والطعام في هذه الحالة.

وقد حدث هذا مع الصحابي أبي ذر الغفاري ـ رضي اللَّه عنه ـ أثناء بحثه عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. فقد ضربه الكافرون عند الكعبة، ففر منهم واختفى عند ماء زمزم، وبقي هناك في مكمنه شهراً، يعيش على ماء زمزم، ويغنيه عن الطعام والشراب.

روى مسلم عن أبي ذر في قصة إسلامه. لما دخل على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، قال له: متى كنت ههنا؟

قلت: قد كنت ههنا منذ ثلاثين، بين ليلة ويوم.

قال: فمن كان يطعمك؟

قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم. فسمنت حتى تكسرت عُكَن بطني، وما أجد على كبدي سُخْفَة جوع.

قال: إنها مباركة. إنها طعامُ طُعم»[2].

فالعدول عن الشراب إلى الطعام في قوله «ومن لم يطعمه» لهذين الاعتبارين:

---

(١) المفردات للراغب: ٣٠٤.

(٢) مسلم. كتاب فضائل الصحابة: ٤٤ باب من فضائل أبي ذر رقم ٢٨. حديث رقم ٢٤٧٣.

كون الماء يغني عن الطعام لمن لم يجد إلا الماء.

وكون الإنسان العطشان يلحظ هذا، وتوحيه به نفسه إليه. ــ واللّه أعلم ــ

فنهى طالوت عن كل تناول للماء سواء كان للشراب أو كان للطعام، إلا غرفة واحدة فقط.

١٧ ــ قوله «إلا من اغترف غرفة بيده».

أجاز طالوت لجيشه الاغتراف من الماء باليد.

وتبدو في هذا حنكة طالوت وفطنته. فقد منعهم من الشرب من النهر. لكنه استثنى الاغتراف، لأن الذين يشعرون بعطش شديد بحاجة للماء، فأسعفهم في هذا الاستثناء، ولبى لهم حاجتهم.

فالذي يأمر أو ينهى لا بد أن يلاحظ حاجات الذين معه ونفوسهم، وأن يكون موضوعياً واقعياً مرناً في تكليفاته. وإذا أردتَ أن تطاع، فاطلب ما يستطاع.

وهناك لفتة صحية من منع طالوت الشرب من النهر، وجوازه للاغتراف:

فالذي يشعر بعطش شديد، يضره ويؤذيه الشرب الكثير للماء، وبخاصة إذا كان العطش بسبب عمل شاق أو مجهود كبير مثل جرْي أو سفر أو حمل.

ولهذا يُنصح هذا الإنسان بأن يستريح قليلاً، ثم يشرب من الكأس على دفعات متواليات.

أما الغَرف فقد قال عنه الراغب: «الغَرف: رفع الشيء وتناوله. يقال: غرفت الماء والمرق.

والغُرفة: ما يغترف

والغَرفة: للمرة.

والمِغرفة: لما يُتناول به»[1].

وقد أراد طالوت التقليل عندما أجاز لهم الاغتراف مرة واحدة: لأن الغُرفة هي الشيء القليل الذي يحصل في الكف.

١٨ ـ في قوله «فشربوا منه إلا قليلاً منهم».

دليل على مخالفة الأغلبية، وشربهم من النهر، ولم يثبت على التكليف إلا عدد قليل منهم.

ويبدو أنهم كانوا راغبين في المخالفة كي لا يواصلوا السير للقتال. وقد التفت الإمام الرازي إلى هذه الإشارة النفسية فقال: إنهم لما علموا «أن كل مَن شرب منه فإنه لا يكون مأذوناً في القتال، وكان في قلبهم نفرة شديدة عن ذلك القتال، لا جرم أقدموا على الشرب، فتميز الصديق عن العدو، والموافق عن المخالف»[2].

١٩ ـ التقليل في آيات القصة مقصود. وقد ذُكر ثلاث مرات.

(أ) في قوله «فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم»

(ب) في قوله «فشربوا منه، إلا قليلاً منهم».

(جـ) في قوله «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه».

وذكَر العدو القليل ثلاث مرات، ليدل على التصفية التي كانت تتم في القوم، وفي كل مرة كان يتخلف الكثير، ولا يبقى إلا القليل.

---

(١) المفردات: ٣٦٠.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٦: ١٨٢.

٢٠ ـ الظن في قوله «قال الذين يظنون أنهم ملاقو اللّٰه» فيه قولان:

(أ) قد يُحمل على اليقين. بمعنى أنهم موقنون بلقاء اللّٰه. إلا أنه أطلق لفظ الظن على اليقين مجازاً، لما بين الظن واليقين من المشابهة في تأكد الاعتقاد.

(ب) وقد يبقى الظن على ظاهر معناه، فيؤدي معنى الشك المائل للرجحان، لكن كيف يشكون في لقاء اللّٰه، وهم صفوة الصفوة، وخلاصة خلاصة الخلاصة؟ وأعظم الموجودين إيماناً؟ ليس المراد بلقاء اللّٰه هو البعث بعد الموت، أو تحقُّق الوعد الرباني، فهذا عندهم يقين لا شك فيه، ولكن المراد به القتل مع طالوت من الموت في المعركة، فهذا شك راجح وليس يقيناً قاطعاً، فقد يموت المجاهد على أرض المعركة، وقد يمتد به العمر إلى حين.

قال الرازي عن هذا الاحتمال: «وهؤلاء المؤمنون لما وطَّنوا أنفسهم على القتل، وغلب على ظنونهم أنهم لا يتخلصون من الموت. لا جرم قيل في صفتهم: إنهم يظنون أنهم ملاقوا للّٰه»[١].

وقال القرطبي حول هذا المعنى «يجوز أن يكون شكاً لا علماً. أي قال الذين يتوهمون أنهم يُقتلون مع طالوت، فيلقون اللّٰه شهداء، فوقع الشك في القتل»[٢].

٢١ ـ دعاء القلة المؤمنة «ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين» ليس خاصاً بها، بل يصلح لكل فئة مؤمنة مجاهدة

(١) التفسير الكبير للرازي ٦: ١٨٤.
(٢) تفسير القرطبي ٣: ٢٥٥.

صابرة، تقف أمام أعدائها. ولهذا قال السيوطي «فيه استحباب هذا الدعاء عند القتال»[1].

وهناك لفتة في ترتيب فقرات الدعاء الثلاثة: الصبر وتثبيت الأقدام والنصر. فكل فقرة مبنية على ما قبلها، وترتيبها ترتيباً مرحلياً. فعند مواجهة الأعداء، يحتاج المجاهد أولاً إلى الصبر ـ بمفهومه الشامل وميادينه المتعددة ـ فإذا صبر، حاز المرحلة الثانية وهي ثباته وتثبيت قدميه، ولن تثبت الأقدام إلا عند الصابرين. وإذا ثبتت القدمان، واستبسل المجاهد في القتال نصره اللّه على الأعداء.

ونلاحظ في الدعاء الالتفات إلى أهمية الحالة النفسية والناحية المعنوية، وتقديمها على الحالة الخارجية المادية، ولذلك قدم الصبر على المعركة، وعلى تثبيت الأقدام فيها.

كما نلاحظ تناسقاً وتنسيقاً بين موقفين: اغترافهم من النهر اغترافاً، بينما يطلبون إفراغ الصبر عليهم إفراغاً، وصبَّه عليهم صباً! ولعل في هذا إشارة أخرى: فمن استعلى على الدنيا وحاجاتها، ولم تتعبده ملذاتها، وحرَم نفسه من بعض متعها ومباحاتها، ابتغاء وجه اللّه، عوَّضه اللّه عن ذلك، وأمده بمدد من عنده. فها هي القلة المؤمنة امتنعت من الشرب من النهر، واستعلت بذلك على متع الدنيا ومباحاتها، فعوَّضها اللّه عن ذلك الصبر حيث أفرغه عليها إفراغاً.

٢٢ ـ كان ظهور داود من وسط الجيش المجاهد. فمن ميدان المعركة بدأ أمره، وترقى في طريق القيادة والملك والحكمة والمسؤولية.

(١) الإكليل للسيوطي: ٤٥.

وفي هذه إشارة إلى أن العمل هو الذي يُظهر القادة،والميدان هو الذي يكشف عن المواهب، فالقائدان طالوت وداود ظهرا من وسط الناس، وقدمهما للناس الميدانُ والعمل والواقع. فهذه هي طريق إيجاد القادة وتأهيلهم، وهؤلاء هم القادة الذين يقودون الأمة إلى طريق النصر والتمكين.

* * *

الخاتمة

وإلى هنا يقف بنا الحديث عن قصص بني إسرائيل في القرآن.

ونحن لم نستقصِ الحديث عن كل قصص بني إسرائيل، لأنه ليس هدفنا من هذا الكتاب.

لقد عرضنا سبع قصص من قصصهم:

١ ـ قصة أم موسى عليه السلام، وما جرى من أحداث بعد ولادته، وحفظ اللّٰه له، وترتيب الأمور والأحداث لرعايته والقيام على أمره، ودور أمه وأخته وفرعون وامرأته في هذه المهمة.

٢ ـ قصة مؤمن آل فرعون، وما قام به في إظهار إيمانه، ومواجهته لفرعون، ودعوته إلى اتباع موسى عليه السلام.

والذي جعلنا نسلكه مع قصص بني إسرائيل مع أنه من آل فرعون. هو اتباعه لموسى عليه السلام، ودخوله في دينه. وتبرؤه من قومه.

٣ ـ قصة قارون الذي كان من قوم موسى، لكنه فتنه ماله، فاستخدمه في البغي والظلم، ، فكان في ذلك هلاكه.

٤ ـ قصة تيه بني إسرائيل في صحراء سيناء. لما رفضوا أمر موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة مجاهدين، مع ضمان اللّٰه لهم

بالنصر، فعاقبهم اللّه بالتيه وكتب عليهم التشريد، وحرمهم من شرف الجهاد وفضل التحرير ونعمة دخول الأرض المقدسة.

٥ ــ قصة بقرة بني إسرائيل، ودلالتها على طبيعتهم ونفسيتهم، ونظرتهم إلى أحكام ربهم، وتعاملهم مع نبيهم موسى عليه السلام.

٦ ــ قصة أصحاب السبت، وانقسام أولئك القوم من بني إسرائيل إلى ثلاث أمم. معتدون ومصلحون وساكتون. ومسْخ المعتدين قردة خاسئين، ونجاة المصلحين، والسكوت عن الساكتين.

٧ ــ قصة طالوت، الذي جاء لبني إسرائيل، ملكاً عادلاً، وقائداً ناجحاً، ومقاتلاً مجاهداً، فأنقذهم من واقعهم السيء، وبدل ذلهم عزاً، وهزيمتهم نصراً، وكتب اللّه له وللفئة المؤمنة معه النصر على أعدائهم جالوت وقومه.

ونلاحظ على هذه القصص السبعة التي أوردناها، أن خمسة منها كانت في عهد نبيهم ومنقذهم موسى عليه السلام، وهي القصص الخمسة الأولى.

• • •

ونحن لم نذكر كل قصص موسى عليه السلام مع بني إسرائيل. فهناك قصة موسى مع السحرة الذين آمنوا به، كما في سور الأعراف وطه والشعراء.

وهناك قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل قبل خروجهم معه، واعتراضهم عليه، وتوجيهه لهم إلى الصبر والثبات، كما في الأعراف ويونس.

وهناك قصة موسى عليه السلام معهم لما خرجوا من البحر بإذن اللّه، فطلبوا منه أن يجعل لهم صنماً يعبدونه، لأنهم رأوا قوماً يعبدونه، كما في سورة الأعراف.

وهناك قصتهم مع موسى عليه السلام عندما منّ اللَّه عليهم بالمنّ والسلوى والغمام وتفجير العيون، وطلبهم البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل،كما في سورة البقرة.

وهناك قصتهم مع السامري والذهب وعبادة العجل لما ذهب موسى عليه السلام لمناجاته ربه، وغاب عنهم أربعين يوماً، وعقاب اللَّه لهم. كما في البقرة وطه والأعراف.

وهناك قصتهم مع العهد عند جبل الطور، وعدم مبايعتهم إلا بعد رفع الجبل فوق رؤوسهم،كما البقرة والأعراف.

وهناك قصتهم مع موسى عليه السلام عندما اتهموه في جسمه، وآذوه لحيائه وتستره، ودفاع اللَّه عنه، وهروب الحجر بثوبه ليقفوا على حقيقته. كما في سورة الأحزاب، وتفسير رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لتلك الآية.

وغير ذلك من القصص.

كما أننا لم نذكر قصص بني إسرائيل مع أنبيائهم اللاحقين، مثل داود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام.

ولعلنا نعود إلى بعض تلك القصص في دراسة قرآنية قادمة بإذن اللَّه.

• • •

لكن بقيت لنا وقفة أخرى، مع مجموعة أخرى من قصص السابقين في القرآن، وهي قصص لغير الأنبياء. ونعِدُ بإخراج دراسة قادمة، نسجل فيها وقفتنا مع تلك القصص، ونستعين باللَّه في إعدادها وإخراجها، نرجو أن تكون في أقرب وقت. وستكون حلقة ثانية من حلقات هذه الدراسة «مع قصص السابقين في القرآن» إن شاء اللَّه.

وسوف نخصصها لقصص سورة الكهف، وهي:

١ ـ قصة أصحاب الكهف.

٢ ـ قصة صاحب الجنتين.

٣ ـ قصة موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ.

٤ ـ قصة ذي القرنين.

• • •

ونسأل اللَّه أن يمدنا بعون من عنده، وأن يعيننا على تدبر كتابه، وحسن فهمه وتفسيره، ونشر علومه ومعانيه وأحكامه.

كما نسأل اللَّه أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وذهاب همومنا، وجلاء أحزاننا، وأن يرزقنا تلاوته وتدبره آناء الليل وأطراف النهار، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، وأن يذكِّرنا منه ما نسينا، وأن يجعله حجة لنا يوم القيامة.

كما نسأله سبحانه، أن يتقبل أعمالنا بقبول حسن، وأن ينفعنا وينفع الآخرين بها، وأن يجعلها في ميزان الحسنات يوم القيامة.

ونعوذ باللَّه من فتنة القول وفتنة العمل، ومن العجب والرياء والكبر، كما نعوذ باللَّه من أن نَضِل أو نَزِل أو نجهل.

وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

المَـــرَاجع

١ ـ الإسرائيليات في التفسير والحديث.
للدكتور محمد حسين الذهبـي.
دار الإيمان ـ دمشق. الطبعة الثانية ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥.

٢ ـ الإكليل في استنباط التنزيل.
لجلال الدين السيوطي.
دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣ ـ إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن.
لأبـي البقاء العكبري.
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩.

٤ ـ البداية والنهاية.
لابن كثير.
مكتبة المعارف ـ بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٤.

٥ ـ تفسير القرآن العظيم.
لابن كثير.
طبعة المكتبة التجارية الكبرى ـ بمصر.

٦ ـ التفسير الكبير.
لفخرالدين الرازي.
دار الكتب العلمية ـ طهران.

٧ ـ تفسير القرآن الحكيم ـ المنار.
لمحمد رشيد رضا.
دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية.

٨ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
لأبـي جعفر ابن جرير الطبري. تحقيق محمود شاكر.
دار المعارف بمصر. بدون تاريخ.

٩ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. وبهامشه تفسير القمي.
لابن جرير الطبري.
دار الفكر ـ بيروت ـ ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨.

١٠ ـ الجامع لأحكام القرآن.
لأبـي عبدالله القرطبـي.
دار الكاتب العربـي ـ القاهرة ـ ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧.

١١ ـ جعفر بن محمد الصادق.
لعبدالعزيز سيد أهل.
سلسلة التعريف بالإسلام ـ الكتاب الثاني عشر ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤.

١٢ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
لجلال الدين السيوطي.
طبعة دار الفكر ـ بيروت. الأولى ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣.

١٣ ـ صحيح الإمام مسلم.
بعناية محمد فؤاد عبدالباقي.
دار الفكر ـ بيروت ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣.

١٤ ـ عرائس المجالس في قصص الأنبياء.
لأبـي إسحاق الثعلبـي.
المكتبة الثقافية ـ بيروت.

١٥ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري.
للحافظ ابن حجر العسقلاني.

طبعة محب‌الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبدالباقي.
دار المعرفة ـ بيروت.

١٦ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير.
لعبدالرؤوف المناوي.
دار الفكر ـ بيروت.

١٧ ـ في ظلال القرآن.
سيد قطب.
دار الشروق ـ الثالثة ـ ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧.

١٨ ـ الكليات. معجم في المصطلحات والفروق اللغوية.
لأبي البقاء الكفوي. إعداد عدنان درويش ومحمد المصري.
منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. سوريا: ١٩٨١.

١٩ ـ معجم الأدوات والضمائر في القرآن.
للدكتور إسماعيل عمايرة. والدكتور عبدالحميد السيد.
مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٧ ـ ١٩٨٦.

٢٠ ـ المفردات في غريب القرآن.
للراغب الأصفهاني. تحقيقه محمد سيد كيلاني.
طبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٨١ ـ ١٩٦١.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
حديث القرآن عن قصصه:	١٧
مادة «قصص» في القرآن	١٧
هو القصص الحق	١٨
هو أحسن القصص	١٩
الله يقص قصص السابقين	٢١
فاقصص القصص	٢٢
لعلهم يتفكرون	٢٤
ما نثبت به فؤادك	٢٦
عبرة لأولي الألباب	٢٧
منهج النظر في قصص السابقين:	٣١
هي من غيب الماضي	٣٢
وما كنت لديهم	٣٤
لا يعلمهم إلا الله	٣٦
ولا تستفت فيهم منهم أحداً	٣٨

الموضوع	الصفحة
ولا تقف ما ليس لك به علم	٤٠
إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا	٤٢
كأنهم لا يعلمون	٤٣
حكم رواية الإسرائيليات	٤٦
أقسام الإسرائيليات	٤٧
أدلة منع رواية الإسرائيليات	٥٢
معنى «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»	٥٦
(١) قصة أم موسى عليه السلام:	٦٣
عرض القرآن لها	٦٥
تلاوة القصة بالحق	٦٦
الأجواء التي ولد فيها موسى عليه السلام	٦٧
بين إرادة الله وإرادة فرعون	٦٧
معنى وحي الله إلى أم موسى	٦٨
ماذا أوحى الله إلى أم موسى	٦٩
طريفة رواها الأصمعي	٧٠
نظرة في آية سورة طه	٧٠
موسى في بيت فرعون	٧١
قلق أم موسى ثم هدوؤها	٧٢
دور امرأة فرعون	٧٣
أخت موسى تقتفي أثره	٧٥
شفتا موسى ترفضان الأثداء	٧٦
الحكمة من امتناعه عن المراضع	٧٧
الله يرد موسى إلى أمه	٧٨
أم موسى ترضع ابنها على حساب فرعون	٧٩
الحكمة من الرحلة المثيرة لموسى	٨١
بعض جنود الله في هذه الرحلة	٨٢

الموضوع	الصفحة

ماذا جرى لأم موسى بعد ذلك ٨٣
حديث الفتون وحكاية الجمرة والتمرة ٨٤
أهم دروس قصة أم موسى ٨٧

(٢) **قصة مؤمن آل فرعون:** ٩١
قصته في العرض القرآني ٩٣
من هو مؤمن آل فرعون ٩٥
هو من المبهمات التي لا تبيين لها ٩٥
هو من آل فرعون ٩٦
مشاهد القصة الأربعة ٩٨
المشهد الأول: ٩٩
موسى يبلغ دعوة اللّٰه وفرعون يكيد له ٩٩
نظرة فنية في لقطات المشهد ١٠٠
وسائلهم في مواجهة الحق ١٠١
لماذا يطلب فرعون السماح له بقتل موسى ١٠٣
توقح فرعون في قوله «وليدع ربه» ١٠٤
فرعون يزعم الدفاع عن الأمن والدين ١٠٤
موسى عليه السلام يلجأ إلى ربه ١٠٦
موسى عليه السلام يحلل نفوس الطغاة ١٠٦
ظهور الرجل المؤمن في الوقت المناسب ١٠٧
المشهد الثاني: ١٠٩
دفاع المؤمن عن موسى ونجاحه في مخاطبة الجماهير ١٠٩
لقطات المشهد الثاني ١١١
نظرة في البيان الدعوي للرجل المؤمن ١١٢
المشهد الثالث: ١١٦
فرعون يشغل الجماهير ١١٦

الموضوع	الصفحة

هامان وصرحه ١١٧

أهداف فرعون من بناء الصرح ١١٧

تراجع فرعون أمام منطق المؤمن ١١٩

المشهد الرابع: ١٢٠

الرجل المؤمن يدعو الناس إلى اتباعه ١٢٠

الداعية يقارن بين دعوتين ١٢٢

خاتمة عرض القصة: ١٢٦

الرجل المؤمن يغادر قومه مفوضاً أمره إلى الله ١٢٦

فستذكرون ما أقول لكم ١٢٧

وأفوض أمري إلى الله ١٢٨

فوقاه الله سيئات ما مكروا ١٣١

وحاق بآل فرعون سوء العذاب ١٣٣

بين أبي بكر الصديق ومؤمن آل فرعون ١٣٥

تلخيص لأهم الدروس والدلالات ١٣٧

(٣) قصة قارون: ١٤٣

قصة قارون في السياق القرآني ١٤٥

ذكر قارون في القرآن ١٤٦

موجز قصة قارون ١٤٧

إسرائيليات في قصة قارون ١٤٨

قارون الإسرائيلي وسر قرنه مع فرعون ١٥٢

كنوز قارون ١٥٤

مفاتح ومفاتيح ١٥٥

تنوء بالعصبة أولي القوة ١٥٧

بنو إسرائيل فريقان تجاه قارون ١٥٨

لا تفرح: إن الله لا يحب الفرحين ١٥٩

الموضوع	الصفحة

قواعد قرآنية لاستخدام نعم الله ١٦٢

القاعدة الأولى:

ابتغاء الدار الآخرة في المال والنعم ١٦٣

القاعدة الثانية:

ولا تنس نصيبك من الدنيا ١٦٤

القاعدة الثالثة:

وأحسن كما أحسن الله إليك ١٦٦

القاعدة الرابعة:

ولا تبغ الفساد ١٦٧

القاعدة الخامسة:

إن الله لا يحب المفسدين ١٦٨

أوتيته على علم عندي ١٦٩

فخرج على قومه في زينته ١٧٢

الذين خدعوا بقارون ١٧٤

من هو ذو الحظ العظيم؟ ١٧٥

قال الذين أوتوا العلم ١٧٧

ثواب الله خير لمن؟ ١٧٨

ولا يلقاها إلا الصابرون ١٨٠

نهاية قارون ١٨١

وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ١٨٤

تعقيب القرآن على قصة قارون ١٨٨

تلخيص لأهم دروس القصة ١٩١

(٤) **تيه بني إسرائيل في سيناء:** ١٩٧

القصة في العرض القرآني ١٩٩

موجز القصة ٢٠٠

الموضوع	الصفحة

إسرائيليات حول قصة التيه ٢٠١
الإمام ابن كثير يرفض تلك الإسرائيليات ٢٠٣
وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ٢٠٣
الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ٢٠٥
إن فيها قوماً جبارين ٢٠٨
لن ندخلها حتى يخرجوا منها ٢٠٩
ادخلوا عليهم الباب والحرب الهجومية ٢١١
لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ٢١٤
إذهب أنت وربك فقاتلا: إنا ههنا قاعدون ٢١٥
لا أملك إلا نفسي وأخي ٢١٧
إنها محرمة عليهم ٢١٧
أربعين سنة يتيهون في الأرض ٢١٩
فلا تأس على القوم الفاسقين ٢٢٣
تلخيص لأهم دروس القصة ٢٢٤

(٥) **قصة بقرة بني إسرائيل:** ٢٢٧
القصة في العرض القرآني ٢٢٩
موجز القصة من خلال الآيات ٢٣٠
إسرائيليات حول القصة ٢٣١
الكلمات الغريبة فيها ٢٣٢
إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ٢٣٣
قالوا أتتخذنا هزواً ٢٣٣
قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ٢٣٥
قالوا: أدع لنا ربك ٢٣٦
سؤالهم عن عمر البقرة ٢٣٦
افعلوا ما تؤمرون ٢٣٧

الموضوع	الصفحة

سؤالهم عن لون البقرة ٢٣٨
إن البقر تشابه علينا ٢٣٩
قالوا: الآن جئت بالحق ٢٤٠
فذبحوها. وما كادوا يفعلون ٢٤١
سبب ذبح البقرة ٢٤٣
كذلك يحيـي الله الموتى ٢٤٥
ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ٢٤٦
نماذج لحجارة ألين من قلوب اليهود ٢٤٨
طبيعة اليهود وأخلاقهم من خلال قصة البقرة ٢٥٠
قصة البقرة وطريقة اليهود في المفاوضات ٢٥١
أهم الدروس من قصة البقرة ٢٥٤

(٦) **قصة أصحاب السبت:** ٢٥٧
القصة في العرض القرآني ٢٥٩
موجز القصة ٢٦٠
إسرائيليات في القصة ٢٦١
الكلمات الغريبة فيها ٢٦٢
القرية حاضرة البحر ٢٦٢
اليهود والسبت ٢٦٤
ابتلاء الله لسكان القرية اليهود ٢٦٦
بين ابتلاء اليهود وابتلاء المسلمين ٢٦٧
الحيتان تغري اليهود وتداورهم ٢٧٠
تحايل اليهود على الأمر الرباني ٢٧١
أصحاب القرية ثلاث أمم ٢٧٢
لم تعظون قوماً ٢٧٤
قالوا معذرة إلى ربكم ٢٧٤

الموضوع	الصفحة

ولعلهم يتقون ٢٧٦
نسيان الأحكام مقدمة للعذاب ٢٧٧
نجاة الدعاة ٢٨٠
لماذا مسخ المعتدين قردة ٢٨٠
كان المسخ حقيقياً ٢٨٣
السكوت عن الساكتين ٢٨٥
أهم دروس القصة ٢٨٧

(٧) قصة طالوت: ٢٩١
القصة في العرض القرآني ٢٩٣
موجز القصة من خلال العرض القرآني ٢٩٥
قصة طالوت في الإسرائيليات ٢٩٩
من مبهمات القرآن في القصة ٣٠٣
القصة مليئة بالدروس والعبر ٣٠٥
مع الأستاذ الإمام سيد قطب في تقديمه للقصة ٣٠٧
مع الأستاذ الإمام رشيد رضا في تعقيبه على القصة ٣١٣
بعض لفتات ولطائف الآيات ٣١٧

الخاتمة ٣٣٣
ثبت المراجع ٣٣٧
المحتوى ٣٤١
كتب للمؤلف ٣٥٠

* * *

كتب صدرت للمؤلف

١ ــ سيد قطب الشهيد الحي	مكتبة الأقصى ــ عمان.
٢ ــ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب	دار الفرقان ــ عمان.
٣ ــ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب	دار المنارة ــ جدة.
٤ ــ مدخل إلى «في ظلال القرآن»	دار المنارة ــ جدة.
٥ ــ المنهج الحركي في ظلال القرآن	دار المنارة ــ جدة.
٦ ــ في ظلال القرآن في الميزان	دار المنارة ــ جدة.
٧ ــ مفاتيح للتعامل مع القرآن	مكتبة المنار ــ الزرقاء.
٨ ــ في ظلال الإيمان	مكتبة المنار ــ الزرقاء.
٩ ــ الشخصية اليهودية من خلال القرآن	دار القلم ــ دمشق.
١٠ ــ تصويبات في فهم بعض الآيات	دار القلم ــ دمشق.
١١ ــ مع قصص السابقين في القرآن: القسم الأول	دار القلم ــ دمشق.

الكتاب القادم بعون الله:

مع قصص السابقين في القرآن:

القسم الثاني: قصص سورة الكهف